شيلا روبتهام

الثورة وتحرّر المرأة

ترجمة:
جورج طرابيشي

المكتبة التقدمية

دار الطليعة - بيروت

شيلا روبنتهام

الثورة وتحرّر المرأة

BY: @SA9BB55

ترجمة:

جورج طرابيشي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الثورة وتحرر المرأة

حقوق الطبع محفوظة لدار الطليعة
بيروت - ص ب ١١١٨١٣

الطبعة الاولى
نيسان (ابريل) ١٩٧٥
الطبعة الثانية
آذار (مارس) ١٩٧٩

مدخـــل

ليس موضوع دراستنا تاريخ العلاقات بين النسوية (١) والثورة. فهذا مشروع للمستقبل ، ولا يمكن الا لفريق أن يقوم بعبئه . وقد اكتفيت شخصيا بإعادة رسم مسار فكرة . فكرة في منتهى البساطة وتمكن صياغتهـــا على النحو التالي : ان تحرير المرأة يفترض مسبقا تحرر بني الانسان طراً . وقد حاولت ايضاح الظروف التي سمحت بظهور مثل هذه الفكرة ، وتوقفت عند بعض مظاهرها . وقد سعيت جاهدة كي أقتفي أثرها خطوة خطوة ، منذ ان غادرت كواقـــع حي ، الميدان الخاص للفكر الفردي لتنفذ الى الحياة السياسية ، وحين نظم رجال ونساء أنفسهم كي تكون ملهمة لهم في نشاطهم . وقد أبرزت للعيان التعديلات والتبدلات التـــي طرأت عليها ، والاشكال الجديدة التي لبستها حين دلفت الى الحياة العملية . وغني عن البيان أنني اغفلت أشياء كثيرة لانني أجهلها ، وأهملت اشياء أخرى لاني لـــم أعرف كيف أدخلها في اطار كتابي هذا . ولنا أعلم انه لن يكون له من نفع الا بقدر ما يحلل ويعاد تاليفه ويدمج بالمشروع الواسع الرحب الذي يرمي الى ربط النسوية بالثورة الاجتماعية . وهو لا يتضمن اي مخطط للمستقبل ؛ وانما يلخص الجهود المبذولة سابقا وغرضه ان يبرز بمزيد من الجلاء نقطة انطلاقنا . انه محاولة اولى لتصحيح المنظور المذكر البحت الذي ورثناه من ماضينا الثوري .

لئن وعت النساء دورهن الثوريُ ، فالفضل في ذلك يرجع الى افكار واعمال

---

١ ــ آثرت بصورة نهائية ترجمة مصطلح Féminisme بكلمة واحدة : النسوية ، وهو المصطلح الذي درج المترجمون على تعريبه وشرحه كقولهم : حركة تحرر المرأة ، مناصرة المرأة ، حركـــة النساء ، الخ . «م»

ومنظمات تصورها وابدعها رجال في المقام الاول . وقد توصلنا الى معرفة أنفسنا في مجتمعات تسيطر عليها القوة المذكرة وحضارة مذكرة . ولا يسعنا ان نتطلع الى تغيير الا في اطار حركة ثورية يحددها الرجال . ونحن نحتل المرتبة الثانية حين يدور الكلام عن «الإخاء» او عن «تحرير الانسان» (١) بوجه عام . وهذا النسيان الذي يضعنا على هامش «التاريخ» ليس وليد الصدفة ، وانما يعكس وضعنا الفعلي في مجتمع وحركة يخرجان تماما عن سيطرتنا . والحق ان دونيتنا ضاربة جذورها عميقا في نفوسنا الى حد كان علينا معه أن ننتظر تحرير المرأة حتى ندرك مداها . وهذا النسيان هو الذي يفسر القلق ورد الفعل العنيف والرفض اللاإرادي الذي قابلت به بعض النساء الحركة الثورية ذات الالهام المذكر في أعقاب يقظة وعيهن النسوي المحض .

ان ثمة ردي فعل ممكنين تجاه ذلك القلق : الاول هو الخضوع الذليل للتحديد المذكر لدورنا في الحركة الثورية ، فباسم «الولاء» او حرصا على «الوحدة» نبيح مرة اخرى خنق روح المبادهة فينا وكتم انفاس مخيلتنا ، مع انه لم يمض على انعتاقهما الا زمن يسير ، مكتفيات باعطاء موافقتنا من حيث الشكل . أما رد الفعل الثاني فهو الاعلان بنبرة مغتاظة ان حركة«هم» لا تعنينا بصورة من الصور ، وحزم امرنا على الاندفاع بمفردنا لاكتشاف «انا»نا . في الحالة الاولى ، نغسل أيدينا من كل وعي نسوي نوعي وننكر عبودية المرأة ؛ وفي الحالة الثانية ، نفصل صبوات النساء عن سائر حركات التحرير الاخرى ، متجاهلات عن عمد ان الرجل يعاني هو الآخر من الاضطهاد في هذا العالم .

ان عدم نجع حركة ثورية يحددها الرجل وحده لا يقل وضوحا للعيان عن عدم نجع وعي نسوي يكون هدفه اليتيم تحرير المرأة . في كلتا الحالين ، سيسقط المشروع أسير خصوصيته . ومحاولتنا أن ندرك ، نتعرف ، نفهم ونفهّم الجهود التي بذلت ولو على مضض في الماضي للخروج من المأزق ستكون جزءا من المهام النظرية والعملية الواجب انجازها .

ما كان امكنني ، لولا حركة كانت لي بمثابة نقطة استدلال ، ولولا الافكار التي صاغتها تلك الحركة ، ولولا الدعم المستمر والمساعدة من قبل صديقات يناضلن في سبيل تحرير المرأة ، ما كان امكنني ان اكتب سوى جزء فقط من هذا الكتاب . فالانعتاق يهبنا طاقة وجراة ما عرفنا قط نظيرا لهما في السابق .

وبعد ذلك كله، أوضح انني لا انطق بلسان احد. انما اقدم فقط مساهمتي في مبادلة دائمة ، مساهمة شخصية ولكن تدين بوجودها لنساء أخريات . ان امراة منعزلة تطالب بالانعتاق للنساء جميعا تمثل ظاهرة محزنة ومنعزلة : فهي اما

---

١ ــ كان يجب ان نقول : «تحرير الرجل» حتى يصح المعنى في السياق . فالانسان والرجل لهما مقابل واحد في الفرنسية والانكليزية وفي العديد من اللغات الاجنبية الاخرى . «م»

مسحوقة ، وإما مقضي عليها بدور الشريك الجنسي . وليس يسع اي امراة ان تنعزل بنفسها وأن تطلب الحرية في الوقت نفسه لسائر النساء ، اذ انها ستمنع هؤلاء في هذه الحال من تنظيم انفسهن ومن الذود عن قضيتهن . ثم انها ، من جهة اخرى ، لا تخيف احدا . ان امراة «منعتقة» ووحيدة ان هي الا طرفة او نادرة مسلية ، مادة مثيرة سهلة الاستهلاك . ولكننا بتجمعنا في منظمات جماهيرية نرقى الى مرتبة القوة السياسية ، ونشق طريقنا الى مجتمع ديموقراطي حقا يتيح لكل كائن انساني ان يناضل ببسالة ومسؤولية وذكاء ونجع وفعالية في سبيل حياة حرة وغيرية في آن معا . وديموقراطية كهذه ، تتجاوز كل ما يمكن ان نتخيله في الوقت الحاضر ، لن تكون الا شيوعية .

-١-

المتهتكات

«حقا ، لو كتبت النساء قصصا كما فعل الكتبة في مكاتبهم ، لكنّ ازحن النقاب عن قدر من المخابث المذكرة يعجز معه الرجال مجتمعين عن اصلاح شأنها ...» .

تشاوسر : «قصص كانتربري». «زوجة من بلدة باث»

الاستهلال .

«قد يبدو مستغربا وغير لائق ان تعبر نساء عن آرائهن في عرائض عامة . لكنّ المسيح دفع كي يفتدينا نفس الثمن الذي دفعه من اجل الرجال ، وهو يطلب منا نفس الانصياع لنعمته . ان العمل بملء الخاطر في خدمة المسيح بشريعته ، وازدهار الكنيسة والدولة ، تنجم عنهما سعادة واحدة للنساء والرجال . وتعاني النساء من الآفات التي تنزل بالكنيسة وبالدولة حين تقع الكنيسة او المملكة التي يحيين تحت سقفها فريسة الاضطهاد . وقد خوّل الاحبار سلطات غير محدودة على ضمائر الرجال والنساء ، وهذا ما تبرزه للعيان الاضطهادات التي وقعت في نيوغيت وسميثفيلد وفي اماكن اخرى انصب فيها غضبهم على النساء بقدر ما انصب على الرجال» .

عريضة للنساء ضد البابوية ، في عام ١٦٤٢

«نود ان نغلق ابواب مطبخنا كل ثاني ثلاثاء من الشهر من

الساعة ٨ صباحا الى الساعة ٨ مساء ، الا اذا ارغمنا دافع قاهر على ابقائها مفتوحة . وفي هذه الحال ، نطالب بالحرية ذاتها ليوم آخر من ايام الاسبوع . لكن سيدات المدينة الكبيرات كثيرات المطالب بحيث يجدن على الدوام ذريعة لاستبقائنا . فحين يصير الطقس ممطرا يحتفظن بنا . والحال اننا نطالب ، مهما كان الطقس ، وسواء أأمطرت ام بردت ام اثلجت ، بالحق في ارتداء معاطفنا والذهاب الى حيث يحلو لنا» .

عريضة خادمات ـ ضد الادعاءات التي لا تطاق لسيداتنا الفظات (١٦٤٧) .

«تبدو النساء بالغات الحقارة في انظاركم حتى لتحكمون عليهن بأنهن غير اهل لرفع عرائض او لتقديم تظلمات ... فهل تعتقدون اننا على قدر من السذاجة والغباء يحول بيننا وبين ان ندرك وأن نحس ان حماة امننا ورغدنا يقضى عليهم ويداسون بالاقدام بالعنف والقوة الوحشية ؟ هل تحسبون اننا سنخلد الى السكينة ونلتزم الهدوء في الوقت الذي ... يسحب فيه الجنود أزواجنا من فراشهم ويمضون بهم عنوة ، قاضين بالهلاك عليهم وعلى زوجاتهم وأطفالهم وأسرهم ... وبعد ذلك يُطلب الينا ان نلزم السكينة في بيوتنا !» .

عريضة لصالح اطلاق سراح ليلبورن ، ١٦٤٧

«طوال سنين عديدة ، هدرنا كالكراكي ، وبكينا كالحمائم» .

عريضة ضد قانون الديون ، ١٦٤٧

«حين يجد الرجال انفسهم مضطرين الى التقدم بطلبات طويلة الى زوجاتهم ، يقال ان النساء يتحكمن بهم و«يرتدين السراويل» (١) . وهن يجندن السنتهن وأيديهن وارواحهن كي يفرضن مشيئتهن ، ولا يهدأ لهن بال الى ان ينتزعن النصر الكامل. وحين تساورهن هذه الحاجة ، لا يقر لهن قرار قبل ان «يرتدين السراويل» .

الوقر ادوارد هوايتهد

البدايات صعبة دوما . فالناس لا يحبون ان يندفعوا في مشروع ، لانهم لا يعلمون ما ينتظرهم . معرفتهم تقتصر على ما خلفوه وراءهم . هكذا ، فان النسوية

---

١ ـ تعبير يقصد به ان المرأة هي صاحبة الامر والنهي ، لا الرجل . «م»

ليس لها من «بداية» ، بمعنى ان التحدي المؤنث كان موجودا دائما . ولكن بدءاً من لحظة معينة دخلت النسوية في مضمار الممكن – حتى قبل ان تتصور نفسها على هذا الاساس . والحق ان مقاومة النساء عرفت عدة اشكال تاريخية . ففي اواسط القرن السابع عشر صاح آباء الكنيسة الكالفينية في مستعمرة ماسوشوستس باي في وجه آن هاتشيسون :

«لقد تخطيت مقامك ، وكنت زوجا اكثر منك زوجة ، واعظة اكثر منك مستمعة ، قاضيا اكثر منك مرؤوسة ، وقد زعمت انك تدبرين بنفسك جميع شؤون الكنيسة والدولة على النحو الذي يحلو لك ، ولم تلحقك قط اهانة لسلوكك هذا المسلك» (١) .

لقد اجمعوا كلهم على تعنيفها . كانت قد جمعت حولها حلقة من الاتباع ، معظمهم من النساء . كانوا يجتمعون ، فتقوم آن هاتشيسون بتفسير النصوص وشرحها، وتنتقد بعض القساوسة ، وكانت موضع احترام لانها كانت ضليعة في الكتب المقدسة مثلها في الاعشاب الطبية . كانت ترى ان على كل كائن بشري ان يتطلع الى الاتصال المباشر بالله ، وان الله يسكن في الارواح . وقد هزت هزا عنيفا العقيدة الكالفينية والتمييزات السياسية ومفهوم التفوق المذكر . ولذلك حوكمت من قبل السلطة المدنية والدينية . وكادت ان تغيب عن الوعي اثناء استجوابها ، لانها كانت حاملا ومريضة ، ولم يؤذن لها بالجلوس . وقد اكتفى حاكم المستعمرة بأن سجل على ورقة الاستماع : «يفصح تعبير وجهها عن عاهة جسدية ما ...» . ولم تلبث ان انهازت في ختام المطاف ، واقرت بهرطقتها . لكن ذلك لم يكف قضاتها : «موقفها لا يعبر عن التوبة ...» . وطردت من المستعمرة . فقد كانت بسالتها ومعرفتها بالكتب المقدسة وبلاغتها تغيظهم ، وبخاصة انها كانت من الجنس المؤنث .

لم تكن آن هاتشيسون هي وحدها التي شقت عصا الطاعة . فقد ابدى ريشارد هابرتورن ، وهو من الكويكريين ، من التسامح اكثر مما ابداه حاكم ماساشوستس باي في حوالي عام ١٦٥٠ . لكن اكثر الرجال تسامحا ما كان يقبل بتخطي حدود معلومة . وعند سفره الى انكلترا افصح عن ذلك بجلاء لميلدريد ، العضوة في جماعة الـ «رانترز» (الممسوسات) اللائي كن ينادين بالاتحاد المباشر للمؤمنين الصادقين بالله . وقد سماها «متهتكة تضع نفسها فوق مقام الرسل».

بديهي أن آن وميلدريد ما كن اول امراتين يتساءلن عن مكانهن في العالم ويتطلعن الى شروط حياة افضل . بيد ان طريقتهما في تصوير وضعهما وفي الكلام عن صبواتهما كانت بمثابة اشارة الى بداية موقف جديد كل الجدة . ففي

---

١ – ك.ف. آدامز (الناشر) : «دعاة الالزام الاخلاقي في مستعمرة خليج ماساشوستس ١٦٣٦ – ١٦٣٨» ، بوسطن ١٨٩٤ ، ص ٣٢٩ .

القرن السابع عشر ، لاقت المناقضة تربة خصبة . وتم اكتشـــاف نقاط استناد متينة للتقدم بخطى حثيثة . وكان من طبيعة الطهرانية ان تقدم تبريرات وحافزا لكل ضروب الجراة ، وان تجعلها اشد خطورة بالنسبة الى جميع اولئك الذيـــن يتمسكون بحبل الماضي . وكانت روح العصر والصناعة تستولدان يوميا اكتشافات جديدة ؛ فقد خرج يونان من بطن الحوت ــ محتفلا بالطبيعة ، بالعقل ، بالعدالة، بالحق ، بالملكية ، بالحرية . وكان كل شيء قيد التغيير : تنظيم العمل ، احجام المشاريع التجارية ، ايقاع الانتاج الصناعي . وكان العالم يشهد صراعا شبه مزمن في البرلمان ، وحربا اهلية ، وسلسلة من التجارب الجمهورية . وكان من الناس من يعتمد على المبادىء القديمة ويكتشف معذلك انها تتحول وتتبدل عند التماس مع الواقع المتحرك . وما كانت آن وميلدريد سوى ادوات في ثورة اوسع نطاقا بما لا يقاس . وكان النمو السريع للراسمالية الاولى وللطهرانية وللمفاهيم العقلية والعلمية الجديدة يرغم الناس على النظر الى العديد من المشكلات من منظار جديد . وما كان ذلك ينطبق فقط على الافكار الدينية والسياسية بصدد النظام والوحدة ، وعلى الافكار الاقتصادية حول الفقر والبطالة ، بل كان يفسح في المجال ايضا لابـــداء شكوك حول طبيعة العلاقات بين الرجال والنساء ، الاهـــل والاولاد ، الاسرة والمجتمع ، تلك العلاقات التي كانت التقاليد المرتكزة الى ارسطو والعهد القديم قد جمدتها لقرون وقرون . وكانت واقعة الثورة تضفي على تلك العلاقة راهنيـــة جديدة . وبالرغم من أن العديد من الهرطقات كانت قد وجهت منذ زمن بعيد تحديا الى تراتب السلطات المحددة دقيق التحديد ــ الله ، الملك ، الكاهن ، الزوج ، الاب ، المعلم ــ فان اتباع تلك الهرطقات لم يحلموا قط بوجود شرعي . كانـــوا يتهامسون في المسالك الضيقة ، ويتكلمون بخفوت صوت في الحانات ، ويحرضون الجموع في ايام السوق ، ويتسللون خلسة الى الجامعات ، ويخلعون ثـــوب الكهنوت ، ويسعون الى الاتحاد بالطبيعة ، ويسترقون السمع الى موسيقـــى الافلاك ، ويعبدون الشمس ، ويوجهون الاتهامات الى العصر : وكان المصير الذي يلاقونه الشنق او الاغراق او التمزيق او الحرق في المحارق لانهم تجرؤوا علـــى الادعاء بأن الجنة يمكن ان تقام على الارض .

والحال ان انبياء السماء شقوا طريقهم عنوة ، قساة ، اصلابا ، جديين ، وقتلوا ملكا ، ووضعوا يدهم على حكم الدولة المشروع ، وطوحوا مرة واحدة والى الابد بالنظام القائم وبتراتب الرعايا والسادة . وقدموا للنبيات دوافع ممتازة لاظهار جراتهن . وهكذا ، وفي عصر كانت تبدو فيه الارض وكأنها تهتز تحت قدمي كل انسان ، وتساور الرجل حاجة ماسة الى الطمانينة والصميمية في عقر داره ، لم يكن هناك من هو اهل لتلاوة النصوص وتفسير كلمة الله كالنســـاء . وقد راى الرجال في ذلك تطورا غير معقول ومناوئا للطبيعة . اذ كان يبدو وكأن عبوديـــة النساء جزء من طبيعة الاشياء . أفلم يكن المثل السائر يقول : اذا اردت الحـــد الاقصى من امراة او كلب او جوزة ، فحسبك ان تلجأ الى الضرب ؟ ومن الافكار

الشائعة الاخرى يومئذ فكرة «الرياء» الطبيعي لدى النساء . فقد كن ، على حد قول المثل ، قديسات في الكنيسة ، ملائكة في الشارع ، أبالسة في المطبخ ، قردات في الفراش . وكان «نهم» النساء الجنسي الموضوع المفضل في دراما القرن السابع عشر . وكان الوعاظ يحذرون الرجال من النساء الشابات ومن النبيات . وكان الجنس يختلط اختلاطا خطرا بضروب الكلام الفارغ والمماحكات العقلية حول النساء .

لم تكن روح التمرد ابتكارا جديدا . لكن تأثير الوسط صار محسوسا في القرن السابع عشر . كان المجتمع القروسطي قد عرف حركات منعزلة للعصيان الاجتماعي والسياسي ، لكن امكن على الدوام احتواء المناقضة ودمج المحرضين في النظام الاجتماعي القديم .. وحين يرد حديث الثورة الطهرانية على الالسنة ، يتساءل المرء بينه وبين نفسه احيانا عما اذا كانت قد حسنت مصير المراة . ولكن هذا طرح رديء للمسالة . فالشرط النسائي لم «يتحسن» بقدر ما «تغير» . وقد اختلف الاحساس بنتائج التغير بحسب انتماء النساء الى مختلف الطبقات الاجتماعية . فالاقطاعية والكاثوليكية لم تقدما للنساء سوى النزر اليسير من الامكانيات . وكانت حياة المراة الفلاحة الموزعة بين الكدح المضني وبين الولادات ، وغير المتمتعة الا ضمن حدود ضيقة بمالها وجسدها ، لا تفسح مجالا للنشاطات المطلبية . ربما كان في مقدور امراة العصر الاقطاعي ان تلوذ بالفرار ، ولكن فقط كي تلتحق بالشراذم المتشردة من البغايا السائرات في ركاب جيوش القرون الوسطى . وكان الشيء الوحيد الذي ينتظرهن حياة مغامرات ، محفوفة بعدم الامان وبالمخاطر ، مهددة في كل آن وحين بالمرض والموت .

وحتى المراة الارستقراطية المولد ، التي كانت حياتها اقل تقلقلا ، كانت تنتقل من سلطة الاب الى سلطة الزوج : فقد كانت الاراضي التي تحملها معها بائنة لها تتقدم في الاهمية على مشاعرها وعواطفها ، وما كان انسان يبالي بـ «حقها» في ان يكون لرغائبها صوت مسموع . فاذا ما ترملت ، تمتعت بشيء من الاستقلال اذا كانت لها املاك . هكذا اشتهرت الارامل بميولهن الداعرة وبالملذات الحسية التي يوفرها لهن ازواج غضاض العود . لكن اولئك النسوة المتمتعات بامتيازات لا ينعم بها غيرهن ما كان يخطر لهن في بال ان يطرحن على بساط النقاش وضعهن الدوني. فقد كنّ ينعمن ، اولا ، بالكثير من الخلوات الوثيرة والمريحة التي تتيح لهن ان يحيين حياة محترمة وان في حدود ضيقة . وكان عجزهن يختفي ، ثانيا ، خلف طقوس ومراسم متقنة توحي اليهن وكأنهن موضع تودد ومغازلة وتوقير . ثالثا ، لم يكن العالم الفكري للكنيسة الكاثوليكية يضع في متناولهن وسائل التمرد على تقاليد تضرب جذورها بعيدا في الماضي . فبدلا من الدخول في عراك مع الافكار المذكرة عن طبيعة المراة وشرطها ، كنّ يتدبرن امورهن ويكتفين بالكرامة والامن اللذين ينعمن بهما في الدير والبلاط . كنّ يتحاشين النظر وجها لوجه الى عجزهن، فيبحثن عن ملجأ في الرداء الديني او عن ملاذ في الطقوس المتكلفة لفن الغزل. وكان ذلك

اجدى لهن ، اذ ما كان المهن الا ليتعاظم بحكم عجزهن عن تدبر العلاج لوضعهن . هكذا نشهد ، من جهة اولى ، عملية اضفاء طابع مجرد ومثالي على المراة بوصفها موضوعا لشهوانية مصعّدة ، ومن الجهة الثانية ، اللعنة الكنسية المنصبة على المراة باعتبارها مخلوقا شبقا . ولما كانت جان دارك لا تسمع أصواتا فحسب ، بل تقود ايضا جيوشا ، فقد أرغمت على ارتقاء سلم المحرقة ... ولقد كانت حالة كريستين دي بيزان مغايرة : فقد استنتجت فقط من الصورة التي صورت بها النساء في «رواية الوردة» (١)، وكانت بمثابة بيان لفن الغزل ، أن هذه الرواية لم تخطها يراعة امراة . وبما انه لم يكن في متناولها جيش او جمهور شعبي ، فقد حظيت بمعاملة أرق من تلك التي عوملت بها جان دارك .

أين كان يمكن العثور ، والحالة هذه ، على افكار أخرى عن قوى المراة الكامنة؟ لقد أمكن على امتداد العصر الوسيط المسيحي ابقاء المراة اسيرة القيود والأغلال ، عن طريق خلط الانوثة بالحيوانية التي كان يفترض في حواء انها تمثلها ، ومن ثم، بدونية طبيعية . فالمراة غير جديرة بالاحترام والتبجيل الا اذا نامت على طوى جنسيا . كانت السيدة العذراء موضع توقير ، لكن عالم الروح السامي كان وقفا على الرجل . ولم يحجم بعض علماء العصر الوسيط عن التساؤل عما اذا كانت المراة محبوة فعلا بنفس خالدة . إبان ذلك، كانت النساء يفعلن ما في مستطاعهن ويحيين كيفما واتتهن الريح . وكان للكاثوليكية طريقها الخاصة في تقديم النجدة للروح المعذبة : فمارغريت كامب ، وهي متصوفة من القرن الرابع عشر ، عاينت أبالسة بعد ولادة عسيرة ، ودخلت في اتصال مع السماء ، و«لم تعد ترغب ، من ثم ، في ان تكون لها علاقات جسدية بزوجها، لان الواجب الزوجي يثير اشمئزازها الى درجة كانت تؤثر معها أن تأكل وتشرب من ماء الترعة ووحلها على ان تقيم علاقات جسدية ، اللهم ان لم يكن بحكم الطاعة» (٢) . وعندما صرفها زوجها بعد مناقشة مقتضبة مع أسقف المنطقة ، قدمت الدليل على استقامة عقيدتها بأن عاشت حياة واعظة متجولة محوطة بالاحترام لقداستها .

لقد انطلقت النسوية مع ابتداء عصر النهضة وعبادته للمراة ، تلك المخلوقة من الظرف والجمال والتوازن والفكر والتبحر . وكان كتّاب عصر النهضة يدعون الى تربية اكثر عمقا واكثر انسانية لبنات النبالة . صحيح ان هذه التربية لم تطل سوى أقلية يسيرة ، لكن صيغت يومئذ لاول مرة موضوعة التربية والتحرير اللذين سيصيران المطلب الرئيسي للنسوية . وكانت علاقات النساء بالهرطقات العديدة ، الالفية وغيرها ، ذات دوي اعظم ، وقد قوبلت بقمع اشد واصرم . وما كانت

---

١ ـ قصيدة مطولة من القرون الوسطى اشبه ما تكون بالمعلقات لدى العرب . «م»

٢ ـ كتاب مارغريت كامب ، الناشر و. باتلر باودن ، لندن ١٩٥٤ ، ص ١٥ ـ ١٦ .

المفاهيم التعظيمية في غالب الاحيان للمذاهب الهرطقية عن طبيعة المراة وشرطها بريئة من التناقض . فقد كانت الهرطقات تشجب الجسد وتطالب في الوقت نفسه للمؤمنين بتفتحه الكامل . كانت تشكك في النساء ، لكنها كانت تمنحهن بصفتهن من اتباعها نفس الحقوق التي كانت تمنحها للرجال . وكان هذا الالتباس ، الذي وسم الكثير من الهرطقات بميسمه ، بمثابة مأزق في داخل معسكر المسيحية : فقد كانت هذه الاخيرة ترفض التجربة المباشرة ، لانها كانت تضع ثقتها في بعض المبادىء المنزلة عن الله . ولم يكن العالم المادي يوحي الا بالاوجاع والاخطار . وكانت الكنيسة تبدو وكانها صخرة او معقل امين . وكان الذود عن حياض الكنيسة له الاولوية على كل ما عداه . وخارج نطاق الكنيسة كان يسود ملكوت المجهول والوثنية والبدائية والحيوانية والعفوية والخطر . وفي ممارسة الحب وفي الحالات القصوى من الوجد الديني كانت الكائنات البشرية تلاقي الغيب والماوراء . ففي تلك اللحظات ذات الكثافة المطلقة كان «الأنا» ، الخارج من إسار عزلته ، يلاقي «انا» الجانب الآخر من الحاجز . وكان الرجل المؤول للعالم يوحد في الهوية بين المراة وبين تجارب تتجاوز حدوده الضيقة . هكذا غدت المراة في نظره «الطبيعة» التي يخافها ويخشاها . فقد كانت تمثل الولادة ، الخصوبة . وكان الرجل المسمى بـ «الهرطوقي» ، المرغم على تحديد نفسه بالتعارض مع الحقيقة التي كانت تفرض عليه فرضا ، يجد نفسه في منطقة حرام No Man's Land غير مأمونة الجانب بالمرة . وكما كانت الجنسية المثلية وانحرافات «الرجولة» تعتبر على الدوام من قبل أولئك الذين يحاربونها زيغا وضلالا «مذهبيا» ، كذلك كانت الشهوانية التهتكية والتقوى الزهدية تعزيان الى الهرطقة ، هكذا ظهر الخوف من التجربة العاطفية المشبوبة ، المزيج من اللذة والالم ، التي يكون جسد الانسان في اثنائها مفتوحا للانطباع المباشر ، الفظ ، الدنس . ولهذا السبب بالذات كان الهرطوقي يشعر بضيق وحرج في حضرة المراة ويرى توكيدا لموقفه هذا في التوراة . ولكن بالرغم من هذا التحيز الارتيابي المسبق تجاه الجنسية المؤنثة ، وبالرغم من ضيق حقل العاطفية الذي كانت الشيع تتيحه للنساء ، كسبت الهرطقة تأييد قسم من العالم النسائي القروسطي . وكان تأثيرها يطال بوجه الخصوص نساء المراكز المدينية الآخذة بالتوسع ، حيث ما كن يخضعن لنظام السخرة ولا يستفدن في الوقت نفسه من امتيازات الدير او البلاط . وكانت الشيع الهرطقة تتيح لهن منفذا انفعاليا وفكريا ما كان لهن ان يجدن نظيرا له في مكان آخر . كانت الشيع تجتذب في البداية النساء العازبات والارامل من الشرائح العليا بوجه خاص ، ثم راحت صفوفها تتسع تدريجيا لزوجات التجار والحرفيين . وكانت السلطات المحلية تستشيط غيظا من شعبيتها ومن المذاهب اللاهوتية التي تروج لها على حد سواء . ويتجلى هذان المظهران للشيع الدينية ما قبل الطهرانية بوضوح كبير لدى الويكلفيين الانكليز : فقد طردت النساء من مدنهن الوعاظ الويكلفيين

الذين كانوا ينددون بـ «شبق» المراة ، لكن زوجات «المحتجين» (١)الاوائل وبناتهم كن يطالعن «التوراة الانكليزية» الجديدة التي خرجت للتو من المطبعة ويفسرنهـــا ويؤولنها .

كانت الواعظات والشهيدات من النساء كثيرات في صفوف الشيع المهرطقة . وليس لنا أن ندهش حين نسمع بظهور نساء متنبيات يبشرن بالفية (٢) المراة . ولعله يتوجب علينا أن نرجع بـ «منابت» النسوية لا الى آن وميلدريد ، وانما الى فيلهمين البوهيمية التي اعلنت في اواخر القرن الثالث عشر أن مأثرة فداء المسيح لا تشمل النساء ، وان حواء ما تزال تنتظر الخلاص . وقد اجتذبت اليها نساء الشعب ونساء البورجوازية والارستقراطية على حد سواء . وقد نددت «التفتيش» بالشيعة التي اسستها في مطلع القرن الرابع عشر . وقد تمخضت تلك الانطلاقة لنسوية تطرح مسالة دور المراة في خطة الطبيعة ، وتراها في اتصال مباشر مع الله ، وتمنحها حق تأويل الكتابات المقدسة وحق التنبؤ ، تمخضت في مرحلة تالية عن نشوء حركات اخرى لتحرير المراة ، وحين اكتسبت طابعا دنيويا ابدعت انشاءات مدهشة الغت الله واستبدلته بالحب .

إبان القرن الرابع عشر انسدت الملاجىء التقليدية . فأماكن الاختلاء والانزواء باتت نادرة . وغاصت السلطات الدينية والزمنية في وحل البيروقراطية ، وصارت تضيق ذرعا اكثر فأكثر بالاثارة الصوفية . ففي بريطانيا العظمى جاء اغلاق عدد من البيوت الدينية علامـــة على بداية أفولها . ولم تعد الاضطرابات التي نشأت عن نمو المدن ، ومصاعب صناعة الصوف ، والخوف من التحريض الاجتماعـي ، والتشرد ، تشجع وجود أتراب لمارغريت كامب . ونظرا الى تبدل التنظيـــم الصناعي ، بات الرجال ينظرون بحسد الى المهن التي كانت موقوفة بحكم التقاليد على النساء . ولقد كان سيشق على امراة بلدة باث ان تنافس الرجال في القرن الرابع عشر . وكان من نتيجة انحلال المشاعات القروية أن حل رفض قاطـــع للجنسية النسائية محل التسامح تجاه العلاقات ما قبل الزوجية ـ تلك العلاقات التي كانت تكرس في وقت لاحق بسر الزواج المقدس . وفي المدن ، كان الاولاد غير المرغوب فيهم سببا في نفقات ومتاعب من كل شكل ولون .

اذا صدقنا الادب البورجوازي الدارج في تلك الايام ، فان نساء المدن كن بعيدات عن ان يكنّ محض مخلوقات سلبية وطيعة ووديعة . فقد كان جميع الكتاب ينددون بتهتكهن وعصيانهن . بل كان التهتك والعصيان شبه مترادفين . ومـــن

---

١ ـ اي البروتستانتيين . «م»

٢ ـ الالفية مذهب ديني يقول انصاره بان المسيح سيظهر على الارض من جديد لمدة الف سنة، وحركة دينية اجتماعية تطالب بالعودة الى الشروط الاجتماعية التي كانت قائمة في البدء ، كما تصفها اساطير خلق العالم . «م»

الممكن ان نضع قسما لا بأس به من تلك المؤلفات على حساب ذوق جمهور شره الى القصص الجريئة ، المعطرة بنفحة من النزعة الاخلاقية . لكن من الواضح للعيان ايضا انها كانت تعبر عن عجز الاواليات القديمة للرقابة الاجتماعيـــة عن مواجهة الموقف المستجد . ان المشكلات التي كان يصطدم بها رجال القرن السادس عشر لم تكن في ذاتها جديدة ، ولكنها كانت تحاصرهم بأعداد كبيرة وعلى نطاق واسع للغاية بحيث كان حلها يثير مشكلات اشد خطورة . فحين يلاحظ المؤلفـــون ان الكثيرات من البنات ـ الأمهات «لا يشعرن حتى بالخجل» (١) ، فان انعدام الخجل هذا هو ما كان موضع استنكارهم . وحين كانوا يتشكون من صاحبات اوغاد لا صلاح لحالهم ، ومن البنات العموميات ، ومن البائعات الجوالات ، ومن «أكياس الرذائل» اللائي كن يبعن انفسهن مع بضائعهن ، انما كانوا ينددون بداء وجد من قبل ولكن لم يعد في مقدور السلطات التغلب عليه . والحق ان أسرة تيودور (٢) باتت تواجه ، بحكم اتساع نطاق الحركية الاجتماعية العامة والتغيرات الطارئة على الريف والمدينة على حد سواء ، تفاقما كبيرا في البؤس المتجول . ويشهد «قانون الفقراء» الذي سنوه ، بلامعقوليته ، على حيرتهم وارتباكهم . فنظرا الى اتساع المدن ، صار من الصعب اكثر فأكثر معرفة ما يفعله كل انسان فيها . وقد صدر في عام ١٥٤٧ مرسوم مثير يحظر على اللندنيات «التجمع للثرثرة والكلام» ويأمر الازواج بـ «امساك زوجاتهم في البيوت» . وبديهي ان التطبيق العملي لهـــذه التدابير كان من وادٍ آخر !

كانت القوى المبشرة بنظام جديد تزداد جراة وجسارة ، طرداً مع انهيار البنى الاجتماعية التي كانت تكبح صبوات النساء وتطلعاتهن . وليس ثمة ما يحمل على الدهشة اذا وجدنا ، في عز القرن السابع عشر الذي اطلقت فيه الثورة الطهرانية جيشا من الهراطقة والمهذارين والخطباء الثرثارين في ارجاء العالم الاربعة ، عددا من «المتهتكات» من أمثال ميلدريد ، اللائي كنّ قد أرغمن حتى ذلك اليوم على التزام السكينة وكظم غيظهن والانصياع لعصا الطاعة بانتظار ازوف ساعتهن ، يضمن اصواتهن الى أصوات الآخرين . ففيما كان عدد من المفكرين الجذريين الذين فرغ صبرهم يرمون قفاز التحدي في وجه السلطات ، ويحاكمون رؤساءهم ، وينتظرون قبل قبولهم بالاوامر اعلان المساواة بين الناس جميعا ، طفقت بضع نساء يستحوذن على بعض من تلك الافكار . وقد وجدن في الجمعيات الدينيات المستقلة ذاتيا في تسيير شؤونها ، والتي انشأتها الشيعة الطهرانية ، قدرا من المساواة وحرية اكبر في التعبير . فهنا كان الرب يسفح روحه على المؤمنين جميعا ، رجالا ونساء .

---

١ ـ ايفي بنشبك ومرغريت هيفيت : «الاطفال في المجتمع الانكليزي» ، لندن ١٩٦٩ ، ص.٢٠٠ .

٢ ـ الاسرة المالكة البريطانية بين ١٤٨٥ و١٦٠٣ ، وملوكها خمسة : هنري السابـــع ، هنري الثامن ، ادوارد السادس ، ماري ، اليزابيت الاولى . «م»

وهنا كان في وسع حائكة الدانتلا الفقيرة أن تصير خادمة للرب . فما دام الناس هنا قد تخلصوا من الكهنة وأعلنوا عمومية الكهنوت ، فما الداعي الى وقف نعمة الله على الرجال وحدهم ؟ كانت آنا ترابنل تصوم ، وتتنبأ ، وتؤكد في «صرخة من حجر» أن «كل من حرره **الابن** فهو حر» . ولئن كان الوجدان الفردي هو المعيار الوحيد ، فلماذا لا تستطيع النساء ان ينازعن ازواجهن وآباءهن في حقهم في أن يملوا عليهن ما يتوجب عليهن ان يؤمَّن به ، وان يمارين في حقهم في مراقبة افعالهن وسلوكهن ؟ وبالرغم من الاشمئزاز الذي كانت تبعثه في قلوب الانغليكانيين والكالفنيين فكرة «احتمال انتماء شريكي الفراش ... الى كنيستين مختلفتين»(١)، كانت نسوة طهرانيات يخترن بأنفسهن عقيدتهن، بل يطلبن الطلاق بحجة «الانحراف الروحي» . وقد فرض نفسه بصورة نهائية المبدأ القائل ان سلطة الآباء والازواج تقوم على اتفاق ، وان الازواج ليس لهم من حق في مراقبة معتقدات زوجاتهم اكثر مما للقضاة من حق في انتهاك حرمة آراء المواطنين . وبالرغم من ان ذلك المبدأ لم يلق التقدير الكبير لدى الكثيرين من أنصار حكومة الوصاية (٢) ، فقد لبث على قيد الحياة بعد انحلال «الكومنولث» في القرن السابع عشر ، وجرت مناقشته في العديد من الهيئات والجمعيات التشريعية . وهو لا يزال بانتظار التطبيق التام الشامل ، مثله مثل فكرة الكويكري جورج فوكس القائلة ان السيطرة المذكرة بنت الخطيئة وان الرجل والمرأة سيكونان متساويين في الحياة الجديدة .

حتى منذ ذلك العهد ، طفقت انعكاسات تلك الافكار تتخطى على نحو ظاهر للعيان حدود الشيع . ففي ١٦٤٠ ظهرت أهجية بعنوان «انتقام النساء العاجل» ، هاجمت الكتابات المعادية للمرأة ، وهوذا العنوان الكامل لتلك النشرة : «انتقام النساء السريع : او رد على السير سلدوم سوبر الذي ألف مقالات بعنوان : العرعر والتفاح البري والاربعائيات الخ ... انه رد عادل ووضع في قفص الاتهام لتلك الكتب مع دفاع عن قضية المرأة . بقلم ماري تاتل ــ ول وجوان هت ــ هم ــ هوم، العازبتين ، ١٦٤٠») . وقد احتجت تاتل ــ ول وجوان هت ــ هم ــ هوم على الاخلاق الجنسية المزدوجة وعلى تربية البنات الناقصة وغير الكافية والمفرقة في التخصص . وقد أكدتا ان المتهجمين على الجنس المؤنث ما هم الا رجال مخفقون في الحب او شاء لهم حظهم أن يقترنوا بامرأة شكسة الطباع . واستشهدت تاتل ــ ول و هت ــ هم ــ هوم بالتوراة ــ وهي طريقة مجربة ــ لبيان ان النساء لم يُخلقن إماء او خادمات . واذا صح انهن لم يخرجن من راس الرجل كي «يصدرن اليه الاوامر» ، فانهن لم يخرجن ايضا من قدميه «حتى يدوس عليهن» . وساقت

---

١ ــ كيث توماس : «النساء في الحرب الاهلية بين الشيع» ، في «الماضي والحاضر» ، العدد ١٣ ، ١٩٥٨ ، ص ٤٨ .

٢ ــ الاسم الذي كان يطلق على حكومة كرومويل . «م»

المؤلفتان الادلة ، بمنطق لا يقبل الدحض ، على ان النساء اللائي «خرجن من جنب» الرجل مدعوات الى ان يكن عديلاته ورفيقاته ، بعد ان وحدت بينهم المودة . وفي الوقت الذي ركزت فيه تاتل-ول و هت-هم-هوم عنيف هجومهما على اعداء المراة في عصرهما ، ممن كانوا يبغون ان يبرهنوا بالحجج الباطلة وبالشبهات على ان المراة «المخلوقة من ضلع عجراء ومنحنية» تنزع الى الشر اكثر مما تنزع الى الخير، لم يدر في خلدهما ان تطالبا للنساء بمسؤوليات حكومية . فقد كانتا عاجزتين ، وهما اللتان كونتهما الثورة الطهرانية ، عن التعبير عن مطالبهما بلغة السياسة . كانت النسوية لا تزال تجهل التبرير السياسي ، لكنها كانت قد طفقت تلجأ الى التعليلات الاخلاقية . فالنساء ، اللواتي وجهن في ١٦٤٢ عريضة الى «البرلمان الطويل» (١) ، اعتذرن وبررن احتجاجهن على سوء استعمال البابوية لسلطتها : «نحن لا نتصرف بدافع من روح الخيلاء او الكبرياء ، فنزعم اننا نعادل سلطان الرجال او حكمتهم ...» .

كان من نتائج الطهرانية تحسن محدود في شرط المراة المعنوي . وسنقول تحديدا انها اسبغت على النساء ضربا من كرامة واضحة المعالم والحدود . فقد حثت على انشاء تصور اكثر انسانية عن العلاقات بين الجنسين ؛ وثارت على الفظاظات التي تقترف بحق النساء ، وعلى طقوس من اشباه تطهير المراة في الكنيسة بعد الوضع ، وهو طقس كان يجعل منها ضمنيا مخلوقة نجسة وحيوانية. وقد اعطت الطهرانية النساء ، ببنائها حكمها على القيمة الخلقية لشخص من الاشخاص على نوازعه الداخلية لا على راي الورى او وجهات نظر الحكومة ، اعطتهن الوسيلة المناسبة للتشهير بالاخلاق الجنسية المزدوجة . وكانت الديموقراطية الطهرانية تقوم على فكرة ان الفرد سيد شخصه وطاقاته ، وان من حقه الذود عنها ضد كل تدخل وضد كل انتهاك . ولم يكن هناك مناص من ان تعود مثل هذه الفلسفة بالنفع والفائدة على النساء . كذلك كان فكر الديموقراطية الطهرانية ينطوي ضمنا على أن للنساء ، بصفتهن كائنات انسانية ، حقوقا معينة غير قابلة للاستلاب في موضوع الحرية المدنية والدينية .

لكن هذا لا يبدل شيئا في حقيقة ان الموقف الطهراني من السلطة لبث مشوبا بالالتباس على الصعيد السياسي . فبصرف النظر عن بعض المتطرفين والالفيين ، كانت الغالبية الكبرى من الطهرانيين لا تعتقد ان شكل الحكم القائم على اساس موافقة المواطنين ورضاهم يضع في قفص الاتهام سلطان الاب . وكانت تبحث عن تسويات وتسعى الى مساومات في موضوع الحرية . هكذا كانت «موافقة المواطنين» تفهم على انها «موافقة ارباب الاسر» . وعلى النحو ذاته ، ما كانت

---

١ ـ الاسم الذي يطلق على آخر برلمان انكليزي دعاه تشارلز الاول للانعقاد في ١٦٤٠ ، وحله كرومويل في ١٦٥٣ ، واستدعي مرتين بعد موت الوصي . «م»

شيوعية المعمرين الاوائل في اميركا تقبل ، في عقد الدولة ، سوى ارباب الاسر ، مما احدث حركة تمرد في اوساط الشبيبة : فقد كانت الحرية تؤول على انهـــا حرية آباء الأسر . وكان يسود الاعتقاد بأن حق الاقتراع لا يمكن ان يعود الا الى اولئك الذين لا يخضعون لمشيئة الآخرين . اما اولئك الذين يرتبطون باتفاق أجور او بعقد زواج ــ شأن الزوجات ــ فقد تنازلوا عن حقوقهم وخسروا امتياز حق الاقتراع . وعليه ، كانت المشاركة في الحكم وقفا على اصحـــاب الاملاك وعلى الرجال . وما كانت الديموقراطية الطهرانية تنافح عن حقوق الفلاحين والصناع وسواد الشعب ، بل كانت تذود فقط عن حقوق كبار المزارعين وارباب الحرف في المدينة . ولم تأخذ في حسابها النساء ، ولا حتى النساء المنتميات الى الشرائح العليا . وفي الواقع ، كانت النساء «مدرجات» في حق سادتهن في الاقتراع .

لقد تضافرت جملة من العوامل ، فوق ذلك ، لكي تعزز سلطان زعماء الاسر في القرن السابع عشر . فقد كان هؤلاء قد اضحوا ، على الصعيد السياسي ، صلة الوصل الاساسية بين سلطة الدولة والحكومة المركزية وبين كل من يحيا تحت جناحها . وكان البناء الهرمي التراتبي قد ظل قائما في مكانه ، وان يكن قد تبدل وجهه وصار زمنيا . كان رب الاسرة يقرأ الكتاب المقدس ويثقف اسرته ، فكـــان مسؤولا لا عن رغدها المادي فحسب وانما ايضا عن خلاص النفوس . وقد ناب مناب عبادة العذراء والقديسات توكيد متصلب لأبوة الله . ونظرا الى ان الضغط الاقتصادي فجر الرابطة القروسطية ، فقد باتت الاسرة تحتل مكانة الصدارة : فهي وان لبثت تشكل وحدة انتاجية مستقلة ، الا انها انفتحت منذ ذلك الزمان لتغلغل البنى التجارية الجديدة للرأسمالية الاولى . وكانت الطهرانية تقول بثبات ودوام الوحدة المستقلة الصغيرة ، سواء أكانت استثمارة زراعية أم مشروعا عائليا، حيث يعمل اعضاء الاسرة جنبا الى جنب وحيث يمكن للمرأة ان تكون شريكا اصيلا وان في مرتبة دنيا . لكن هذا المفهوم للاستقلال الذاتي الاقتصادي لم يجد محيدا من التراجع امام الوقائع المستجدة . فقد نفضت نساء المستثمريـــن الزراعيين الميسورين أيديهن من العمل في الحقول ؛ اما في المـدن ، حيث راحت الصناعة اليدوية تتحول بخطى حثيثة الى صناعة رأسمالية ، فان زوجات المقاولين ذوي النفوذ مهما يكن ضئيلا بترن كل صلة لهن بالاعمال . هكذا تمايز دور كل مـــن الرجل والمرأة بجلاء ووضوح . فالعمل خارج المنزل بات شبه موقوف على الرجل، بينما وقعت الاسرة واعباء البيت على كاهل المرأة . لقد تبدل الموقف اذن تبـــدلا كبيرا بالمقارنة مع العادات القديمة للطبقات المتوسطة ، يوم كانت الفتيات يتولين شؤون التدبير المنزلي بينما كانت «ربة البيت» تتفرغ لتسيير املاك الاسرة .

بيد ان تحولات التنظيم الصناعي طالت في الوقت نفسه دور المرأة في عالم العمل . فقد راح مركزهن في الروابط الحرفية يتدهور تدريجيا . وآلت حقوق الارامل وامتيازاتهن القديمة الى زوال . ولما صار التدريب على اصول المهنـــة يستوجب قواعد وضوابط اشد صرامة ، فقد سدت المنافذ او كادت في وجـــه

النساء الى النشاطات المهنية . وبدءاً من القرن السادس عشر ، دارت مناقشة واسعة النطاق حول تعريف «العمل النسائي» . فقد باتت بعض المهن الموقوفة آنفا على النساء تمارس يومئذ من قبل الرجال الذين استحوذوا عليها تدريجيا بصورة نهائية . فتجارة الجعة كانت تتعاطاها النساء في البداية في أرجح الظن ، لكنها حرمت عليهن في ابان القرن السابع عشر . وفي يورك ، وبالرغم من مقاومة النساء ، انتقلت صناعة الشمعدانات الى أيدي الرجال . وبالمقابل ، صارت الصناعات الجديدة من اختصاص النساء اللائي أقصين عن الروابط المهنية والحرفية . وقد اتضح ان صناعة النسيج بوجه خاص توائم النساء ، لا بحكم التقاليد فحسب ، بل لأن الكثير من الاعمال كان يمكن ان تتم في المنزل . وبالرغم من ان المحاولات بذلت لاقصاء النساء عن الحياكة ، بقي الغزل منطقة نفوذهن المغلقة : فالغزل كان في الماضي ايضا صناعة منزلية . ولما كانت أجور الاشغال المنزلية اقل بكثير من أجور الاستخدام في الصناعة ، فقد شهد القرن الثامن عشر تضاعف وتكاثر ذلك النوع من النشاطات . ونظرا الى ان «تقسيم العمل» راح يتنوع ويتشعب ، فقد خصت النساء بالاعمال الفرعية والثانوية او بتلك التي تفسح المجال واسعا أمام استغلال اليد العاملة . هكذا سقطت نساء الشرائح الفقيرة ضحايا لشكل جديد من أشكال العبودية ، بينما كانت شقيقاتهن الاوفر حظا وثروة منهن يغادرن مجال الانتاج وينصرفن الى الهموم المنزلية ، مقلدات بذلك عادات الطبقات العليا وأعرافها .

في عصر كان فيه الرجال يجعلون من العمل معيار كرامتهم ومقياس قيمتهم، كانت نساء الشرائح المتوسطة يرين في البطالة أبرز اشارة على انتمائهن الى طبقة عليا . وما كن بمنأى عن النشاط الصناعي فحسب ، لكن افتقارهن الى التأهيل كان يحرم عليهن بوجه العموم احتراف المهن الحرة . وقد زادت في عزلتهن سيرورة التخصص الفكري الناجمة عن الثورة العلمية . ومن جديد وجدت النساء انفسهن وقد سدت في وجوههن جميع الابواب الا باب المهن الاقل حظوة والاقل مردودا . ويقدم لنا الطب مثالا أخاذا على ذلك : فنظرا الى انه لم يعد فنا سحريا بل أمسى علما يستوجب معارف نظرية متبحرة ، فقد وضع الرجال ايديهم على جميع النشاطات الهامة في الطب . وتوارت النساء الجراحات عن الانظار في بحر القرن السابع عشر . وزالت حظوة فن القبالة والتوليد الذي كان موقوفا على النساء بصورة رئيسية ، بالرغم من انه كان في الماضي موضع إجلال وتقدير وحسن مردود . اما الحرج الذي كان ينجم في البداية عن حضور رجل لعملية الولادة فقد تبدد ، اول ما تبدد ، في الاوساط الغنية والمترفة . واضحى عمل القابلة موقوفا على الفقراء . وعلى كل حال ، ارتفعت بعض الاصوات القليلة بالاحتجاج . فجين شارب تهاجم في كتاب «القابلات» (١٦٧١) المنهجية العلمية والمعرفة الكتبية وتدافع عن المهارة المتوارثة جيلا عن جيل : «ليست المصطلحات المتعالمة هي التي تكفل لنا المهارة في العمل ، وهل كان من الضروري ان يعرف المرء

اليونانية حتى يمارس الفن ؟ ليست الالفاظ الا القشرة التي كثيرا ما نكسر عليها أسناننا لنصل الى اللب ، اقصد بذلك عقولنا التي تجهد لالتقاط معناها . فلو قدمت لنا المعرفة ذاتها بلغة الأم لوفروا علينا الكثير من الجهد الذي لا طائل تحته» . ومن هنا فكرت اليزابيت كولييه في عام ١٦٨٧ بتنظيم دورات لتأهيل القابلات ، لكن مشروعها لم يوضع قط موضع تنفيذ . وفي فرنسا ، سار التطور في المجرى نفسه ، لكن القابلات لم يكتفين بالانتحاب والعويل، فقد أسسن مدرسة لفن التوليد ورفعن بالتالي من مستوى قدراتهن المهنية .

هذا محض مظهر واحد من مظاهر اختلاف التطور بين فرنسا وانكلترا : ففي فرنسا كان من نتيجة المحافظة على الكاثوليكية ان النشاطات النسائية كانت تمارس في المجال الزمني اكثر بكثير مما كانت تمارس في المجال الروحي . وبدلا من أن تقف النسوية الفرنسية موقف الشك والارتياب من العلم والنظرية والعالم الفكري للرأسمالية الناشئة ، سعت جاهدة من البداية لكي تضع «العقل» في خدمة تحرر المرأة . وكان لـ «العقلانية» وجوه عدة : فنظرا الى انطلاقها من الفكرة القائلة انه ليس من الحكمة القبول بالوقائع بدون ادلة ، وانه في المستطاع اعادة بناء مظهر الواقع ، رغم انف التقاليد الوطيدة ، اذا ما التزم العقل بمنهج منظم وعقلاني ، فقد توفرت حجج جديدة مطلق الجدة لمهاجمة فكرة دونية النساء . وكان من المشروع تماما ان يتساءل المرء لماذا لا تنطبق على النساء ايضا النظرية التي تنص على ان الانسان قادر ، اذا ما أعده محيط وتربية مناسبان ، على السيطرة على الكون وامتلاكه . وقد اقامت تلميذة لديكارت ، وكانت تدعى الآنسة دي غورناي، البرهان في «مساواة الرجال والنساء» على أن دونية الاناث ترجع الى تأهيلهن غير الكافي . وبالرغم من ان هذه النسوية «العقلانية» ، المرتبطة بتقاليد عصر النهضة، توجهت فقط الى نساء الشرائح صاحبة الامتيازات ولم تتطلع الى فرض نفسها الا على البورجوازية التي كانت يومئذ في أوج تفتحها ، فقد دللت على الصعيد السياسي على نجع وفاعلية لم تدلل على مثلهما الرؤى التحررية للنزعة الالفية . ولكن لنلحظ مع ذلك ان المطالبة النسوية بأن تفتح أمام المرأة المنافذ الى الاوساط الفكرية لطبقات المجتمع العليا اصطدمت بمقاومة حادة . الا انها أتاحت على المدى القصير ، على كل حال ، فرصا للنجاح اكبر من تلك التي أتاحتها رؤيا تحويل شامل للعلاقات الانسانية وللمحيط الاجتماعي . فما كانت تضعه نصب عينيها لم يكن مشروع تحرير المرأة .

دخل الادب النسوي المستلهم تلك الافكار الى انكلترا اثناء «الكومنولث» (١) وساهم في اضفاء الصفة الدنيوية والزمنية على مفهوم **التحرر** . وفي أواخر

---

١ ـ الكومنولث هو الاسم الذي يطلق على الحكومة الجمهورية التي خلفت الحكم الملكي على اثر اعدام تشارلز الاول بين ١٦٤٩ و١٦٥٣ في انكلترا . «م»

القرن السابع عشر كان يُحتج بـ «سلطة العقل» و«الحس السليم» عند التوكيد بأن «المراة عديلة الرجل» (١) . ولتبرير حقوق النساء ، ما عاد احـــد يقول انهن «خادمات الرب» و«بنات يوئيل» ، بل صارت الحجة صفتهن ككائنات «مجبوات بالعقل» . وكانت طبيعة هذا «العقل» تحدد بالقول انها «تكميلية» . ومن هنا امكن لديفـو Defoe ان يستنتج ان المراة يجب ان تكون الرفيقة المناسبة للرجل.

في عصر كانت فيه قيمة رجل من الرجال تقاس بالمبلغ الذي يدره عليه ذكاؤه في الحياة المهنية ، كان تحديد قيمة المراة امرا اشق واصعب . فنظرا الى اقصائها عن سوق العمل ، كانت مكرهة على فرض نفسها في سوق الجنس : كان يسعها اما ان تجرب حظها في بورصة الزواج ، واما ان تعرض بضاعتها على الرصيف . وكانت النساء ، شانهن شأن سلع اخرى ، عرضة لتقلبات السوق التـــي يهيمن عليها قانون العرض والطلب . ويقدر احد ابطال «الزوج الحنون» لستيل سعر مبيع المراة بقوله : «ما بك يا صاح ، انت تبالغ في ثمنها ! فالحرب قد خفضت سعر النساء . والبلد يغص بالنساء ، ويشق على والد البنات العثور لهن علـــى زوج ... البنات بلابل ... كاسدة !» .

كان الراسماليون الجدد يوظفون مالهم في النساء كما يوظفونه في الاراضي. وكان عقد الزواج باهظ الكلفة ، وعلى الاخص في مطلع القرن الثامن عشر . وكانت الذرية من البنات قمينة بأن تقضي بالافلاس على مالك صغير كسب ماله فـــي «المدينة» . وكان بيع البنات وما يقابل به من مقاومة منبعا لظهور تصوريـــن متعارضين عن الاسرة . تصور صدر عن الاوساط الميسورة حيث كانت زيجات المنفعة دارجة ، والآخر عن البورجوازية الصغيرة الطهرانية المغتنية والراضية عن نفسها . وكانت الآراء بصدد القيمة الخاصة بالفـــرد موزعة هي الاخـــرى بين معسكرين : فبعضهم كان يقر له بقيمة وكرامة فطريتين ، وبعضهم الآخر كـــان يقيمه برساميله ، اي بما يملكه من اراض واموال . لكن العامل الحاسم في عجز المراة النوعي كان يكمن في كون المراة الميسورة قد اقصيت عن دارة الانتاج . ففيما كان البورجوازي يجد تبريره الذاتي في عمله ، ويعارض بنشاطه ونفعه مفهـــوم البطالة الارستقراطية ، كانت حياة المراة تغوص اكثر فاكثر في اللانفع واللاجدوى. ولم تساهم نساء البورجوازية في توطيد اسس الراسمالية ، بل كنّ يتعلقن فقط بحبل مشيديها ويعشن على هامش نشاط الرجال . وكانت بوائنهن تساعدهم في زيادة ثرواتهم . كما كانت اجسادهن لهم بمثابة حلية ولعبة ومرآة . كانت النساء بهجتهم ومتعتهم في اوقات فراغهم ...

لقد شيدت ميتولوجيا متكلفة ومتقنة حول لانفع النساء الفطري . كان يحلو للرجال ان يتكلموا عن طيشهن وقلة المنطق عندهن وعجزهن عن تدبر امورهـــن

---

١ ـ روجيه لسترانج : «المراة بمثل صلاح الرجل او مساواة الجنسين» ، ١٦٧٧ .

بانفسهن . وكانت نزعة أبوية سمحة تحجب عن الانظار ضعفهن الفعلي . كان سادتهن يتظاهرون بحمايتهن لصالحهن بالذات . وكن على درجة من الهشاشة وسرعة العطب لا تسمح لهن بمواجهة عالم الرأسمالية الفظ وبالدخول في تنافس معه . في نظر اللورد شسترفيلد ، ما كانت النساء «الا أطفال بقامة أكبر» . وفي عالم انتفى فيه كل اثر للكرم ، كان الرجال يدللون على كرم تجاه «اطفالهم المدللين» الذين يحتفظون بهم في البيوت . وكانت تبعية النساء تفتح آفاقا للفضيلة ولرغد العيش : وكن في سبيلهن الى التحول الى مواضيع لانسانية محبطة ، الامر الذي كان يحول بينهن وبين أن يحيين حياة مستقلة مسؤولة عن نفسها على نحو ما كان الرجال يطالبون به لانفسهم .

بيد أن هذا الوضع كان ينطوي على جوانب اخرى : ففي الكتابات الخلاعية التي كانت تعبر في القرن الثامن عشر عن جنسية او ، اذا شئنا ، عن طبيعة تضرب عرض الحائط بكل المواضعات الاجتماعية وتزدري قدسية الدين والاسرة والنظام السياسي ، كان الرجال يتخذون من المرأة «موضوعا» بمعنى مغاير جدا. فالادب الخلاعي مرتهن بعلاقات انسانية تضن على الفرد وتمنع عنه ، بحكم قوة الاشياء ، تلبية رغائبه . وفي القرن الثامن عشر ، كان الادب الخلاعي يقدم لرجل الشرائح الاجتماعية العليا ملجأ وملاذا ازاء تكاثر الاكراهات وتفاقم الالزامات ، وامكانية لان يكون ذاته في موضوع عديم الحساسية بالمرة . وكان ذلك الادب قرين شكل خاص من النزعة الفردية الفوضوية ـ السادية التي كانت تقيم علاقات غريبة مع النزعة الفردية المنظمة ذات الاستلهام الرأسمالي . وكانت روابط الادب الخلاعي بالطبيعة ، بالفوضى ، بالنشاط ، وبالنزعة الهمجية الى هدم النفائس والآثار الفنية ، تجعله يشكل خطرا داهما على الحساسية البورجوازية . كان يرفض بصراحة مفهوم «الملك الخاص» . وكان يوافق الارستقراطيين العادمي الهمة والديماغوجيين من حثالة الناس ممن كانوا يفكرون بتسلية الغوغاء وبتلهية الشرائح الاجتماعية الدنيا اكثر مما كانوا يفكرون بمخاطبة مصالح الطبقات المتوسطة . في فرنسا ، في الاوساط المثقفة البورجوازية ، لوحظ ارتباط بين ادانة «مدرسة البنات» ، وهو اثر خلاعي من القرن السابع عشر ، وبين التأييد الذي محضته تلك الاوساط لحرب الاستقلال الاميركية . ولسوف تكون حياة رجل مثل المركيز دي ساد مثالا ساطعا على نظير ذلك التعارض .. والواقع ان الادب الخلاعي، في الوقت الذي كان يسلم فيه بحقيقة عتف الانفعالات الانسانية والتدمير والرغبة في معاناة تجربة الالم ، لم يكن يعبر عن ذلك كله الا على صعيد خيالي . كان يتحدى رياء البورجوازي الذي كان يرى في الانانية وفي ارادة السيطرة على الآخرين المعيار الاساسي للرجولة ولا يحجم عن قمعهما اذا ما تعرضت الصناعة واستقرار الاسرة للخطر . لكن الادب الخلاعي لم يطعن قط في الانانية وروح السيطرة باعتبارهما اساسا للعلاقات الجنسية . وأنى له ان يفعل ذلك ؟ فقد كان بذاته سيجد ذاته في قفص الاتهام لو شاركت النساء فيه مشاركة واعية . لو كان

امكن للنساء أن يتمتعن ويتلذذن بكل صراحة واستقلال ، لكانت طقوس السيطرة تلاشت كلها . ولا غرو ان يكون الادب الخلاعي في القرن الثامن عشر قد اعطى الافضلية للعذارى . فقد كنّ في وضع دون . ولا غرو ايضا ان يكون مصطلح «الشبقية» (١) قد ظهر لاول مرة في النصوص المكتوبة في عام ١٧٧٥ . فالمقصود به ، بالفعل ، استرقاق البظر المنفلت من عقاله ، تطويعه ، ترويضه ، افهامه عدم لياقة ادعاءاته .

لكن النساء في غالبيتهن العظمى ما كنّ جديرات لا بأن تقدم لهن الحماية ولا بأن يمثلن في المؤلفات الخلاعية . ولم يكن ثمة من حرج في الافصاح الى حد يقارب الوقاحة عن الازدراء الذي ينظر به اليهن . فقد كان من المسلم به بكل رضى خاطر ان الاشغال الاشد عنتا والاقل اجرا موقوفة على نساء الفقراء . هكذا كانت «قيمة» المراة تضبط ضبطا دقيقا وبارعا بحسب «قيمة» الرجل .

لم يكن احد حتى ذلك الحين قد نصب نفسه محاميا عن النساء في جملتهن . لكن بعض الرجال والنساء من ذوي الرزانة والروية تساءلوا عما اذا كانت حياة **النساء الميزات** عارية فعلا من كل قيمة . في فرنسا ، داعب فينيلون الحلم بإعداد البنات من ذوات الاصل لمهنة تتيح لهن كسب رزقهن . وفي ١٦٩٤ طرحت ماري آستل في مؤلفها المعنون باسم «اقتراح جدي على النساء» السؤال التالي: «هل يمكن لك أن تقبلي بأن تكوني في هذا العالم زهرة خزامى في حديقة ، شيئا ثمينا ، بدون اي منفعة عملية ؟» . وقد جمعت حولها مجموعة من النساء من ذوات الامتيازات الرفيعة بغية تحقيق مشروعها في انشاء اكاديمية نسائية . وكانت الفكرة التي تتطلع الى ان تمثل المراة شيئا ما ، والى أن يكون لها شاغل مهني ما ، تدخل تماما في اطار الراسمالية الوليدة . لكن لم يكن لنساء الطبقات العليا منفذ الى ذلك الميدان الجديد من ميادين النشاط . هكذا احتلت التربية في كثير من الاحايين نقطة المركز في جهود التحرير . فقد كانت الوسيلة الممتازة لتكوين المراة الجديدة . «لو كان لدينا ما لدى الرجال من تبحر ، لكانوا راوا ان عقولنا لا تقل نفعا عن اجسادنا» (٢) . هكذا تمت صياغة أطروحة النسوية الاثيرة . وبالفعل ، كانت ضآلة العلم تفسر دونية النساء من الشريحة صاحبة الامتيازات . ولتدارك ذلك كان من الضروري ان توضع تحت متناول النساء محاسن التربية والتأهيل المهني : فعن هذا الطريق يمكنهن ان يجدن لانفسهن منفذا الى العالم الخارجي والمغلق حيث يسود الرجل بلا منازع .

---

١ – ترجمة تقريبية للنامفومانيا **Nymphomania** ، جنون الجنس وانفلات الشهوات عند المراة تخصيصا ، دون الرجل . «م»

٢ – حنة وولي ، نقلا عن م.س. ستود « ماري ولستونكرافت والحركة النسوية في الادب الانكليزي» ، باريس ١٩٣٢ ، ص ٢٢ .

حينما اصطدمت رغبة النسويات الاوائل في الدخول في منافسة مع الرجل البورجوازي لا بمقاومة الرجال فحسب ، بل ايضا بمقاومة النساء ، رحن يفتشن عن دوافع أنبل من مجرد الوصول الى الخيرات التي ينعم بها الرجال ، وأعلنّ بملء الخاطر أنهن يتطلعن الى الدفاع عن قضية المضطهَدين جميعا . وبالرغم من ان هذا الطرح كان طرحا أخلاقيا صرفا ، فان نصيرات المرأة في ذلك العهد ما كن مجهزات للشروع بنشاط عملي . لم يكن من المعقول ان ترى النور في تلك المرحلة «حركة» نسوية . لكن ملاحظة ماري آستل القائلة ان «الدفاع عن الضعفاء ... مشروع كريم ...» تبدو وكأنها تبشر منذ ذلك الحين بالاتجاه اللاحق للفكر النسوي الذي ربط تحرر المرأة بتحرر الانسانية قاطبة . وكان هذا الاتجاه يتناقض تناقضا باترا مع السعي الى دمج عدد محدود من ذوات الامتيازات من النساء في المجتمع بشكله القائـم .

حين انتبهت النساء لحقيقة عزلتهن ، تساءلن من المسؤول عن ذلك . هكذا برزت في مطلع القرن الثامن عشر سمة أخرى من سمات النسوية : احتقار الرجل! فصوفيا ، التي كتبت في عام ١٧٣٩ ، تذرعت بتفاخر بسلطة «العقـــل» : «لنا ذكاؤنا ، وبفضله ندرك ان الرجال بهائم» . كان نظر النساء شاخصا الى الرجل البورجوازي ، وكنّ يترصدن بانتباه كبير سلوكه ويحصين عليه أنفاسه ، ويطبقن ملاحظاتهن على الانسان بوجه عام . لماذا يتوجب على النساء ان يجعلن من الرجل معيار صبواتهن ؟ لماذا لا يحددن معاييرهن الخاصة بهن ؟ هل كان الرجال أغبياء أو منافقين ؟ وهل كانوا يكذبون عندما كانوا يقطعون الوعود والعهود للنساء ؟ كيـف السبيل الى العثور على عواطف حقيقية ، على محبة حقيقية ، على نبل حقيقي لدى بخلاء أخساء لا هم لهم الا الحفاظ على مظاهر الاخلاق ؟ كان العديد مـــن النساء ممن تلقين تعليما و«تربية» في الاكاديميات النسائية وممن ينعمن بأوقات فراغ يطرحن على انفسهن بين الحين والحين اسئلة بصدد بعض الوقائع التي ما كان يرقى اليها شك يومئذ . لماذا تتناقض بنود عقد الزواج مع مبدأ المساواة بين الجنسين ؟ لماذا تعلق أهمية كبيرة على الوفاء لدى المرأة ، ولا يحسب له حساب لدى الرجل ؟ من أعطى عقد الزواج شكله الراهن ؟ ما العلاقة بين عفة المرأة وتعزيز شأن الملكية ؟ أليس للمرأة كفرد الحق في اختيار شريكها من دون ان تهتم بالاسرة التي لا تفكر الا بتنمية ثروتها ونفوذها عن طريق زواج المنفعة ؟ هكذا دبت الحياة من جديد في الفكرة الطهرانية القديمة عن حق كل شخص في تقرير مصيره بنفسه بملء الحرية . وتعالت صيحة البطلات العفيفات تطالب بعفة الرجل . كانت تلك هي طريقتهن في المطالبة بتساوي حقوق الرجل والمرأة . فلا يجوز ان يكون هناك للرجل والمرأة وزنان ومكيالان . وكانت جميع هذه المشكلات تعالج في روايـــات العصر التي كانت النساء المشغوفات بالادب ولكن الواهنات الثقافة يلتهمنها التهاما.

تسجل رواية صامويل ريتشاردسون ، «كلاريس هارلو» ، مرحلة جديدة في ذلك العزوف عن التعلق بالاخلاق التقليدية. فكلاريس تعارض زواجا دبرته العائلة،

وبالرغم من اختطافها تحافظ على «طهرها» . وحين تطبق تجربتها الشخصية على العالم الذي تحيا فيه تلاحظ أن «نصف البشرية يعذب نصفها الآخر ، وأنه يكابد من التعذيب اثناء ممارسته التعذيب بالذات» . ولا تقتصر المسألة على معرفة ما اذا كانت المرأة مذلة ، مهانة ، مضطهَدة ؛ فالرجل المرغم على سلوك مسلك البهيمة كان في سبيله الى فقدان انسانيته . هكذا ، ما كانت النسوية تقـــدم املا للنساء وحدهن ، بل كانت تنطوي ايضا على وعد بعالم افضل للكائنات الانسانية جميعا. وتعي كلاريس سخرية موقفها المأساوية : فكل ما كان في وسع النساء ان يفعلنه هو الانتحاب والتأسي من وضع لا علاج له في الظاهر ، وترجي تغيير نحو الافضل. ولا تلقى كلاريس في العالم الذي تتقدم فيه اي معونة او مساعدة ، ولا تملك اي وسيلة لرفض «أخلاق» خارجية ومفروضة من الخارج . لا تملك سوى صوتهـا الداخلي . وكل ما يسعها ان تفعله هو أن تتخطى موقفها وتتجاوزه على الصعيد الروحي . انها مكرهة على مصارعة اسرتها ولافلاس ، العاجزين كليهما عن اعادة الحرية اليها من دون ان يقضيا على شيء ما يبدو لهما جوهريا . كلاريس فـــي مأزق . فهي لا تعاين اي حل على الصعيد الاجتماعي . ولكن امرأة ما تعرض على ريتشاردسون في رسالة عقدة المشكلة . وبالفعل تؤكد ليدي برادشاي أن قوانين المجتمع يسنها الرجال «لتبرير طغيانهم» ، وتطالب بالمساواة في العلاقـــات بين الشخص والشخص .

كان الاغراء كبيرا في التصالح والتراضي بدلا من المقاومة . وكانت بعض النساء يعرفن كيف يتدبرن لانفسهن خلوات هادئة . ولا مراء في أن أولئك اللواتي أطلق عليهن اسم «الجوارب الزرق» (١) قد أثرين الفكر النسائي في بداياته ؛ لكن غيرهن افصحن عن عدائهن لصبوات شقيقاتهن . فقد كانت هؤلاء ينعمن باحترام الرجال وحمايتهم في الصالونات الاجتماعية. وكان وضعهن اشبه بوضع الخلاسي في مجتمع رقي: فهمه الوحيد الارتقاء الى مصاف «الابيض الدون» حتى يستفيد هو الآخر من حماية البيض ... وعلى النحو ذاته ، كان الرجال يسمحون لنساء تلك المدرسة بالدلوف الى حصنهم ، لانهم كانوا يعلمون انهن لن يسلمن ابدا مفتاحه للاخريات. فمدام باربو ، التي كانت من جماعة «الجوارب الزرق» ، كانت توصي النساء بأن يعتبرن «أنجع أسلحتهن واكثرها نعومة مقدرتهن على انتزاع الاعجاب» .

لكن الغالبية الساحقة من النساء ما كان في مقدورهن أن يحلمن بـ «التفكير» او بـ «انتزاع الاعجاب» ولو بأدنى حظ من النجاح . تاريخهن لم يكتب قط . نُظر

---

١ ـ نسبة الى الجوارب الزرق التي كـان يرتديها ستيلنفليت ، المحدث اللامع فـي صالـون الليدي مونتاني في حوالي ١٧٥٧ ، ويطلـــق اللقب ترذيلا على النساء ذوات الطموح الفكـــري والادبي . «م»

اليهن على أنهن عناصر سكونية اطلاقا ، ممثلات صامتات وثانويات على خشبة المسرح الاجتماعي ، كتلة سالبة تماما . لكنهن في الواقع ما كن بالمستسلمات الخانعات . الا ان مقاومتهن كانت تتجلى في الجريمة او في «الفجور الجنسي» ، وهما يكادان أن يكونا مترادفين في نظر المتفوقين عليهن . كان تمردهن على عالم هؤلاء فرديا ، غرضه الوحيد الخروج منه ، في حدود الامكان الضيقة . وكانت الراكبات رؤوسهن منهن يحاولن الافلات من قبضة **قانون الفقير** ، فكنّ ينصبن بالامراض الزهرية ، ويقع عبء اطفالهن على القرية فور انجابهن اياهم خارج المدينة ، خلف سياج او فوق عربة نقل . وقد عبر تمردهن الجماعي عن نفسه في القرن الثامن عشر بأعمال شغب وفتنة كان الدافع اليها المجاعة . تلك كانت طريقة الفقراء في المطالبة بإحياء المجتمع ما قبل الرأسمالي الذي كان يقدم الحاجات على الربح ، وفي الاعراب عن تفضيلهم للمجتمع القديم الذي كانوا يرون انه أحسن من شروط الحياة الجديدة . ولما كانت النساء اول المعنيات بمشكلات الاستهلاك، فمن المفهوم تماما ان يكون لهن الدور الغالب في تلك الفتن . كانت أطواق الضرورة القاسية تغل أعناقهن ، فما كان يتاح لهن الوقت للتأمل في تفوق الرجال . ولم يكن هذا التفوق يتبدى للعيان في علاقاتهن بأزواجهن الا على صعيد القوة الجسمانية. كانت معارضتهن رفضا للاشكال الجديدة للصناعة والتجارة ، وما كانت تمت بصلة الى الوعي النسوي الذي بقي وقفا على حلقة صغيرة من ذوات الامتيازات من النساء . وما كان الامر ليكون الا ضربا من العبث لو طالبت امراة فقيرة بتربية جيدة وبالحق في أن تكون نافعة . والارجح من ذلك بكثير انها كانت ترتئي انه من الانسب لها أن تحض زوجها على ممارسة الفضائل التي وطنت الرأسمالية العزم على تلقينها لليد العاملة ، أعني التقشف ، وحس التوفير والاقتصاد ، وعادة العمل النظامي ، والاقلاع عن الاحتفال بيوم «الاثنين المقدس» . وفي أواخر القرن الثامن عشر وجهت زوجة سكاكيني من شفيلد التقريعة التالية الى بعلها :

ايها اللعين جاك ، سأخضك خضا
حياتك حياة سكير كريهة
قاعد هنا بدل أن تعمل
بين ركبتيك إبريق خمر
عليك اللعنة ، ستبقى تجرجر أذيال الكسل
فيما أنا اكد واشقى من اجلك .

وتتوضح اهمية المراة كمستهلكة وتتحدد :

الا ترى المشد الذي حصلت عليه
الا ترى زوج الاحذية هذا
هذا الثوب وهذه التنورة المهترئين

هذه الجوارب التي ليس فيها زردة واحدة سليمة .
بيد ان العقوبة لا تتعدى الحدود التقليدية :
انت تعلم انني اكره الخصام والنقار
لكن ليس عندي لا صابون ولا شاي
عليك اللعنة ، يا جاك ! اذا لم تترك زقك
فلن تضاجعني بعد اليوم ابدا !» .

لم يكن تأثير بدايات الراسمالية في جميع النساء واحدا . فقد تنوعت عواقبها وتفاوت وقعها بحسب اختلاف الاوساط النسائية . وبوجه العموم ، عملت على تشتيت المصالح والآمال اكثر مما اثارت وعيا نسويا وحدويا . وكانت النسوية ، في ذلك الطور الاول ، تتطابق مع صبوات ومطامح وافكار فئة قليلة من النساء ، وكانت عاجزة عن تشكيل **حركة** . وكان من الصعوبة بمكان الانتباه الى الترابط بين النسوية وفكرة تحويل شامل للمجتمع . وحيثما تبدى هذا الترابـــط للعيان ، أوحى برؤية صوفية اكثر مما أوحى ببرنامج ثوري . وقد لبث أسير تناقضاتـــه الذاتية . كانت الطريقة الوحيدة لتثليم هيمنة الذكور على هذا العالم أن تجعل النساء من أنفسهن «خادمات الرب» ونبيات الحياة المقبلة ، ولكن لم يكن هنـــاك بديل ، لتحسين مصائرهن ، عن الدلوف الى عالم الرجال المغلق . ولم يكن امام النساء من خيار ، ليكفلن لانفسهن الاحترام والكرامة ، سوى أن يقلعن عن كونهن نساء وأن يتخلين عن انوثتهن . وتوكيدا منهن على ما يفصلهن عن عامة النساء ، كان عليهن أن يتزملن بإهاب العذراوات او «الجوارب الزرق» . فلا عجب والحالة هذه ان تكون نساء اخريات قد ابدين قدرا من الارتياب والتشكك تجاههن . كانت نساء الطبقات العليا يتشكين من كونهن «لا مجديات» ، وما كانت نساء الشعب «يستفدن» البتة من مثل تلك «اللاجدوى» .

لكن بالرغم من هذا النزاع وبالرغم من تباين شرط النساء ، تم في القرنين السابع عشر والثامن عشر تحديد أسس الهجوم المقبل . وهـــذه الاسس وثيقة الارتباط بالقيم المواكبة لبدايات الراسمالية . وقد كان التشكيك في السلطـــة القائمة ، وفكرة المسؤولية الفردية والوعي بصفتهما محركين للعمل السياسي ، والاشادة بالنشاط ، وفكرة السيطرة على العالم الخارجي وتحويله ، وما يترتب على ذلك من يقين بأن لجميع التغييرات تأثيرا ارتجاعيا على طبائع الكائنات الانسانية، اقول : كانت جميع هذه الافكار من صنع النساء مثلما كانت من صنع الرجال سواء بسواء . أما ما كان يميـــز بين الطرفين فهو وضعهما المادي حيـــال الانتاج . والشراسة التي حوربت بها النساء اللائي طبقن تلك المعطيات على حالتهن الخاصة قدمت الدليل منذ ذلك الحين على ان جراتهن تجاوزت جراة ازواجهن الراديكاليين . فالنصيرة البورجوازية لقضية المراة وجهت ، باجترائها على الدلوف الى دائـــرة

الرجل ، نوعا من التهديد الى اساس تقسيم العمل بالذات ، ذلك التقسيم الذي خص المراة بوظيفة ادامة الجنس البشري ورعاية النسل وخص الرجل بوظيفة الانتاج ، ومن ثم وضعت العراقيل في وجه رغبة الرجل العارمة في الاثراء والاغتناء . وكان الفصل بين العمل والاسرة قد حدث قبل ميلاد الراسمالية ، لكن التوسع الصناعي أبرزه للعيان بجلاء وسطوع .

BY: @SA9BB55

-٢-

مقترحات طوباوية

«كل خجل خجل كاذب . ولن تكون حياتنا الا افضل لو امكننا التملص من الخجل . النساء تحمر وجوههن لانهن يفهمن ... رقة الشعور غل للمخلوقات الصغيرة الغالية ... انني اكره العبودية: عاشت الحرية .. انني نصيرة لحقوق النساء ... في وسعكم ان تقولوا ما تشاؤون ، الا ان النظام الاجتماعي الراهن يظل فاسدا من اساسه ... اذا كنتم تريدون ان تعرفوا ما انوي ان افعله كي اجعل العالم احسن وافضل ، فسأقول لكم : انني سأدعو كلا الجنسين الى تسمية الاشياء باسمائها .. فالشرشف ، سواء اكان رطبا ام جافا ، هو اقل اشياء العالم احتشاما» .

هاربيت فريك

امراة ثورية رسمت صورة كاريكاتورية لها في «بلند» لماريا ادجورث ، ١٨٠٨ .

«البغاء هو الابن الشرعي للزواج وللاخطاء التي تواكبه ... يكفي المراة ان تنصاع لدافع الطبيعة الذي لا يضل ولا يخطىء حتى يعلن المجتمع عليها الحرب ، حربا ضروسا لا تهدأ . ان عليها ان تسلك سلوك الجارية المروضة ، ولا يجوز لها ابدا ان تاخـــذ

بثأرها . «هم» لهم الحق في اضطهادها ، ومن واجبها «هـي» الامتثال والخنوع . المجتمع يأخذ بثأره منها على المجرمين الذين انجبهم» .

شيللي ، «مدونات عن الملكة ماب» ، ١٨١٣ .

إبان الثورة الفرنسية تلاقت الصبوات النسوية لذوات الامتيازات من النساء وتقاليد العمل الجماعي التي عُرفت بها نساء الشرائح الشعبية : لكن الفئتين كانتا تنظران واحدتهما الى الاخرى بشعور مـن ضيق وحرج ، وتستنكفان عن توحيد جهودهما . ومع ذلك ، كانت الفئتان كلتاهما قد تشربتا روح المثل الاعلى للحرية والمساواة والاخاء والذكريات الثورية . كانت العودة الى النظام القديم قد باتت مستحيلة . وتشير اعمال الشغب التي قامت بها النساء احتجاجا على غلاء المعيشة في نورمانديا في عام ١٧٨٩ ، والنشاط الذي بذلته نساء الطبقة المتوسطة لصالح الهيئات التمثيلية في غرونوبل ، وإدراج مطالبة النساء بمساعفة طبية افضـل وبتربية احسن وبحماية مهنية أمثل في مواجهة مزاحمة الرجال في سجـل المطالبات ، وزحف النساء على فرساي ، والاهجيات والعرائـض بصدد الطلاق والبغاء ، يشير هذا كله الى ان أفعال النساء وردود أفعالهن باتت أسرع منها مما كانت عليه في اي وقت سبق .

لكن مفاهيم الحرية والمساواة والإخاء كانت تنطوي ، عند تطبيقها على النساء، على التباسات عديدة . صحيح ان المفكرين العقلانيين كانوا قد وضعوا علامـة استفهام حول الطابع «الثابت» لبعض سمات الطبيعة المؤنثة وطالبوا لنساء الشرائح العليا بمنفذ ، ولو في حدود ضيقة ، الى التربية والتأهيل المهني. لكن الايديولوجيا الثورية كانت تشتمل ايضا على تيارات اخرى . فمفهوم روسو عن «حالة طبيعية» تتيح للانسان أن يحيا في تناغم وانسجام مع العالم المادي كان يستدعي ضمنا عدة ضروب من التحرر والانعتاق . وكان في مقدور الثوريين أن يتخذوه حجة لمعارضة السلطات والعادات بمشاعرهم ، وللدفاع عن الزيجات المعقودة على اساس الحب الجنسي الفردي ، وللاشادة بالطاقات الانسانية الكامنة في مواجهة ضغـط المؤسسات الاجتماعية القائمة . لكن التطبيق المباشر لافكار روسو كان يتناقض تناقضا قاطعا مع الصبوات الفكرية والمطامح الابداعية للنساء . فالحجج التي تذرع بها روسو لتبرير المكانة التي تشغلها المراة في المجتمع الراسمالي هي في آن واحد اكثر «اقناعا» واكثر دقة ورهافة من مواعظ الطهرانيين الاخلاقية . فروسو يقول للنساء شارحا أن الرجل فطر «بالطبيعة» للحياة الخارجية ، بينما المراة مكانها في داخل الاسرة . دونيتها اذن لا تنحد بمضمار الفكر ، بالله ، بالسياسة ، بالانتاج فحسب ، وانما تمتد ايضا الى جميع علاقاتها بالعالم الخارجي. المراة هي بالتعريف «جزء من الطبيعة» . والمفروض في تربيتها أن تعدها لكي تكون السـنـد المعنوي للرجل وخادمته من دون أن تكون لها ارادة خاصة بها . وانما حينما تسلك هذا

المسلك دون غيره تستطيع أن تصل الى امتلائها الطبيعي .

كانت هذه الطريقة في تصور «الطبيعة» الانثوية تنعكس في بعض المظاهر الرجعية للحركة الرومانسية . فالتمرد الفني والثقافي على الرأسمالية كان موسوما ، في مضمار تحرير المراة ، بقدر من الالتباس . فقد طالبت الرومانسية من جهة اولى بعتق الانسان من إسار جميع المؤسسات الاضطهادية ، وبالتفتح الحر للأنا ، الامر الذي كان يعني بالنسبة الى المراة ايضا حياة جديدة . لكن الرجال ، من الجهة الاخرى ، كانوا ينظرون الى الوراء ، فيأسفون على «العصر الذهبي» ، على الزمن الذي كان يسود فيه انسجام بدائي ، ويتغنون بالكائن السامي والبدئي الذي في المراة . والى ذلك كان ينضاف على الدوام شعور بالخوف . فقد كان من الواجب «السيطرة» على الطبيعة . وقد انتجت رومانسية مدجنة جيلا كاملا من فتيات شاحبات ، هشات ، مجعدات الشعر ، حاجبات اياه تحت عمرة او غطاء للراس ، على نحو يعزز اسطورة المراة الضعيفة ، العزلاء ، اسطورة الملاك البيتي الانفعالي والهستيري ، المتمثل على احسن ما يكون الامتثال لتقسيم العمل. في المجتمع الراسمالي . وحتى حين تدرس بقدر ما تصلي وتعمل ، كانت تبقى موضوع الرجل ويبقى واجبا عليها أن تشعر بأنها موضع ترصد رغبته . كانت ترى نفسها بعيني الرجل . تحدد نفسها بدالة المنجزات والحاجات المذكرة . وبالمقابل ، كانت تنعم بالتدليل والتغنيج . فلما كانت تحيا تحت نظر الرجل ، فقد كانت ترى في عينيه انعكاس شخصها . ما كان لها وجود الا به . كان الناطق بلسانها ، يحميها مثلما يحمي أملاكه ، ويشفع لها عند ربه ، ويثقفها ويربيها لمتعته . كان يجبلها كما يتصورها . ففيها كان يبحث عن طبيعته الضائعة . عليها كان يسقط خوفه من نفسه ، فيشيد بالحساسية الغريزية والفطرية التي يعزوها اليها . كان يتملقها موحيا اليها من طرف خفي بأن تدعه يسيطر عليها ، مدخلا في اعتقادها انها انما تبرز بذلك قيمة أنوثتها وتثمّرها .

ان العبادة الرومانسية للمراة ظاهرة معقدة وعميقة عاشت على امتداد القرن التاسع عشر بأسره تحت أشكال متباينة ولا تزال حية حتى يومنا هذا . وقد تجلت مفاعيلها ونتائجها في مطلع القرن التاسع عشر بوجه خاص ، اذ افلحت في تفهيم النساء ، في زمن كان فيه كل انسان يطالب بحقوقه الطبيعية ، ان خضوعهن سمة ملازمة لـ «طبيعة»هن . والفئة السائدة يراودها شعور بالأمان حين تقنع الرازحين تحت اضطهادها باللذة التي يعود بها عليهم عجزهم ، واذا اعطتهم وهم السلطة . جون هنري سعيد لانه قوي العضلات مع ان المال والحيلة هما اللذان يؤمنان للرجل الابيض تفوقه . وبطلات جان جاك روسو يولين الحساسية والصراحة الطبيعية فائق عنايتهن ، بينما يرسي ازواجهن الاسس الاقتصادية لعالم اجتماعي لا تعدو فيه هذه الصفات ان تكون ثانوية ، في غير محلها ، وغير قابلة للممارسة . انهن يكتفين بأداء دور دمى الصالونات ، دور نباتات الدفيئة .

كانت النساء «مشروطات» على أتم صورة ممكنة ، حتى انهن كنّ يراقبن

بعضهن بعضا . وكان لذوات الامتيازات منهن مصالح في العالم . كانت النساء اللواتي بلغن قدرا معلوما من العمر يتولين تنشئة اللواتي يصغرهن سنا ويعلمنهن فن مداراة ازواجهن والتلاعب بهم . وقد وقعت النسويات الاوائل في حيرة ازاء المقاومة التي جوبهن بها . فقد كن يحسبن بكل سذاجة انهن فزن بالحرية والمساواة، فكنّ يثقن بأزواجهن ولا يرتبن في ان كلمة «إخاء» تخفي تهديدات . كنّ يدافعن عن قضيتهن بصبر وبلاغة . في عريضة مرفوعة الى مجلس الشعب في عام١٧٨٩ ، اعلنت النساء : «لقد هدمتم الآراء المسبقة القديمة جميعا ، لكنكم تركتم اقدمها واكثرها عموما ، تركتم الراي المسبق الذي يستبعد نصف سكان المملكة من المراكز والمناصب والمكارم ، وعلى الاخص من حق الجلوس بينكم» .

كيف امكن للثورة ان تضع حدا لاضطهاد اكثر الناس اتضاعا واشدهم معاناة من الطغيان ، بمن فيهم الرقيق الاسود ، وتترك مع ذلك ملايين النساء رازحات تحتنير ازواجهن؟ اعلنتالمواطنة كلير لاكومب، وقد اجتاحتها موجةالحب والحماسة والثقة، في عام١٧٩٣ فيجمع منالنساء الثوريات انالجور الذينفى النساء بينجدران البيت الضيقة وقضىعلى نصفالانسانية بالسلبية قد رفعوازيل! وكانت ستدلل على حكمة اكبر لو اعترفت بالطابع العنيد والدائم لذلك الجور. لم يكن تفاؤلها يقوم على اساس متين . فبصرف النظر عن بعض الرجال القلائل من امثال كوندورسيه ، كانت غالبية الثوريين ، بمن فيهم روبسبيير ومارا وهيبر ، ترى ان المشاركة الفعالة للمراة في الحياة السياسية «معاكسة لطبيعتها» . كان من رايهم ان النساء مطالبات بأن يخدمن الثورة بطريقة اشد تقيدا بالتقاليد ، وذلك بصفتهن زوجات وامهات . وقد أيد نابليون بصراحة وجهات النظر تلك ، وان شمل عشيقاته بالامتياز الوطني في تربية الاطفال !

في ظل الامبراطورية الاولى كانت نصيرات المراة اقلية ضئيلة لا تذكر ! كانت النساء يجلن ، نصف عاريات ، حول البلاط الامبراطوري ، او يضعن انفسهن طوع ريشة الرسامين متمددات بارتخاء على اريكة . كانت صدورهن العارية تخفق بنفاد الصبر . وكن يبللن اثوابهن الشفافة حتى تلف اجسادهن لفا وتبرز تكاويرهن الطبيعية . وكانت تيارات الهواء تبعث فيهن رعدة وقشعريرة ، وكنّ يقعن احيانا طريحات الفراش . بل كان بعضهن يقضي نحبه في نشدانه ومطاردته تلك الفكرة المشوهة عن الطبيعة .

بيد ان هناك شخصا ، كان نابليون يبغضه اشد البغض لانه يمثل في نظره تجسيدا لكل ما يكرهه في المراة الثورية ، فرض نفسه بحيوية منقطعة النظير : مدام دي ستايل التي اندفعت ، بعد ان تفادت مهاوي جميع انظمة الحكم التي قامت في اعقاب الثورة ، في حرب غوارية ادبية شخصية ضد بونابرت . كانت تقول لمن يريد استرقاق الاستماع اليها انها لا تعمل في السياسة ، لكن الشبان في صالوناتها كانوا يسخرون من نابليون . وفي بعض رواياتها من اشباه «دلفين» او «كورين» كانت النساء المتأكدات من تفوقهن يدخلن في صراع وعراك مع مجتمع

لا يبيح لهن حرية التعبير عن انفسهن . كانت مدام دي ستايل تتذرع بحساسية المراة «الطبيعية» لتطالب لها بحقوقها . كانت تستخدم روسو مثلما استخدمت كل شيء آخر من اجل مقتضيات قضيتها . لكن القانون المدني الذي سنّه نابليون جاء ليضع حدا للجلبة : واغلب الظن ان الامبراطور كان مقتنعا بأنه أعاد النساء الى مكانهن والزمهن حدودهن .

بيد ان امراة غير عادية كتبت ، مقتفية اثر تلك الثورة ، مؤلفا يسترعي الانتباه حقا : فـ «اعادة الاعتبار» لماري ولستونكرافت هو واحد من تلك الكتب التي تمثل تركيبا بالغ الحيوية للماضي ، وملخصا في غاية البراعة لافكار عصر مؤلفتـــه وتجاربها ، بحيث لم يكن هناك مفر من أن يحدث تغييرا جذريا في فكر الغد . قد يبدو احيانا مفككا ، بلا خيط واحد يربطه ، وهذا لانه كتب في ستة اسابيع . وهو يعتمد الاطالة في العرض . ويحس القارىء احيانا بالجهد الذي بذلته مؤلفته لتزيح العقبات وتتابع طريقها . والحال ان قيمة الكتاب لا تكمن في جدة الافكار التي يعرضها ، وانما في طريقة الجمع والتأليف بينها . كان المنظور البدئـــي والأصيل تصوير المآل الذي تمخضت عنه جملة من الظروف والاحداث الشخصية والسياسية . ولنذكر ، على الصعيد الشخصي ، طفولـــة ماري ولستونكرافت الاليمة ، وتشبهها بأمها التي اذاقها اب جلف وسكير الأمرّين . وفيما بعد هجرها عشيقها ووالد طفلها ، إملي ، وارغمها على أن تتدبر بنفسها امر معاشها . وكانت كبرياؤها اقوى من رغبتها الجارفة في العودة اليه : «تستطيع أن ترمي بي بين براثن الشقاء ، لكن لن تتوصل ابدا الى ان تجعلني ارى نفسي زريـــة في عين نفسي !» . ولم يتأثر اشعاعها المدهش بسقوطها الاجتماعي الى الحضيـــض وبمحاولتها الانتحار . أسلوبها يجمع بين الدفء الانساني والارتعاش الجنســـي وبين عزة نفس نسوية جديدة النبرة وثقة صلفة بالنفس في مواجهة المجتمع ونزعة واقعية هي من سمات الصفوة في وسط عالم من الاكاذيب : «لا استطيع حيـاة بدون حب ... والحب يقود الى الجنون» . «أتوق الى القليل من الســـلام والاستقلال ... لكني لا أحب التذلل» . كانت تنتمي الى الجيل الذي عمـــرت احداث ١٧٨٩ افئدته بالفرح . لكنها لم تعش طويلا لتذوق مرارة الخيبة وانقشاع الاوهام . الا ان ذلك لم يمنعها من ان تهجس ببعض المخاوف ، وهي المخاوف التي ستراود ثوريات اخريات في عام ١٧٩٣ : «انني قادرة على أن ارى فيما وراء الادواء الآنية ، ولا انتظر ان يصفو الماء العكر لأجلو الامور . ولكن ليس هناك في الساعة الراهنة مشهد يحز في النفس مثل مشهد رجل فاسد بلا دفء انساني» .

كانت تنفر ، نظير وردوورث ، من «المتحزبين» الحقودين ، لكنها كانت قـد تمثلت احسن التمثل اللغة الجديدة والوعي الجديد . لم يكن الفكر الثوري فـي نظرها بسلطة جديدة ، يقيمها آخرون ، نيابة عن آخرين ، باسم اخرين ، وتتربع على منصة على نحو لا يكون معه مناص من تملقها ومداهنتها . وانما كان الوسيلة المتاحة للمضطهَدين للانعتاق من النظام الذي يغل رقابهم . وبصفتها امراة ، كانت

ماري ولستونكرافت تجهد لتطبيق افكار الرجال الثوريين على وضع النساء . في كتابها ، «اعادة الاعتبار» ، تتساءل كيف يمكن أن يتوقع الرجال من النساء موقفا متعاونا ما داموا لا يشرحون لهن لماذا يتوجب عليهن أن يدللن على مثل ذلك القدر من العفة والفضيلة ؛ وتؤكد ان الرجال الذين يكافحون في سبيل الحرية والحق في تقرير سعادتهم بأنفسهم يجافون المنطق باستعبادهم النساء ، حتى ولو كانوا على ثقة بأنهم انما يدافعون عن قضيتهن . فالرازحون تحت نير الاضطهاد هم وحدهم المؤهلون ، في نظر ماري ولستونكرافت ، لتقرير مصالحهم ، ومن يقل عنهم انهم عن ذلك عاجزون فإنما يقول ما يقوله تبريرا لامتيازاته ودفاعا عنها . وكانت هذه الافكار موضع قبول بوجه عام لدى الحركة الراديكالية . وكانت هذه الحركة تساند ايضا التطلع الى تطور الفرد وتفتحه. وما كانت ماري ولستونكرافت، بمطالبتها للنساء بـ «خواص الانسانية» وبثورتها على مجتمع لا يسمح لهن بأكثر من «الانجاب والتعفن» ، تفعل شيئا سوى انها تطبق على النساء الافكار الراديكالية .

لقد استجد الان بالنسبة الى الاشكال السالفة للنسوية شيء جديد كل الجدة : فالثورة الفرنسية علمت النساء أن يفكرن على اساس «الحركات الاجتماعية» . هكذا نعثر في «اعادة الاعتبار» على نبرة مستحدثة وغير مطروقة آنفا : «انني أرافع عن جنسي لا عن نفسي !» . ويصف غودوين يقظة الوجدان الجماعي هذه لدى المرأة بقوله :

«كانت تعي أنها تدافع عن نصف الجنس البشري الذي لبث يئن تحت النير على امتداد العصور ، ففقد صفة الكائن العاقل وانحط تقريبا الى مستوى دابة الركوب . وكانت قد ادركت ان النساء يرتج عليهن في غالب الاحيان في سجن ذهبي ، ويعلمن بالتدليل والرشوة كيف يحببن عبوديتهن ؛ لكن النفاق والغدر ما كانا الا ليعززا موقفها في المعارضة» (١) .

تكمن العلة الرئيسية لدونية المرأة ، في تقدير ماري ولستونكرافت ، في ضعفها الجسماني . فالحضارة والتربية تعملان باتجاه واحد . وقد جعل الرجال من النساء «مواضيع مغرية لهنيهة واحدة من الزمن» ، وقد ارتضين بهذا الدور . وقد ادركت ماري ولستونكرافت طبيعة الأوالية التي تجعل من نساء طبقتها متواطئات في ما يعانينه من استرقاق واستعباد . فأمهاتهن تحثهن على اتقان فن المكر والدهاء وعلى التظاهر بـ«الطاعة الخارجيةوالتوقير المتشدد لحشمة صبيانية»، ومن ثم فإنهن يقمن امتيازهن على تواطؤهن مع نظام اضطهادي . ولم يكن الماضي يقدم لهن اي مثال على حل بديل ، فتاريخهن كله موسوم بالخضوع والخنوع . وتعي المؤلفة تمام الوعي المباهج التي يتيحها لهن «سجنهن الذهبي» : «ولكن ماذا يحدث حين لا تعود المرأة موضوع لذة للرجل ، وحين لا تعود مفاتنها سوى «أشعة

---

١ ــ ماري ولستونكرافت : «كتابات لم تنشر في حياتها» ، المجلد ٣ ، لندن ١٧٩٨ ، ص٧٨ .

شمس آفلة» ، وحين يكون الصيف قد ولى وتصرم ؟» . انها تذوي وتذبل، وتنتظر رجالا آخرين . والحال ان المغازلة كانت فنا موقوفا على الرجال . وكانت ماري ولستونكرافت تكره المغازلة . فقد كانت تعرف انها شكل من أشكال الازدراء . كانت تدرك كيف يجري «عزل» النساء للسيطرة عليهن والتمكن منهن : «حين يجردن من صفاتهن الانسانية الحقة ، تسبغ عليهن مفاتن مصطنعة تؤهلهن لممارسة طغيان قصير العمر» .

كانت تشاطر غيرها من الراديكاليين رايهم بأن الطبائع الانسانيـــة هي بنت المحيط اساسا ، فسحبت بتماسك منطق هذا المبدأ على النساء . ووصلت الى الاقتناع بأنه لا بديل عن تغيير البيئة التي تحيا فيها النساء . أما عن دعوى روسو بصدد النوازع الطبيعية لدى البنات الصغيرات ، فقد بتت فيها بسرعة : «لقد راقبت في أرجح الظن عددا من البنات الصغيرات اكبر مما راقبه جان جـــاك روسو ــ وقد احتفظت بذكرى مشاعري الخاصة ؛ انني لم اتوقف قط عن النظر فيما حولي !...» . وتؤكد في الختام ان البنت الصغيرة «التي لم يشل الخمول حيويتها والتي لم يفسد خفر كاذب بساطتها ستكون على الدوام عفريتة» .

هذا ليس معناه ان ماري ولستونكرافت ، شأنها شأن مدام دي ستايل ، لا تدين ببعض افكار لروسو . فقد استلهمت هي الاخرى فلسفته حين اوصت بتربية بسيطة وطبيعية . وقد نادت بالتربية المختلطة وبالتمارين البدنية والرياضة في الهواء الطلق . وكانت تؤمن بأن علم النبات وعلم الميكانيك وعلم الفلك والتاريـــخ الطبيعي والفلسفة وتاريخ الديانات وتاريخ الانسان والسياسة قابلة لان تدرس بالمحادثة ، على الطريقة المحببة الى سقراط . كانت هذه الافكار في ١٧٩٠ افكارا ثورية ، وما يزال الكثير منها ثوريا حتى يومنا هذا . الا ان ماري ولستونكرافت كانت تسلم باستثناء له اهميته : فقد طالبت بتربية منفصلة للشرائح الدنيا مـن المجتمع . ففي سن التاسعة يجب ان يتلقى الصبيان والبنات تعليمـــا مختلفا : فالبنات يتعلمن الخياطة واشغال الإبرة اكثر مما يتعلمن «السياسة على الطريقـة السقراطية» . والواقع ان مظاهر فكرها الثورية لم تتخط حدود طبقتها الاجتماعية . وما طالبت به في الحقيقة لا يعدو ان يكون تربية مؤهلـــة لكي تتيح للمـــراة البورجوازية امكانية المشاركة بقسط فعال في الراسمالية الصناعية .

وتشاء سخرية الاقدار ان تعجز المراة عن الانعتاق من اغلال الماضي الا بتبنيها العقلية البورجوازية ، وانضباطية العمل المنهجي والمنظم ، وروح الدقة والحساب، وإلا بنبذها العادات القديمة وانفتاحها بحماسة على التجديد التقني والفكري . وينبغي انتقول ان فكر ماري ولستونكرافت يفتقد المنطق احيانا بصدد هذه النقطة . فالعديد من جوانب نزعتها الراديكالية يتعارض كل التعارض مع الطريقة التي تريد الراسمالية أن تخضع بها العالم لمنهجها . وقد استشفت بإبهام حلولا ممكنـــة اخرى ، مع انها ميزت بوضوح وجلاء طبيعة إشكال كلاريس هارلو : فهي تسخر من اخلاق الناس المرائية التي تفقد في نظرها المراة «شرفها» حين تفقد عفتها .

ولكن كلاريس أسيرة إشكالها ومعضلتها : كيف السبيل الى الاطاحة بنظام من الاضطهاد حين لا يكون في متناول المضطهَدين اي قاعدة اجتماعية لاطلاق حركتهم ؟... انها تعلم حق العلم ان التربية وحدها ليست بعلاج ؛ فتحرير المرأة يتطلب اولا اقامة «مجتمع مختلف» . ونراها تحاول أن تقدم تفسيرا اقتصاديا : فنظام الملكية هو الذي انتج التبعية والطغيان اللذين لا يعدو أن يكون اضطهاد المرأة مظهرا واحدا من مظاهرهما . ونراها تتردد في المطالبة للنساء بالمشاركة في شؤون الحكم . ولا يبدو لها فقط انه من غير المعقول ان تطالب نساء الشعب بالحقوق الديموقراطية وبتحررهن ، بل انها قطعت كل اتصال ايضا بنساء وسطها. فالرجل هو الذي شهر راية العزة والكرامة ـ وليست المرأة ! وتجد ماري ولستونكرافت عنتا ومشقة في الشعور بينها وبين نفسها بالفخر بالنساء والاعتزاز بهن ، بالرغم من رغبتها الحارة في ان تكون الناطقة بلسانهن . قد يحدث لها أن تستشهد ببعض نساء راديكاليات مثل كاترين ماي ، وتؤكد انه كان بودها لو تتعرف اليها . وكذلك كانت هناك جماعات قليلة معزولة من نساء مستقلات وباسلات يناقشن فيما بينهن الافكار الثورية. وكان الوسط التقدمي وغير الامتثالي يشاطرها الامل في مجتمع جديد . لكن الشيء البارز لديها باستمرار هو الشعور بالوحدة : فان تنجب المرأة طفلا غير شرعي ، وان تجاهر بأفكار ثورية ، وأن تخط كتابا مثل «اعادة الاعتبار» ، فذلك وحده كان كافيا في انكلترا في سنوات ١٧٩٠ للالقاء بها بين براثن الوحدة، ولعزلها على الصعيد الاجتماعي والسياسي والعاطفي.

غالبا ما تكون السخرية سلاح الاشخاص المنعزلين المصطدمين بمشكلات متعذرة الحل . وكثيرا ما تلجأ ماري ولستونكرافت الى ضرب بارع ومرهف وخفيف من السخرية : ففي رسالة بعثت بها من السويد تروي انه «اثناء العشاء فاجأني مضيفي بالقول دونما سابق انذار بأنني امرأة ثاقبة النظر لانني أطرح عليه اسئلة كتلك التي يطرحها الرجال» (١) . ولئن تنبهت ماري ولستونكرافت لما تعاني منه نساء البورجوازية من ضيق وشدة ، وعرفت كيف تصف أمراضهن العصبية وحياتهن الخاملة واللامجدية ، وسخرت من الاجراءات المقترحة لمعالجة ذلك ومن المستشفيات العقلية والاصلاحيات ـ «ما يفتقر اليه عالمنا هو العدالة لا الاحسان» (٢) ـ الا انها اخفقت بالمقابل في تبين الوسائل القمينة بإحداث التغييرات الاجتماعية التي يستدعيها تحليلها . وفي الوقت الذي تسلم فيه بأن غالبية ضروب «الجنون» المؤنث تعود علتها الى طغيان الرجال ، لا تستطيع أن تتخيل أن تصير النساء صانعات تحررهن . وكل ما تأمله هو اقناع عقلاء الرجال بتقديم المساعدة لانعتاق رفيقاتهن : «هلا كان الرجال كرماء الى درجة كافية كي يحطموا اغلالنا

---

١ ـ نقلا عن م.س. ستود ، ص ١٥٣ .

٢ ـ ماري ولستونكرافت : «اعادة الاعتبار لحقوق المرأة» ، لندن ١٧٩٢ ، ص ١٥٥ـ١٥٦ .

ويقنعوا بتشارك حر يحل محل الطاعة العمياء !» .

ان «اعادة الاعتبار» لماري ولستونكرافت ، الذي يعـــده بعضهم **اول بيان للنسوية** ، يبدو لنا اقرب الى مبحث نظري في النسوية البورجوازية والراديكالية التي ما كان نشاطها يتخطى بعد التحريض الاخلاقي . فالكتاب يعود الى عصر ما كان يستشف بعد لا امكانية حركة اشتراكية شعبية تكون معولا يعتمد عليه للرائـدات النسويات الثوريات ، ولا امكانية حركة من نوع حركة «المستنخبات» التي كانت تطالب لذوات الامتيازات من النساء بالحقوق التي كان ينعم بها الرجل البورجوازي. ولئن صح ان الرجل الذي قد يخطر له في بريطانيـــا العظمى في زمن مـــاري ولستونكرافت أن يأخذ بناصر المثل العليا وأن يدافع عنها كان سيشعر بوحـدة موحشة ، فان هذه الملاحظة تصح اكثر ايضا بالنسبة الى كل امراة مولعة بالحرية ومتعاطفة مع الثورة . وكانت الرجعية الفاسدة التي اثرت وتكرشت في الحقبـة التالية للثورة تكن الكره والضغينة لماري ولستونكرافت . وانه لامر له مغزاه ان تكون قد تعرضت للهجوم على الصعيدين الجنسي والسياسي معا . فنحن نقرا في قصيدة مغفلة الامضاء نشرت بعد وفاتها وبعد صدور سيرة حياتها بقلم زوجها وليم غودوين :

«لقد نشر وليم كدسة من الكتب ، وهوذا يكتب في آخر المطاف سيرة حياة ماري . لكأنه قدر في أرجح الظن ان فسقها غير معروف بما فيه الكفاية ...» (١).

وقد انصفها غير هذا الانصاف، «في الملكة ماب» ، صهرها شيللي الذي سعى ببالغ الجد وراء «التشارك الحر بين الرجل والمراة» : «هل يسع الرجل ان يكون حرا اذا كانت المراة امة ؟» . وفي «بروميثيوس طليقا» يتخيل نساء «متبدلات الى ما لا يجرؤن على أن يكنّه» ، وقادرات على التعبير عن «الحكمة التي ما كن يستطعن في السابق حتى أن يدركنها» (٢) .

في النصف الاول من القرن التاسع عشر وضعت جماعات صغيرة من الرجال والنساء من اصحاب الافكار الراديكالية في قفص الاتهام لا الفساد السياســـي وحده ، بل ايضا الاسس الاقتصادية لمجتمع المصانع والمعامل والآلات البخاريـــة والصناعية والمزاحمة ومطاردة المال الذي كان آخذا بالتطور والنمو في بريطانيـــا العظمى . وقد اخذت انتقاداتهم منحى أخلاقيا في المقام الاول . كان المجتمع في نظرهم طالحا لانه يحول دون قيام علاقات اجتماعية انسانية حقا . فهو يجعـــل الاساس للاتصال في ما بين الرجال ، وفي ما بين النساء والرجال ، الازدواجية وروح السيطرة والغش . وكان انصار الاصلاح يقرنون بفكرة الحرية السياسيـــة وبفكرة حرية العمل فكرة حرية الحب .

---

١ ــ نقلا عن م.س. ستور ، ص ٤٠٣ .

٢ ــ نقلا عن هـ. ن. بريلسفورد : «شيللي وغودوين وحلقتهما» ، لندن ١٩٥١ ، ص ١٧٠-١٧٢.

لقد تخيل شخص مثل بليك اختفاء : «ديانة العفة المتاجرة بالحب» ومعها «القداسة الزائفة المختفية في عبها» ، وتصور حبا من نوع جديد : «العناق تمازج من الراس الى القدمين ، وليس كاهنا مهيبا يقيم الطقوس ويدلف من بـــاب سري ...» (١) .

كان من راي شيللي ان الزواج يجب ان ينعقد بحرية كما يجب أن ينفســخ بحرية : «الحب يذبل في ظل الاكراه» . وكان الاكراه المصاحب للزواج يبدو له لا يطاق مثله مثل سائر أشكال القمع . ذلك ان المضمارين العام والخاص لا يقبلان انفصاما : «حتى العلاقات الجنسية تخضع لاستبدادية المؤسسات الرسمية» (٢). وعليه ، لا بد لتغيير الحياة الخاصة من تغيير المؤسسات السياسية والاجتماعية . وما كان جميع الناس يتحمسون لذلك حماسة شيللي، ولكن ما ان اثيرت تلك الافكار حتى باتت تتسلط على العقول. وعاجلا او آجلا تعاود ظهورها وتكون بمثابة حافز قوي للتطور المقبل . ولقد كان القران بين فكرة الثورة وفكرة حرية الحب موفقا بالرغم مما تعرضتا له من هزء من قبل الوسط الاجتماعي ومن تسفيه من قبــل المنادين بهما بالذات ؛ وقد لعبتا دورا حاسما في انعتاق المراة .

اتسمت بداية القرن التاسع عشر باكتشاف جهاز فائق النفع كان موضع نقاش في الاوساط الراديكالية . فقد حمل كراس موجه الى «الاشخاص المتزوجين من الجنسين» الى الجمهور الانكليزي في عام ١٨٢٣ معلومات عن «الاسفنجة المهبلية» التي صنعها في اغلب الظن خياط ذو ميول راديكالية ، فرنسيس بليس ، مــن سكان شيرينغ كروس . وقد جرى ارسال «الشيء» في رزم كستنائيــة اللون وبصورة خفية الى المراكز الصناعية الكبيرة في بريطانيا ، ثم تولى توزيعه عمال راديكاليون من أمثال وليم لونغسون، العامل الحائك في منشستر ، وشبان ثوريون من اشباه جون ستيوارت ميل الذي كان له من العمر يومئذ سبعة عشر عاما والذي اعتقل لانه سلمه ، يعاونه في ذلك بعض الاصدقاء ، الى خادمات يغسلن الارض والى نساء وبنات الشغيلة والتجار في الاسواق . كان ميل يقوم بالدعاية لمضادات الحمل في الصحيفة الراديكالية «بلاك دوارف» ، بالرغم من ان بعض الراديكاليين من امثال ت. ج. وولر كانوا يعارضون تحديد النسل . فقد كان هؤلاء يرون صلة ما بين تحديد النسل وافكار مالتوس ، فيخشون ان يكون الغرض منه انابته عن الاصلاحات السياسية والاجتماعية التي يدعون اليها . نحن نجهــل عدد النساء اللواتي اخذن بإغراء الاسفنجة المهبلية . لكن أولئك الذين جعلوا من انفسهــم مروجين لها كانوا وراء ظهور تصور جديد عن الحب . فبدلا من ان يتخذوا مــن

---

١ ــ و. بليك : «القدس» في «الاعمال الكاملة» ، اوكسفورد ١٩٦٦ ، ص ٧٠٨ .

٢ ــ ب.ب. شيللي : «مدونات عن الملكة ماب» في «اعمال شيللي الشعرية» ، لندن ١٩٤٧ ، ص ٨٠٦ ــ ٨٠٧ .

الحب الجنسي الفردي ، كما فعل شيللي ، مقياس قدرة بني الانسان على تجاوز المجتمع القائم، حاولوا انيختزلوا ذلك الانفعال اللاعقلي الى التأويل المادي لأصوله. فبعد برهة وجيزة من وضع كراس «الى الاشخاص المتزوجين منالجنسين» موضع التداول ، نشر ريتشارد كارلايل مؤلفه المعنون باسم «ما الحب» الذي جعل عنوانه فيما بعد «كتاب كل امراة او ما الحب» . ولم يكتف في ذلك المؤلف بأن أسدى الى نساء الطبقة العاملة معلومات عن مضادات الحمل ، بل شرح لهن ايضا ان «عاطفة الحب الجامحة ليست سوى الرغبة في قذف المني بصورة طبيعية» .

من دواعي الاسف انه لا تتوفر لدينا المعلومات عن طبيعة استقبال النساء لذلك الكتاب . والشيء المؤكد هو ان التفسيرات الميكانيكية للحب دمجت بالتراث الثوري واعتبرت جزءا من مفهوم تحرر المراة . هكذا نلاحظ ، من جانب ، النشدان الرومانسي لشعور الانعتاق في العلاقات الجنسية غير المكبوتة ، ومن الجانب الآخر نزعة مادية وضعية تقشع الاوهام المكتنفة للانفعال الشهواني . ان وجهتي النظر هاتين لعلى قدر لا بأس به من التضارب : ففيما تهتم الثانية بتعزيز الرقابة ، تنزع الاولى الى الاستغناء عن كل رقابة . وكانت كل واحدة منهما تفترض مسبقا ، على الصعيد النظري ، شروطا اجتماعية شديدة التباين . وفي الواقع ، لبثتا كلتاهما على صمودهما ـ ميراث غريب حقا ! ـ تثيران المناقشات والمصادمات بمجرد أن يدور الكلام ، في داخل الحركة الاشتراكية الثورية ، عن انعتاق المراة .

في عام ١٨٢٠ تم العثور على حل لاحدى المشكلات التي اثارتها ماري ولستونكرافت : فقد وضع انصار روبرت أوين مخططا لمجتمع تعاوني . وكان عدد من الاشخاص لا يوافقون على تصورات أوين ، فانشأوا غيرها . كان الجميع يتطلعون الى إرساء اسس مجتمع متناغم ، ويأخذون بعين الاعتبار الصبوات النسائية . وقد وعد جون غراي النساء في «مطالعات في السعادة الانسانية» ، التي تضمنت رسما أوليا لمعالم مجتمع تعاوني في لندن ، بمساواة تامة في الحقوق وبإلغاء السخرات المنزلية . فالاعمال المجحفة كالطبخ وغسل الغسيل وتدفئة الغرف سيتقاسمها جميع اعضاء التعاونية بالتساوي . ومنذ ذلك اليوم باتت فكرة انعتاق المراة لا تقبل انفصاما عن فكرة مجتمع غير تنافسي ، لا تكون فيه وسائل الانتاج ملكا لافراد دون غيرهم .

في عام ١٨٢٥ كتب احد أوائل المفكرين المناهضين للراسمالية ، وليم طومبسون ، «احتجاج نصف الجنس البشري ، النساء ، على ادعاء النصف الآخر، الرجال ، بالحق في الابقاء عليه في حالة من العبودية السياسية والبيتية» ، وذلك ردا على مؤلف لجيمس ميل أنكر على النساء الحقوق السياسية بحجة أن الرجال مؤهلون للحفاظ على حق النساء بالنيابة عنهن . كان وليم طومبسون قد دخل في صراع مع افكار الراديكاليين من الطبقات الوسطى ومع النظريات الجديدة في الاقتصاد السياسي التي صورت الطريقة التي شرعت بها بريطانيا تتصنع وكانها

نجاح عظيم . كان يحكم بقسوة على المظالم التي يعانيها فيما حوله اين أجـــال الطرف ، بدءاً من مصير الفلاح الارلندي الى شروط الحياة في المراكز الصناعية الجديدة . كان واحدا من أوائل الاقتصاديين الذين طالبوا للشغيل بالحق فـــي مجمل نتاج عمله ووضعوا نظرية عن استغلال الانسان للانسان . كـــان يدرك أن النظام القائم على التنافس والسيطرة يثقل بوطأته علـى الجوانب السياسيـــة والنفسية للوجود الانساني . فما كانت الشرائع والاخلاق «سوى شبكة مـــن الإكراهات تفرضها طبقة على اخرى» (١) . كما كان الحب والعاطفة يلبسان لبوس البضائع : «يندر أن تعبر العواطف الطبيعية عن نفسها بحريـــة ... فالجانب الحيواني الصرف من اللذة الجنسية يشتريه الطرف الاغنى في الجنس الغالب بأبخس سعر تعرضه عليه المزاحمة» (١) .

وبالرغم من أن استقامة نزعته الراديكالية هي التي دفعت به الى الاحتجاج على استرقاق النساء ، فلا مراء في انه يدين بالكثير من أفكاره لصداقته مع آنا هويلر . فقد كانت هذه قد انضمت ، بالرغم من أوجاعها الشخصية ، الى مجموعة من النساء اتخذن من أفكار ماري ولستونكرافت في التحرر موضوعا لتأملاتهن . ويشيد طومبسون في مستهل كتابه اشادة مطولة بآنا هويلر . ويشرح فيقول انه بالرغم من عجزه ، بصفته رجلا ، عن الاحساس مثلها ، فانه سيسعى الى أن يعرض بصدق جميع عناصر القضية التي حامت عنها. والواقع ان طومبسون يفعل اكثر من ذلك : فهو يرفض ، نظير ماري ولستونكرافت ، الفكرة القائلة ان مصلحة فئة من الفئات يمكن ان يعهد بها الى فئة اخرى . ولا تخلو لهجته من السخرية حين يعيد الى الاذهان أن المحافظين هم الذين لجؤوا الى استخدام تلك الحجة في مواجهة جميع الفئات المناضلة في سبيل حريتها . فما الفائدة من توسيع نطاق حـــق الاقتراع ما دام قسم بعينه من المجتمع مفوضا برعاية مصالح جميع الناس ؟ ولكن حتى على فرض ان السعادة يمكن ان تنجم فعلا عن ارادة السادة الطيبة ، وان الاقوياء مستعدون حقا للنهوض بعبء ازدهار الضعفاء ورفاههم ، فان مثل هذا النظام لن يقدم اي ضمانة للمستقبل : فما يدرينا أن سادة الغد ستعمر افئدتهم نفس النيات النبيلة والكريمة ؟

يعتقد طومبسون ان عبودية المراة ترجع في علتها الى ضعفها الجسماني والى دورها كمنجبة . ويقدر ان هذه العبودية قد استفحل شرها بحكم وضع الفتاة الذي يحول بينها وبين الانصراف الى الدراسة ، وكذلك بحكم نظام الزواج الذي ينزع ملكية المراة على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي .

لم يشأ طومبسون ان يخوض النضال على صعيد مجرد ، صعيد «حـــق النساء» : فانعتاق المراة مستحيل ، في رأيه ، في نظام اقتصادي ، عماده المزاحمة

---

١ ــ ريتشارد. ك. بانكهورست : «وليم طومبسون» ، لندن ١٩٥٤ ، ص ٥٢ و٥٩ .

الحرة . فحتى لو نعمت النساء بالمساواة في الحقوق السياسية والمدنية ، فلن يتمتعن بـ «المساواة في السعادة ، لان الفرق في القوى لا بد أن ينتج ، في ظل نظام المزاحمة الحرة ، فارقا في المفاعيل والنتائج» (١) . ومن منطلق هذه الفرضية، سيكون الميزان دوما وابدا في غير صالح النساء على الصعيدين الجسماني والثقافي . والحل الوحيد في نظر طومبسون هو «اقامة نظام جديد للسعادة الاجتماعية يأخذ بعين الاعتبار مصالح جميع الكائنات الانسانية» . والمجتمع الذي يقترح قيامه سيشاد على اساس «تشارك طوعي او تعاون متبادل بين الصناعة وبين اكبر عدد ممكن من المواهب» . وبانتظار قيام ذلك المجتمع ، يقدم برنامجا مطلبيا قمينا بإزالة الاكراهات ، لكنه لا يشكل «خطوة الى الامام» ، اذ يكتفي بأن يعد المرأة بأداء دور اكثر اهمية في مجتمع متغير . وينتقد تربية البنات والاكراهات القانونية التي تثقل بباهظ وطأتها على الاناث من السكان . فالقوانين السارية المفعول تدمغ المرأة بـ «سمة الدونية ... فان تكون المرأة امرأة فهذا معناه انها كائن حيواني ، كائن دون ... وهي سمة يتعذر محوها مثلما تتعذر ازالة لون جلد الزنجي» . وكانت الحركة ضد الرق تشبه المرأة بالرقيق . ويندد طومبسون بمالكي الرقيق الذين يحاولون تبرير انفسهم بفرضهم على الارقاء وجهات نظرهم الخاصة عن «الطبيعة» . فما هذه «الطبيعة» سوى «نتاج» جهلهم الاناني ورفضهم العدالة.

لكن طومبسون يذهب الى ابعد من ذلك ويهاجم مؤسسة الزواج والاسرة البورجوازية . وحين يلاحظ ان «كل رجل يشد وثاق امرأة الى بيته ويسمي ذلك عقدا» ، فانه لا يستهدف بذلك زواج المنفعة الارستقراطي وحده ، بل ايضا العقد الحر في التشارك البيتي ، ذلك العقد الذي يمنح المرأة من الحقوق اقل بكثير مما يمنح الرجل . وفي عصر كان يحلو فيه للناس أن يصوروا الاسرة ـ في عالم الرأسمالية الاولى العديم الشفقة ـ وكأنها ملاذ ينبغي ان تقوم فيه المرأة بدور المؤاسية والمسلية ، نرى طومبسون يندد بالرياء الذي تبنى عليه تلك الفكرة : «البيت ... هو سجن المرأة مدى الحياة . الزوج يصوره بصورة مرفأ من الهناء الوادع ، لكنه لا ينسى أن يجد خارج المنزل ، لاستعماله الشخصي ، هناء اقل وداعة ولكن اكثر تنوعا واكثر تنشيطا» .

لقد وعى طومبسون القوة التي يمسك بزمامها ذاك الذي يقرر ، حسبما يحلو له ، أخلاقية او لاأخلاقية فعل من الافعال : «ان لفي متناوله نظاما للسيطرة المرائية يطلق عليه اسم الاخلاق» . وكان يعلم ايضا مدى قوة الوثاق الذي يشد به هذا النظام النساء ، ولماذا يندر غاية الندرة ان يتمردن عليه . فالاختيار بالنسبة

---

١ ـ وليم طومبسون : «احتجاج نصف الجنس البشري ، النساء ، على ادعاء النصف الآخر ، الرجال ، بالحق في الابقاء عليه في حالة من العبودية السياسية والبيتية» ، لندن ١٨٢٥ ، ص٢ . والشواهد اللاحقة مأخوذة من الصفحات ١٥١ ، ١٦٥ ، ٨٥ ، ٧٩ ، ١٨٩ ، ٤٢ ، ١٩٦ .

اليهن ضيق غاية الضيق : فقد كان في مستطاعهن اما ان يتزوجن ، وإما أن يعشن حياة العانس البائسة ، وإما أن يجازفن بفقد اعتبارهن اجتماعيا ؛ اذا ما اخترن الحرية الجنسية . «أجدر بها أن تكون أمّة تقبّل من أن تكون أمة لا تقبّل» .

انه يسلم بصراحة كبيرة بأن الحركة الراديكالية نسيت أن تفتح للمرأة منفذا: «افعجب ألا يكترث جنسكن بما يدعوه الرجال تقدم المجتمع وحرية العمل والمؤسسات الاجتماعية ؟ اين اقترحوا على النساء ، في جميع انظمتهم السابقة القائمة على الحرية او الاستبداد ، حرية العمل ؟» . انه لا يفهم دهشة الرجال الراديكاليين ازاء قلة حماسة النساء لـ «قضية الحرية الكبرى» ويتساءل «أهم اكثر غباء منهم رياء ، أم اكثر رياء منهم غباء ؟» وهذا مع أن التحولات التي حدثت ابان الثلاثين سنة الفاصلة بين نشر «اعادة الاعتبار» ونشر «الاحتجاج» لم تكن واهية الشأن . ففي عام ١٨٢٥ أمكن لوليم طومبسون أن يحث النساء ويشجعهن على التخلص من اضطهاد الرجال مقترحا عليهن الكفاح في سبيل مجتمع آخر . وهكذا مس مسائل ومشكلات صارت مذ ذاك فصاعدا جزءا لا يتجزأ من الفكر النسوي الاشتراكي : وبالفعل ، لن تكف النساء عن المطالبة بالاستقلال الاقتصادي ، وبالامان الاجتماعي ، وبواجب المجتمع في تولي تربية الاطفال ، وبالمساعفة الاجتماعية اثناء فترة الحمل ، وبحق النساء في العمل . وفي مجتمع الغد سيتلاشى من الوجود دافع رئيسي من دوافع العداء المذكر لتحرر المرأة .. فالرجل ، المضمون له عمله ، لن يعود يخشى من مزاحمة النساء .

ينافح طومبسون بنباهة وبلاغة عن فكرته بصدد نسوية تعاونية . وكانت مناقشات ومساجلات تدور في ذلك الوقت نفسه في شكل اكثر خفاء واقل جلبة داخل الحركات التعاونية . فقد أتاح أولئك الاشتراكيون الاوائل امكانيات جديدة للنسوية باقتراحهم اصلاحات عينية بدلا من ان يكتفوا بجرد وتعداد ما لا يسير على ما يرام . وبمغادرتهم مضمار التطلعات والصبوات والافكار أدرجوا تحرير النساء في نطاق حركة اجتماعية أرحب ، قمينة بتوفير العلاج لاوجاع الراسمالية وتبذيرها . ومنذ ذلك اليوم صار الصراع سافراً بين كلتا النسويتين : النسوية التي ترمي الى الاندماج في العالم البورجوازي ، والنسوية التي تروم عالما آخر .

شهدت فرنسا بدورها تطوراً مماثلا : فقد نجم عن تلاقي بعض الافكار انشقاق الى نوعين من النسوية . وبالرغم من ان فورييه عدل في وقت لاحق وجهة نظره ، فان «نظريته في الحركات الاربع» ، المنشورة في عام ١٨٠٨ ، أسهمت بقسط هام في الفكر النسوي الاشتراكي ، وأثرت لا على الاشتراكيين الفرنسيين الاوائل فحسب ، بل ايضا على الراديكاليين والتعاونيين في بريطانيا وأميركا . وبالفعل ، حاول فورييه في ذلك الكتاب ان يقدم تفسيرا انثروبولوجياً وتاريخيا لتطور المجتمع البشري فاق في ثقابته ونفاذه كل ما حاوله المتقدمون عليه : فقد انطلق من فكرة انه يسهل تخيل وضع اجتماعي آخر في المستقبل اذا أمكن البرهان على ان الماضي

شهد هو الآخر تغيرات اجتماعية . ولئن صح أن تفاصيل عرضه لم تعد تنطوي على أهمية تذكر اليوم ، فان فكرته الداعية الى اتخاذ شرط المرأة معيارا لتطور مجتمع من المجتمعات قد أثرت بالمقابل تأثيرا دائما في النسوية الثورية .

«ان تغير عصر تاريخي يمكن ان يتحدد على الدوام بتقدم النساء نحو الحرية، لانه انما في علاقة المرأة بالرجل ، والضعيف بالقوي ، تتوضح معالم انتصار الطبيعة الانسانية على الحيوانية . ان درجة انعتاق المرأة هي المقياس الطبيعي للانعتاق بوجه عام » (١) .

على هذا النحو اقام فورييه صلة بين القمع الاقتصادي والقمع السياسي للمرأة . انه يسخر من أولئك الذين يتبجحون بالكلام عن مكر المرأة «الطبيعي» من دون ان يأخذوا في حسابهم انها مكرهة على المخاتلة بحكم وضعها الاقتصادي . وهو يشتبه في الفلاسفة انهم يخفون وراء تقريظهم «نفورا سريا من المرأة» . ويتهمهم بإقامة غيتوات فكرية ، وبالحؤول دون النساء ودون ولوج عالم الافكار ، وبالتوكيد من ثم بأنهن عاجزات عن التفكير . ومن رأيه انه أخلق بهم وأجدر لو رسموا مخططات اجتماعية جديدة قادرة على وضع حد لعبودية النساء .

كان يزدري «النساء المتعالمات» ، أذيال «الجوارب الزرق» البريطانيات . فبدلا من التفكير بوسائل تحرير جنسهن ، يتعاطين «الانانية الفلسفية» . ويغمضن عيونهن عن بؤس شقيقاتهن لانهن أفلتن من مصير القسم الغالب منهن .

وتقيم كتابات فورييه اعتبارا ايضا لصبو النساء الى حياة اكثر تفتحا . ففي التجمعات التعاونية او المَشارك Phalanstères التي دعا الى اقامتها ينبغي ان تكون المساواة بين الجنسين تامة شاملة . فلن تعود النساء تابعات اقتصاديا للرجال . وتربية الاطفال هي من صلاحية المجتمع ، لا من صلاحية الافراد . ولن يكون هدف تربية البنات تأهيلهن لدور ربات البيوت ، بل لدور المواطنات القادرات على المشاركة في الحياة الاجتماعية والسياسية للمجتمع .

كان فكر فورييه يقوم على اساس اليقين بأن المجتمع السعيد هو المجتمع الذي يتيح لكل كائن انساني فرصة للتفتح الكامل . لم يكن يفكر بتغيير الفرد واصلاحه حتى يصير لائقا بمجتمع صالح . بل كان يريد على العكس خلق أشكال للتنظيم الاجتماعي تمكن كل فرد من سلوك المسلك الذي يحلو له من دون ان يزعج الآخرين. وكانت له أفكار اريبة في موضوع تنظيم العمل . فحين لاحظ أن الفتيان لا يميلون ميلا شديدا الى النظافة ، طالب لهم بأعمال وسخة . ومن حق الراشدين الذين لم يتحرروا من ذلك النازع أن ينضموا اليهم . وفي وسع هواة القذارة ان ينظموا انفسهم في عصابات تسمى بـ «العشائر الصغيرة» . أما الشبان المحبون للنظافة

---

١ ــ شارل فورييه : «نظرية الحركات الاربع» في «الاعمال الكاملة» ، باريس ١٨٤١ ــ ١٨٤٣ ، ص ٤٣ .

فيخصون بالاعمال الفنية . وكان ميالا ، على ما تدل الظواهر ، الى الاعتقاد بـأن البنات سيفضلن الاشغال الاخيرة . الا انهن حرات في الانضمام بدورهن الـى «العشائر الصغيرة» .

لم تكن افكار فورييه النسوية هي الموضوع الوحيد للنقاش في المحافل والمقاهي الفرنسيةفي النصف الاول من القرن التاسع عشر . ففي الكثير من الرسوم الهزلية ظهرت «المرأة السانسيمونية الجديدة» ، وهي شخصية في غاية الحداثة ترتدي نوعا من المئزر فوق البنطال ، وتبشر بقدوم اميليا بلومر . وبالرغم من استهجان العديد من السانسيمونيين ، عاد آنفانتان ، احد تلامذة سان سيمون ، الى نبش افكار المعلم عن نصرانية جديدة وبعث روحي بواسطة الأنوثة ، وطورها . وقد نظم أولئك الهراطقة الجدد، الذين اعادوا الى الاذهان من اكثر من وجه الحركة الالفية، صفوفهم على نحو ما فعل رسل الكنيسة الاولى ، وتقاسموا املاكهم بانتظار نهاية العالم ومجيء المسيح الجديد . لكن كان من رايهم هذه المرة ان الفداء لا يمكن ان يأتي الا من «أم» . والكنيسة بحاجة الى قران بين الاب والأم ، كرمز لاتحاد العقل والعاطفة . ومن ثم ، ينبغي تجاوز الرفض المسيحي للجسد ، والاشادة بهذا الاخير بصفته تكملة الروح . وقد تبنوا ، بمعنى من المعاني ، رمزية آباء الكنيسة التي تمثل المراة في نظرها الجسد والحيوانية والخصب .

قد تبدو لنا مبادرة آنفانتان في توجيه بعثة فاشلة الى مصر للبحث فيها عن «الأم» التي طال انتظارها مجافية للعقل والمنطق . لكن السخط الذي اثارته دعاية أولئك الهراطقة كان لا يقل واقعية عن الاضطهاد الذي كابدوا منهم لدعوتهم الى الزواج الحر . كان تأثيرهم ذا طبيعة معنوية ، وقد فعل فعله لصالح نساء لم يكن لديهن شيء آخر يتشبثن بحبل أمله . وكان من نتيجة التأثير المتضافر للحركات العمالية وروابط الشغيلة من جهة اخرى ، وللافكار المشتطة لبعض المفكريـــن الطوباويين من الجهة الثانية ، أن تسلح العديد من النساء بوعي جديد لقيمتهـــن وكرامتهن . وقد شجعهن هذا الوعي على التعبير عن افكارهن ، ونبههن الى طاقاتهن التي لم تكن متاحة للواتي سبقنهن .

ان اسم جورج صاند هو وحده الذي بقي ، بين اسماء كثيرة في ذلك العصر، على قيد الحياة ، لكن وجدت ايضا نساء غيرها اقل شهرة منها انكببن على تلـــك المشكلات ولم يكن هناك من يصفق لهن ويتزلف اليهن . ففي عام ١٨٤٨ ، وفـي «نادي ليون» ، اعتلت المنصة عاملة بسيطة ، مولودة في اسرة فقيرة ومتزوجة من جمهوري طيب ، وطالبت بالكف عن معاملة النساء معاملة الإمـــاء . كما طالبت بقبولهن في الجمعية الوطنية حتى يذدن عن حقوقهن ومصالحهن . وكان مـــن مطالبها الاخرى اجر لائق يكفل للنساء استقلالهن ، كما يكفل للفتيات اللائي وقعن فريسة الاغراء امكانية تربية اطفالهن بدون تمييز اجتماعي ، ما دام الرجل هو وحده الملوم .

يتعذر اليوم اقتفاء اثر أولئك النساء ، ومعرفة ما حدث لهن ومن اين اقتبسن

افكارهن . ومن المتعذر كذلك اعادة رسم يقظة وعيهن البطيئة التي كانت تتويجا لمداخلاتهن . وبالمقابل تتوفر لدينا معلومات اكثر عن فئة أخرى من النساء ، نقصد اولئك اللائي كن يمارسن الكتابة . فقد وصفت لنا سوزان فوالكان ، وهي عاملة ركبت البحر مع اخويات الى مصر للبحث فيها عن «الأم» ، وصفت لنا في «مذكرات بنت من الشعب» الانطباع الخارق للمألوف الذي خلفته فيها أفكار آنفانتان ، والفرح الذي بثه فيها اكتشافها لمقدرتها الذاتية على التفكير والاحساس والعمل بوصفها كائنا مستقلا . وكتبت كلير ديمار كتابين صغيرين قبل ان تنتحر مع عشيقها . كانت تحلم بعصر اجتماعي جديد من التعاون والوفاق والانسجام بدون عبودية صناعية او جنسية (١) . وكانت ترى ان انعتاق المرأة وثيق الصلة بانعتاق البروليتاريا ، ونادت بحب اكثر حرية بين الرجل والمرأة ، بمجتمع يكون فيه الحب حبا لا بين ارقاء وسادة وانما بين متعادلين ، بانقلاب في عاداتنا الجنسية . كذلك كانت جان دوروان ، وهي عاملة عصامية ، تؤمن بأن تحرر المرأة لا يقبل انفصاما عن تحرر الطبقة العاملة . وقد نشطت في سبيل الحركات العمالية الاولى في فرنسا ، ووضعت مشروعا لاتحاد النقابات العمالية . وقد تقدمت بالعديد من المقترحات العينية الرامية الى تحسين شرط المرأة في المنزل وفي عالم العمل . وفي كتابها «دروس في الحقوق الاجتماعية للمرأة» وصفت في عام ١٨٤٨ على النحو التالي شرط النساء الاجتماعي :

«ان المرأة ، التي لا تزال امّة ، تبقى محتجبة وصامتة . لقد اضاعت ذكرى أصلها الإلهي ، ولا يسعها ان تفهم رسالتها الاجتماعية السامية ؛ لا اسم لها ، ولا وطن ؛ مطرودة من المحراب ، ويبدو عليها وكأنها راضية بعبوديتها المخزية . ومن كثرة رزوحها تحت نير الرجل لم يعد حتى الصبو الى الحرية كامنا فيها : فالرجل هو الذي **يتوجب عليه** ان يعتقها !» .

وبصرف النظر عن هذه اللغة الدينية ، نحس هنا بوعي صاح للطابع الشمولي لاسترقاق المرأة ، الامر الذي يجعل الكفاح اصعب واشق .

كان يخالج جان دوروان شعور واضح بأن تحرر المرأة غير ممكن بدون انقلابات اجتماعية عميقة، لكنها كانت تقدر أن هذه الانقلابات لن تتم بدون مساهمة النساء. فالرجل ، النزّاع ابدا الى الانانية ، لا بد ان يختار دوما ، على حد تقديرها ، حل الجور والعسف . لكن جان دوروان كانت على قدر كاف من السذاجة لكي تؤمن بأن النساء اللائي جردن من كل مسؤولية يمتلكن المقدرة على تنظيم انفسهن بحسب شرائع الحب .

ان فلورا تريستان اكثر شهرة من سوزان فوالكان او كلير ديمار او جان

---

١ ــ كلير ديمار : «قانوني للمستقبل» و«نداء امرأة الى الشعب حول انعتاق المرأة» ، باريس ١٨٣٣ .

دوروان . ففي «الاتحاد العمالي» ، المنشور عام ١٨٤٣ ، ترسم المعالـــم الاولى لمخطط «أممية عمالية» تغطي العالم بأسره . وفي فصل منه عن حقوق النساء تنوه باهمية العلاقات بين الرجال والنساء في الاسرة العمالية لحيازة الوعي الاجتماعي. وهي تقدر ان الكثيرات من نساء الطبقة العاملة تخشوشن طباعهن لما يعامَلن به من ازدراء . «انا لا انتقد نساء الطبقة العاملة . بل ينبغي ان يقع اللوم على المجتمع... ولا بد من التسليم بأن القليل من الاسر العمالية تعرف السعادة . فالزوج هو رأس الاسرة بحكم القانون ، ولكن ايضا بسبب المال الذي يكسبه . انه يحسب نفسه متفوقا على زوجته التي لا تكسب سوى جزء من اجرته ، ولا تعدو ان تكون خادمته المتضعة » .

وحين يضيق الرجل ذرعا بمزاج امراته العكر وبالمشاحنات المتواصلة ، يفتش عن ملاذ له في الشراب . «الحانات هي معابد رجال الطبقة العاملة» . وبذلـــك تتفاقم عواقب الفقر والبطالة وشروط الحياة السيئة وتستفحل : «انها ترهقـه باللوم والتقريع . فيهينها ويضربها . والحال أن للمرأة همومها الاخرى : فالإنجاب المتواصل والمرض والبطالة والبؤس مزروعة امام بابها كراس ميدوزا . أضف الى ذلك صراخ وجلبة اربعة او خمسة اولاد يدورون حولها في حجرة ضيقة . ولا بد للمرء ان يكون ملاكا حتى لا يتبلد ذهنه بفعل ذلك كله» .

تقر فلورا تريستان بحاجة الشغيل الى ابداع ثقافة اخرى ، وتقترح أن تفتتح في جميع المدن «قصور عمالية» ، مراكز للتنظيم والتأهيل . وستكون احـــدى مهامها «التربية الاخلاقية والثقافية والتقنية» (١) لنساء الشعب . وكانت تعقد الآمال على تغير سلوك الرجال نتيجة لمثل تلك المبادرة .

لقد سلكت حياة فلورا تريستان ذلك المسار الدرامي والمأساوي الذي لا يبدو انه في مستطاع حياة اي نصيرة اشتراكية لقضية المرأة ان تفلت من إساره . فقد كانت عاملة ملوّنة في احد المراسم . سُحر رب عملها بجمالها فتزوجها . ولـــم تعرف للسعادة معه طعما ، وحين حملت للمرة الثالثة ولت الادبار . لم يكن القانون يقر الطلاق . فلجأت الى اميركا الجنوبية لتسترجع ميراث شقيق والدها . ولكن عبثا . وبعد طول اخذ ورد مع زوجها بصدد الاحتفاظ بابنتها ، ترصدها هـــذا الاخير ذات يوم وقتلها بعيار ناري . كان وضعها الشرعي متقلقلا ، وكانت اشبـــه بمنبوذة على الصعيد الاجتماعي . لكن مطالعة فورييه وسان سيمون ، والاحاديث مع العمال المعنيين بأفكارها ، أفهمتها انها تشاطر آخرين بؤسها وعجزها . زارت انكلترا ، وتعرفت فيها الى راديكاليين وميثاقيين (شارتيين) من أمثال آنا هويلر واوين وأوبريان . اثناء اقامتها في الطرف الثانـــي من المانش التقت في بدلام

---

١ ــ ج. د. هـ. كول : «الفكر الاشتراكي . الرواد» ، «تاريخ الفكر الاشتراكي» ، م١ ، لندن ١٨٥٣ ، ص ١٨٦ .

بمجنون احدثت كلماته في نفسها بلبلة عميقة . فقد شرح لها هذا المجنون، بالفعل، انه يزمع ان يضع حدا لكل صنوف العبودية ، وان يحرر المراة من طغيان الرجل ، والفقير من جور الغني ، والروح من رق الخطيئة . وتساءلت فلـــورا بينها وبين نفسها عما اذا كان ذلك الرجل مجنونا حقا : «كل ما كان يتفوه به يكشف عـــن مخلوق متمرد على فساد ورياء أولئك الذين يحكمون العالم ولا يستطيعون السيطرة على غضبه» (١) . كان وضع ذلك الرجل يشبه شبها غريبا وضعها . وقبيل وفاتها بقليل في عام ١٨٤٤ ، واثناء جولة محاضرات كانت تريد من خلالها اقناع الشغيلة بضرورة انشاء «أممية» ، كتبت الى كونسيديران : «جميع الناس تقريبا ضدي. الرجال لانني اطلب انعتاق المراة ، والملاك لانني انادي بانعتاق الاجراء» (٢) .

اثناء تجوالها لاقت استقبالا متفاوتا . فقد اصغى اليها بعض العمال واشتروا «الاتحاد العمالي» . لكنها اصطدمت في مدن اخرى بالفتور ، وبالمنازعات الداخلية بين الحرف والروابط العمالية . ومن حق المرء أن يدهش لمتابعتها رحلتها ، تجر نفسها من مدينة الى مدينة ، من اجتماع الى اجتماع ، بائعة كتابها . وكثيرا مـــا تعرضت لهجوم الصحافة ، وملاحقة الشرطة والسلطات المحلية . والمت بها الحمى، وسقطت طريحة الفراش بعد ان تكلمت تحت مطر غزير من دون أن تبالي بما هي عليه من انهاك وخور . وانهارت ، ووجدت ملجأ لها لدى صديقتها إليونور بلان ، وهي غسالة كانت تشاطرها افكارها ، ولدى آل لومونييه ، وهي اسرة بورجوازية كانت تعاضدها . وعند دفنها حمل عمال نعشها ، لانها لم تشأ أن يدفع للرجال اجر للقيام بتلك المهمة . وجرى تنظيم حملة تبرع لتشييد ضريـــح لها . وتركت فلورا كتابا غير مكتمل : **«انعتاق المراة او وصية المنبوذة»** ـ وهو عنوان ذو مغزى. ولم تنسها الحركة الثورية . ففي ٢٣ تشرين الاول ١٨٤٨ قدم عدة آلاف شخص للتأمل عند قبرها . وعاد الشغيلة الى بيوتهم وهم ينشدون : «فلورا تريستـــان بحاجة الى ضريح» ، وهي اغنية ترجعت طوال سنين عديدة في قاعات المصانع .

برغم المعارضة الشرسة اذن والقمع الذي لا يشفق ولا يرحم ، استمر النقاش في مشكلة الارتباط بين انعتاق المراة واقامة مجتمع جديد ، اكثر عدلا حيـــال الفقراء ، واستمر الدفاع عنها في الاوساط الطوباوية في النصف الاول من القرن التاسع عشر . وقدمت نساء متأثرات بسان سيمون للعمل في تعاونيات مشادة على اساس مبادىء أوين ، وعدن الى فرنسا حاملات معهن مشاريع للتشارك . واقام أوين واتباعه مجمعات في الولايات المتحدة وزاروا فرنسا للمناقشة مـــع الفوريين . وروّج هيو دوهرتي لافكار فورييه في بريطانيا . فنظرا الى تماثـــل المشكلات في كل مكان ، اقتبست الافكار من الجيران . وفي اميركا اثارت فرانسز

---

١ ـ تشارلز نلسون غالي : «جدة غوغان المدهشة : فلورا تريستان» ، لندن ١٩٧٠ ، ص ١٧٣ .
٢ ـ اديت توماس : «نساء ١٨٤٨» ، باريس ١٩٤٨ ، ص ٢٩ .

رايت ، التي كانت تكافح في سبيل تحرر العبيد ، استنكار الناس بممارستهـا الحب الحر في احد مجمعات تنيسي . وابانت مرغريت فولر ، المتصوفة والنسوية ذات الميول الراديكالية ، سواء ابكتاباتها ام بحياتها ، كيف ان الافكار الراديكالية لا تخترق الحدود القومية فحسب ، بل تجتاز ايضا الحواجز العرقية والطبقيـة والجنسية . وعقدت صلات مع مجمع في بروك فارم كان يتميز بأعرافه الزهدية وافكاره السامية ، ثم تحول في عام ١٨٤٤ الى «مشرك» للفوريين. وزارت مرغريت فولر في ١٨٤٧ فرنسا ، ولاقت فيها جورج صاند ، وتحمست لثـورة ١٨٤٨ ، وشاركت بنشاط في حركة التحرر الايطالية . وكتابها المعنون باسم «المراة فـي القرن التاسع عشر» يصف بصحو فائق العواقب النفسية والثقافية لاسترقـاق المراة . وقد انكبت بوجه خاص على مشكلة الوعي التي صاغتها في مصطلحـات دينية ، على طريقة السانسيمونيين . وقد تصدت مرغريت فولر تصديا جبهيـا لواحدة من اكثر الحجج المناوئة للمراة ارابة ومكرا ؛ فكلما كانت النسـاء يحددن مطالبهن ويوضحنها كان المعارضون لهن يبدلون تكتيكهم ، وبدلا من ان يعلن هؤلاء على نحو سافر دونية المراة ، تنازلوا لها عن الامور المتعلقة بالقلب . فقد ابيـح للنساء الاهتمام بكل ما لا يمس مسا مباشرا مسالة السلطة . واذن لهن بممارسة رقابة ، ولكن فقط عن طريق ازواجهن . وقد رات مرغريت فولر في ذلك خطوة صغيرة الى الامام . فلئن كان هو الراس ، فخير لها ان تكون قلبه من ان تكون يده. بيد ان ذلك لا يعني ان العقدة قد انحلت . فالمراة تبقى صنيعة الرجل :

«لقد طالبت بأن تستقل المراة عن الرجل ، لا لانني اجهل الحاجة التي تخامر جنسا الى الجنس الآخر، وانما لان هذه الواقعة بالذات تؤدي لدى المراة الى خضوع متجاوز الحد يقتل دفء الحب ، ويحط الزواج ، ويحول بين الجنسين وبين ان يكونا ما ينبغي أن يكونا عليه في نظر ذاتهما» (١) .

كان النضال في سبيل حيازة انا مستقل لا مجرد انا من خلال نشاط الرجل واحدة من الموضوعات المركزية في النسوية . وقد نظرت مرغريت فولر الى هذه المشكلة من الزاوية الدينية ، من زاوية الحياة من اجل الله . لكنها كانت تريد ان يقوم الاصلاح في هذه الدنيا . فقارنت ، بسخرية ، اللجوء الى حجة ضعـف النساء الجسماني لاقصائهن عن شؤون الحكم والحياة المهنية ، بـ «اللهفة الـى فرض عمل الحقول الشاق والمضني على الزنجيات اثناء فترة الحمل ، والإلحاف على الخياطات كي يتحملن اوجاع الوضع» . وكانت توافق فوريه على افكـاره

---

١ ـ مرغريت فولر : «المراة في القرن التاسع عشر» ، نقلا من بيري ميلر : «مرغريت فولر ، الرومانسية الاميركية» ، نيويورك ١٩٦٣ ، ص ١٨٨ ، والشواهد التاليـة من الصفحات ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٤٣ ، ١٤٦ .

بصدد تربية البنات الصغيرات .

اولت مرغريت فولر اهتماما خاصا للعواقب الثقافية المترتبة على خنوع المراة. وقد لاحظت وجود ازدراء عميق للمراة لدى الرجال ..وساقت دليلا على ذلك جملا من امثال هذه : «اسرد ذلك على مسامع النساء والاطفال !» . بل ان دونية المراة منقوشة في اللغة : فالطاقة والابداع والخلق مرادفة للرجولة ، والنبـــل فضيلة مذكرة في المقام الاول . وحين تكون امراة من النساء موهوبة جدا يكال لها الثناء بتشبيهها بالرجال . وحين تطالب باحترام المراة التي فيها ينظر اليها بدهشة وعدم تصديق ـ صنيع الرجل السويدي الذي عرفته ماري ولستونكرافت .

على الصعيد التاريخي ، وضعت مرغريت فولر آمالها النسوية الاولى فـــي الثورة الفرنسية : «ما دام الرجال قد طفقوا يدركون ان الحظ لم يصطف سوى نزر يسير من الرجال ، فلا بد ان يجنحوا الى الاعتقاد ايضا بأنـــه لم يبتسم لاي امراة» . وقد لفتت الانتباه الى النتائج الحسنة التي لا بد أن تترتب على الحركة الداعية لالغاء الرق . ولئن عولت على تعاطف الرجال المشغوفين بالحرية ، فانها كانت تعلم حق العلم بالمقابل ان مؤازرة هؤلاء لا تنوب مناب تعبئة النساء .

لم تكن حياتها الخاصة ، التي غالبا ما قورنت بحيـــــاة مدام دي ستايل ، سعيدة على الاطلاق . فعلى الصعيد العاطفي املت الاثنتان أن تلقيا الرجل القادر على فهم صبواتهما ؛ وعلى الصعيد الفكري كانتا كلتاهما أسيرتي المفهوم الرومانسي عن العبقرية الحزينة ، المتوحدة ، النبيلة ، المدعوة الى أن تنير الدرب امام بشرية جاحدة . كانت مرغريت فولر تفهم وتعرف كيف تعبر عن الوهن والانهيار المأساوي لنصيرات المراة من الاشتراكيات الفرنسيات اللاتي لم يصطدمن بالافكار الاقتصادية والسياسية المنتصرة للراسمالية الاولى فحسب ، بل ايضا بأخلاق واعراف جنسية غير انسانية . وقد لاقت ، مثلها مثل شقيقاتها الفرنسيات ، ما لاقته من صنوف الهوان وسوء المعاملة بسبب وجهات نظرها الجريئة . وقد صوّرها لنا ناثانييل هوثورن بصورة «زنوبيا» في «قصة حب الوادي السعيد» ، وهنري جيمس بصورة «فربينا تارانت» في «البوسطونيين» ، وهما روايتان اشبه ما تكونان بمرثيتين لرائدة النسوية الانكليزية الكبيرة . ولكن فيما خنعت بطلتا هذين الكتابين ، رفضت «مرغريت ـ الطيف» التاريخية بعناد أن تضع السلاح : «كثيرات من النساء يدركن ما هن بحاجة اليه وما يفتقدنه ، وما يسعهن الحصول عليه اذا ما قدرن أن بهن اليه حاجة» . وبخلاف فلورا تريستان التي كانت تعتقد ان الرجل هو وحده الذي يستطيع تحرير المراة ، ارتأت مرغريت فولر أن التحرر لا يمكن ان يكون الا مـــن صنع النساء انفسهن .

هكذا يكون الرباط بين الثورة الاجتماعية وانعتاق المراة قد انعقد بقوة فـــي حوالي عام ١٨٤٠ . وتوغل عميقا في العقول والنفوس . لكن امكانيات العمل على الصعيد العملي لبثت مبهمة . وظهرت الى حيز الوجود نسوية اخرى مناوئـــة

لتلك التي تحالفت مع الاشتراكية . وكان جليا للعيان ان مصالح ومطامح بعض النساء المطالبات لانفسهن بالحرية لا تمت بصلة الى انعتاق العالم العمالي ؛ بل ان عددا منهن انكرن جازمات على النساء حق العمل . كيف كان موقف النساء بصفتهن فئة من الحركة الرامية الى اقامة مجتمع حرية ومساواة ؟ وكيف كان يسعهن العمل لتحويل المجتمع في ذلك الاتجاه ؟ انهما لمشكلتان خطيرتان من مشكلات النسوية الثورية لبثتا بلا جواب .

-٣-

تحريض جدلي

«من الحقائق المثيرة للفضول ان مسألة «الحب الحر» تسبق غيرها الى الظهور في كل حركة ثورية كبيرة» .

ف. انجلز

«اول تعارض طبقي عرفه التاريخ يتوافق مع تطور التناحر بين الرجل والمراة في الزواج الاحادي ، ويتوافق اول قمع طبقي مع قمع الجنس المذكر للجنس المؤنث . كان الزواج الاحادي خطوة كبيرة الى الامام من وجهة النظر التاريخية ؛ الا انه دشن مع الرق والثروة الخاصة مرحلة دامت حتى يومنا هذا ، وكانت فيها كل خطوة الى الامام خطوة نسبية ايضا الى الوراء ، على اعتبار ان ازدهار وتفتح بعضهم يتمان على حساب بؤس الآخرين وإحباطهم. ذلك هو الشكل الخلوي للمجتمع المتمدين الذي يمكن فيه من الان دراسة طبيعة التعارضات والتناقضات التي تحتدم كل الاحتدام في ذلك المجتمع» .

ف. انجلز «اصل الاسرة»

«لقد فقد الاقتصاد السياسي طابعه العام . فهو ما عاد يعني المجتمع . صار خدمة خاصة . المراة اضحت ربة الخدم ، ولم يعد لها من نصيب في الانتاج الاجتماعي ... ان الاسرة الفردية الحديثة قائمة على اساس الاستعباد السافر او المستتر للمراة»

علما بأن المجتمع الحديث كتلة مؤلفة من تلك الاسر الفردية التي تشبه الجزيئات . وفي الغالبية العظمى من الحالات ـ على الاقل في صفوف الطبقة المالكة اليوم ـ يكون الزوج مرغما على كسب رزق الاسرة وسد حاجاتها ، الامر الذي يبوئه بصورة آلية مركزا متفوقا ، من دون ان تكون هناك حاجة لاي القـــاب او امتيازات قانونية . فهو في داخل الاسرة «البورجوازي» ، بينما تمثـــل زوجته البروليتاريا» .

ف. انجلز : «اصل الاسرة» .

«البغاء يحط الرجل اكثر مما يحط المراة . فالبغاء لا يحط من بين النساء الا التعيسات اللائي يقعن فريسة له ... لكنه يحط العالم المذكر في جملته» .

ف. انجلز : «اصل الاسرة» .

في حوالي عام ١٨٤٠ اخلت خرافة ضلع آدم وتنهدات كلاريس الساح لبنيان مذهبي بدا وكأنه يدمج انعتاق المراة في الحركة الاشتراكية . لكن هذه الاشتراكية كانت ما تزال تنتمي الى مستقبل طوباوي بقدر او بآخر . ولم تكـن قد تقررت بصورة حتمية الصلة بين النشاط الناجم عن الوضع المادي لفئة من الفئات او طبقة من الطبقات الاجتماعية وبين اقامة مجتمع اشتراكي . وكانت كتابات نصيرات المراة الاشتراكيات تغفل الطريقة التي يمكن بها للنساء بوصفهن فئة أن ينشطن في ذلك الاتجاه . صحيح ان استرقاق المراة قد جرى التنديد به ، وان الشرط النسائي قد وصف بأنه لا يحتمل ولا يطاق ؛ وصحيح ان الوضع القائم كان يناقـــض الامكانيات التي استشفها بعضهم وبعضهن ، وانه وجدت تصورات تاريخية معينة ذهبت الى القول بأن التطور الفكري يتبع خطا صاعدا باستمرار ؛ ولكن لم تكـــن هناك اي نظرية حول طرائق وكيفيات التغييرات الاجتماعية الواجب انجازها . لقد اقترحت حلول عديدة : فقد رسمت نماذج لعالم جديد لا يعدو فيه انعتاق المراة ان يكون واحدا من مظاهر انعتاق البشرية بوجه عام . أما عن طريقة تشييد هذا العالم الجديد وعن دور النساء في ارساء أسسه ، فقد ظهرت بعض نظريات مشوبـــة بقدر او بآخر من الابهام وجرى تجريب العديد من التجارب العملية . كان عصرا سعى في كثير من الاحيان الى فك إسار نفسه من صيغ العمل التقليدية ، وراى بأم عينيه انهيار أفكار قديمة وبزوغ نظرية ثورية جديدة .

كان العنصر الجديد مطلق الجدة الذي أدخلته الماركسية في حياة القـــرن التاسع عشر هو تسليط الاضواء ، من خلال عملية برهنة جليلة ومهيبة ، على دور الطبقة الكادحة في الالغاء النهائي للراسمالية وفي خلق مجتمع شيوعي جديد . كان ماركس قد استشف على الصعيد الفلسفي منذ حوالي عام ١٨٤٠ الصلة بين

النشاطات العينية للطبقة الكادحة وبين السبيل الى تحطيم مقاومة الراسمال الخاص . فماركس يعد الطبقة الكادحة محرك تحرر الجنس البشري ، ويرى فيها صانعة انعتاق جميع الطبقات نتيجة لجهودها للسيطرة على العالم الخارجي للعمل . الا ان اضطهاد المرأة النوعي لم يكن قط موضوعا لدراسات شاملة من نوع الدراسة التي كرسها ماركس لاستغلال الشغيلة . فالشرط النسائي لم يكن يحظى باهتمامه الا بصورة عابرة . وما كان يرى في المرأة عنصرا اساسيا في التحويل الثوري للمجتمع .. لكننا نجد لديه عدة محاولات لتحليل اضطهاد المرأة ، ولسوف يسعى كل من انجلز وبيبل وغيرهما من ثوريي القرن التاسع عشر الى تركيب تلك المحاولات وتطويرها .

في أواخر القرن التاسع عشر كان النقاش بصدد طبيعة عبودية المرأة وامكانيات التحرر يستند الى معلومات ومعارف ما كانت متوفرة للرجال والنساء في عام ١٨٤٠ . كان تقدم هائل قد تحقق في مضامير جديدة نسبيا كعلم النفس الجنسي والانثروبولوجيا ، وتمت مراكمة كنز حقيقي من الاكتشافات التاريخية والسوسيولوجية . والاهم من ذلك كله ان الحركة العمالية تقدمت واتسعت ، وصارت النسوية البورجوازية تشكل تحديا لا يمكن أن يبقى بلا تأثير على تصورات النسوية الاشتراكية . وقد انعكس اثر هذا الوضع على النظرية الماركسية عن انعتاق المرأة . فقد كانت المشكلات التي تطرق اليها ماركس وانجلز تنبع من التجربة الخاصة لرأسمالية القرن التاسع عشر ومن تأثيراتها الفورية على النساء من شتى الطبقات . وكانت أفكار ماركس وانجلز في هذا المجال تتحدر من التراث الذي تخطاه الزمن للثورة الرومانسية واشتراكية اليوتوبيا . ولئن صح القول بأنه أمكن لكليهما القيام باقتحامات حاسمة وفاصلة انطلاقا من أفكار قديمة ، الا انهما احتفظا مع ذلك ببعض الآراء المسبقة للاشتراكيين الطوباويين . وتنطبق هذه الملاحظة على نظرياتهما العامة وعلى كتاباتهما عن النساء على حد سواء . وبديهي ان افكارهما عن انعتاق المرأة غير قابلة للانفصال عن مجمل نظريتهما . بيد ان مساهمتهما في دراسة استرقاق المرأة كانت مع ذلك على قدر بالغ من الاهمية قلبت معه راسا على عقب اسس النقاش الثوري ودحرت الى مملكة النسيان قسما كبيرا من البلاغة الرومانسية عن اشتراكية اليوتوبيا . صحيح ان نصوص ماركس وانجلز عن تحرير المرأة تشتمل على تناقضات عديدة. بيد ان بعض هذه التناقضات ربما يجد تفسيره في ما طرأ في داخل فكرهما بالذات من تحول في نقطة التركيز. ويعود بعضها الآخر في علته الى التعقيد الشديد للمشكلات المطروقة . لقد اعتبر ماركس وانجلز أن مسألة المرأة لها من الاهمية ما يوجب ادخال تصحيحات على وجهات نظرهما حين تبطل وقائع جديدة صحة النظريات القديمة . كانا شاهدين يقظين على قدر معين من التطورات التي ما كان يسعهما التكهن بمستتبعاتها المستقبلة . وكانا متقدمين تقدما كبيرا على زمانهما بالتقاطهما واستيعابهما الجانب النظري من وقائع كانت ما تزال رهن المستقبل .. وقد ميزا مشكلات كانا عاجزين

عن الاتيان لها بحلول شافية . ولهذا كانت الحاجة الى مراجعة تراثهما والتحقق منه تاريخيا ، والى تصفيته وتنقيته وفهمه على الصعيد النظري .

اما لو انزلنا استنتاجاتهما منزلة الحقائق النهائية فنكون قد ضربنا صفحا عن ذلك كله ، ونكون قد وضعنا ماركس وانجلز خارج اطار عصرهما . لقد كان ماركس وانجلز ، بالرغم من عمق تحليلهما التاريخي واتساع معرفتهما والتحولات التي اسهمت كتاباتهما في إحداثها ، **رجلين** ينتميان الى بورجوازية القرن التاسع عشر . ومن ثم فقد كانا يريان عالما محددا من منظار مذكر . ونحن اذ نلاحظ هذه الملاحظة لا نقصد انهما لو كانا بالمصادفة امراتين لكانا سويا تسوية نهائية مشكلة تحرر المراة . الا انهما ، بكونهما من الرجال ، ما كانا يستطيعان ادراك الشرط النسائي الا بعيون الرجال ، مثلما ما كانا يستطيعان ادراك الشرط العمالي الا بعيون رجال ينتمون الى الطبقة المتوسطة . وطريقتهما في رؤية الامور متاثرة حكما وبالضرورة بزمانهما ، بانتمائهما الطبقي ، بجنسهما ، الخ .

يطور ماركس في «مخطوطاته الاقتصادية ـ الفلسفية» لعام ١٨٤٤ موضوعة كثيرا ما وردت في كتابات اشتراكيي اليوتوبيا عن انعتاق المراة ، موضوعة لخصها فورييه في صيغة ذاعت شهرتها . نقصد العلاقة بين انعتاق المراة وتاريخ المجتمع بوجه عام :

«العلاقة المباشرة ، الطبيعية ، الضرورية ، بين الانسان والانسان ، هي **العلاقة بين الرجل والمراة** ... في هذه العلاقة يظهر بشكل **محسوس** ، محولا الى **واقعة** عيانية ، القدر الذي فيه ، بالنسبة الى الانسان ، اصبحت الماهية الانسانية **هي** الطبيعة ، او القدر الذي فيه اصبحت الطبيعة هي ماهية الانسان الانسانية . انطلاقا من هذه العلاقة يمكن اذن ان نحكم على كل مستوى ثقافة الانسان . من طابع هذه العلاقة ينجم القدر الذي اصبح به الانسان لذاته **موجودا نوعيا** ، **انسانيا** ، وادرك نفسه على هذا الشكل ... في هذه العلاقة يظهر ايضا الى اي حد اصبحت **حاجة** الانسان **انسانية** ، وبالتالي الى اي حد الانسان **الآخر** بوصفه انسانا اصبح بالنسبة له حاجة ، الى اي حد ، في وجوده الاكثر فردية ، هو في الوقت نفسه موجود اجتماعي» (١) .

الطبيعة عند ماركس ليست كيانا غامضا وخفيا . الانسان عنده جزء من الطبيعة وكائن طبيعي في آن معا . وهو في الوقت نفسه ممثل نوعه . ليست الطبيعة الانسانية اذن بشيء مغروز غرزا . فللانسان نوازع وميول طبيعية ، لكن طريقته في تلبيتها مشروطة بالارتقاء الاجتماعي والتاريخي الذي يندرج فيه الفن والاخلاق . وحين يعتبر الرجل المراة امة او شخصا يقع عليه عبء اعالته ، يتخلى

---

١ ـ كارل ماركس : «مخطوطات ١٨٤٤ : الاقتصاد السياسي والفلسفة» ، ترجمة الياس مرقص، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٧٠ ، ص ٢١٢ . «م»

عن قسم من ملكاته ، عن قدرته على تحقيق طبيعته الذاتية كموجود اجتماعي . ان التحاب بين الجنسين لا يعتبر معطى من معطيات الطبيعة . فالوعي الشخصي بالجنس الآخر انجاز تاريخي ، اسهام من قبل الانسان في خلق طبيعته الذاتية . والرجل ، بتصوره المراة كائنا انسانيا محبوباً بوعي متميز ، خطا خطوة نحو حاجة ليست بطبيعية وانما تنتمي الى الطبيعة الانسانية . ان ملكة التحويل ترتبط بعرى وثيقة بملكة التقييم والتثمين ، بالوعي . وقد راى ماركس ، حاذيا حذو فورييه، في شرط المراة المعيار التاريخي لمقدرة بني الانسان على وعي محيطهم والسيطرة عليه، ووعي ايقاع الحركة الاجتماعية التي تقود من الضرورة الى **الحرية**. وفي راي ماركس ان العلاقات القائمة بين البشر هي نتيجة «تراجع» بالقياس الى الطبيعة والى الآخرين . فالمركب الانساني في الانسان قد تحيون ، ومركبه الحيواني قد تأنسن . صار الانسان معدة ونشاطا مجردا . وظائفه الطبيعيـــة ، كالتناسل ، حيوانية بدل ان تكون انسانية . وشرط المراة يعكس هذا التشويه .

اقترح ماركس وسيلة لايقاظ الوعي الانساني قمينة بالتغلب على الاستلاب في مضمار العلاقات الاجتماعية . فالتناول الفلسفي المحض ليس ممكنا ، لان الفيلسوف لا يستطيع التفلسف الا انطلاقا من منظوره الاستلابي . وهكذا ، فان تصوره للمراة ليس الا اسقاطا لانقسامه الذاتي الباطني . ان ملكة الفهم والسيطرة والخلق يجب ان تعبر عن نفسها بنشاط عملي يرمي الى تحويل العالم ؛ وإلا فلن يفعل الانسان شيئا سوى أن يشرح ويعلل عجزه الذاتي عن الشرح والتعليل . ولا يمكن ، في التحليل الاخير ، لتملك حقيقي واصيل للطبيعة الانسانية من قبـــل الانسان وللانسان ان يتحقق تاريخيا الا عن طريق تحويل المادة التي تم الاستحواذ على ملكيتها وتحويل العلاقات الاجتماعية الناجمة عن هذه الملكية. كان وضع العامل أعم تعبير عن الاستلاب الانساني . أما أعم تعبير عن العلاقة بين المراة والرجل ، البغاء ، فلم يكن سوى شكل خاص من البغاء الكوني للعامل . والمجتمع الشيوعي هو وحده الذي يستطيع ان يضع حدا لهذا البغاء .

وبالرغم من ان مصطلح «الانسان» مستخدم هنا بمعناه العام ك «كائـــن انساني» ، فانه لا يرد ذكر البتة **لعمل تاريخي** للنساء . فالمراة هي على الـــدوام العنصر «الآخر» من العالم الخارجي كما يدركه ويفهمه ويسيطـــر عليه الرجل . ويتعذر علينا أن نرى ما الوسيلة التي يمكن بها للمراة ان تتدخل وتنشط آخذة بعين الاعتبار شكلها الخصوصي من البغاء. صحيح انها «معيار» التطور الاجتماعي، بيد انها لا تصور على انها فئة اجتماعية متحركة ، تشق طريقها نحو الوعـــي التاريخي . انما المراة بالاحرى الرمز التمثيلي للانسان في علاقاته بالطبيعة .

هذا ليس معناه ان النساء لن يجنين اي فائدة من الشيوعية . فسوف تكون لهن حصتهن من «التملك الحقيقي والاصيل للطبيعة الانسانية» الذي يغدو مـن الممكنات في المجتمع الشيوعي . وكان ماركس يرى ان تحرر المراة من التبعيـــة الاقتصادية التي تنوء بعبئها في ظل نظام الملكية الخاصة سيفتح الطريق امام علاقات

انسانية حقة . وقد عارض بقوة افكار «الشيوعيين السوقيين» الذين كانوا يريدون سحب الملكية المشاعية على النساء : فهم بسلوكهم هذا المسلك يحلون الملكية العامة ، كما قال ماركس ، محل الملكية الخاصة . وفي كلتا الحالتين تكون النساء قد أقصين عن التطور الانساني . وقد وضح انجلز تلك الفكرة في «مبادىء الشيوعية» ، مسودة «بيان الحزب الشيوعي» لعام ١٨٤٧ :

«أن مشاعية النساء علاقة لا يعرفها الا المجتمع البورجوازي ، وهي تتمثل حاليا في البغاء . غير ان البغاء يرتكز الى الملكية الفردية ، ويزول بزوالها . هذا يعني ان التنظيم الشيوعي للمجتمع سوف يقضي على مشاعية النساء بدلا من ان يغذيها» (١) .

وغني عن البيان ان مشاعية النساء كانت فزاعة البورجوازية :

«ليست امراة البورجوازي عنده سوى اداة انتاج ، وهو يسمع ان ادوات الانتاج يجب ان تكون مشتركة، فيستنتج من ذلك بالطبع ان النساء انفسهن سوف يسري عليهن ذلك . ولا يدخل في وهم البورجوازي ان المسألة هي على العكس تماما ، واننا نريد اعطاء المراة دورا غير هذا الدور الذي تقوم به الان كمجرد انتاج» (٢) .

هكذا يسخر ماركس وانجلز في «بيانهما» من مخاوف البورجوازية . يشهران بريائها واخلاقها المزدوجة . فالرجل البورجوازي يستخدم النساء كافة كما لو انهن اشياء ، ويعد زوجته ملكا له .

يقيم ماركس في «الاسرة المقدسة» علاقة بين رياء البورجوازي وبين عجزه عن ادراك الأوالية التي بفضلها يستغل النساء . وقد تم له ذلك في معرض تعليقه على الطريقة التي يعامل بها بطل «اسرار باريس» ليوجين سو خادمة له . فيوجين سو يشفق على مصيرها ولكنه لا «يتوصل الى أن يفهم أن شرط المراة في مجتمعنا هو شرط غير انساني بالمرة» . انه يعتبر «انحطاط» مثل تلك المراة نتيجة لسوء حظ شخصي ، «حادثا طارئا تاريخيا» . فردولف ينطلق من فكرة ان النساء متاحة لهن الامكانية للقيام باختيار اخلاقي في المجرد ، بصرف النظر عن شرطهن الاجتماعي الفعلي . هكذا نراه يحث فلور دي ماري على ان تصير امراة «شريفة» . فترد عليه بجد وواقعية : «شريفة ؟ قل لي بربك تجاه من تريدني ان اكون شريفة ؟» . كذلك فان الكاهن الذي يهدي فلور دي ماري لا يسمح لها بتفتيح شخصيتها ، بل يقدم لها ، اذا صح التعبير ، فلور دي ماري بديلة لتلبس لبوسها . فهذا الاختيار بين

---

١ ـ فريدريك انغلز : «تعاليم الماركسية» ، ترجمة فواز طرابلسي ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ٤٠ . «م»

٢ ـ ماركس ـ انغلز : «بيان الحزب الشيوعي» ، طبعة دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ١٢٧ . «م»

بدائل كاذبة لا يحسن في شيء وضعها الاجتماعي ولا يلقي الضـــوء على ارتباط انحطاطها بالبغاء المحتوم الذي تتعاطاه جميع البنات الصغيرات اللائي يبعن علب الثقاب في شوارع باريس . والحق ان رودولف والكاهن يجنيان كلاهما مـــن المجتمع الذي يستغل فلور دي ماري وبائعات الثقاب الصغيرات قدرا من الفوائد يحول بينهما وبين تمييز ما ينطوي عليه كلا الوضعين من وشائج مشتركة .

كان مصدر هذه الحجج فكر الاشتراكية الطوباوية ، لكنها اخذت هنا مظهرا اكثر ثقابة وارابة . وليس من سبيل الى فصلها عن مفهوم الاستلاب الذي طوّره ماركس وعن تصوره للمجتمع الشيوعي . والالحاح على مشكلة البغاء يجد علته في منظور السنوات الخمسينات من القرن التاسع عشر . ففي المجتمع المؤلف مـن طبقات ، تضارع علاقات جميع بني البشر علاقات البغي بزبائنها : فكما تبيعهـــم البغي مادة حب بديلة مقابل المال كذلك يبيع العامل عمله وحياته مقابـــل أجر . ووجود هذا الضرب من المبادلات الدنيئة يحول سائر العلاقات الانسانية الاخرى الى وهم علاقات . والحال ان البغي كانت الرمز الحي للتناقض والفساد المميزين للعلاقات الانسانية كافة .

غني عن البيان ان البغاء ، الذي كان موجودا في الارياف ايضا ، ليس ابتكارا من ابتكارات الرأسمالية ؛ لكن النمو السريع للمراكز الصناعية الكبيرة وتركز السكان الكادحين في أحياء محددة من المدينةكان من نتيجتهما تحويل طبيعة البغاء وأبعاده. كانت اسباب هذا التبدل في طبيعته ذات صفة اقتصادية بالبداهة . فقد كـان البغاء بالنسبة الى الكثيرات من الشغيلات الوسيلة الوحيدة التي تتيح لهن تدارك عدم كفاية الاجور . هكذا تم التشهير ، على الصعيدين الاجتماعي والاخلاقي ، بـ «الليبيرالية» وبـ «قانون العرض والطلب» . وكما كان البورجوازي يسقط خوفه على وضعه الذاتي على طبقة الشغيلة الصناعيين ــ الذين يغدون في نظره بهائم ، متوحشين خشني الايدي ، بدائيين شهوانيين في حالة الفطرة والطبيعة ــ كذلك كان يجعل من البغي رمز اثمه الطبقي وتبكيت ضميره الجنسي . كانت الشبح الساكن صالونه المفروش بأغلى الاثاث . كانت تكذب توكيداته الطنانة عن قدسية الاسرة والدين . وكان الزهري يتسلل الى علاقات زواجه الاحادي المرائي ، ويعرض حقوقه الزوجية للخطر ، ويقتحم قدسية حصن التنورة . وكان هـــوان فئة من النساء المواكب الضروري للتوقير الكاذب الذي كانت تحاط به زوجة البورجوازي. وكان الرجل البورجوازي يغدق على ألبغي ، التي غالبا ما كان يرى فيها صورة نساء الشرائح الدنيا من المجتمع ، كل الشهوانية التي يضن بها على زوجتـــه الشرعية .

في عام ١٨٤٠ كان مصطلح «الشبقة» يستخدم لوسم كل امراة تشعر برغبة جنسية . وكانت مثل هذه المراة تشبّه بالنساء المهجورات ، بالمومسات ، بنساء الطبقات الدنيا . وكما كان الابيض ، مالك الرقيق ، الذي رضع من ثدي نساء سود يتوجه اليهن بدلا من زوجته البيضاء لتلبية شهواته الجنسية ، كذلك كان

بورجوازي مدن القرن التاسع عشر يجري بلا توقف وراء مرضعته . وغني عن القول انه كان يكن انبل المحبة البنوية واكثرها روحانية لأمه ، التي كانت شخصية مستقلة ومتعالية على جميع الاحاسيس الجسدية . ومما كان يتردد ، حين يثور اشمئزازه ، في أن ينسب الى البغي ، الى امرأة الطبقات الدنيا ، شهوانية «طبيعية» مؤمثلة . فمذلتها كانت تتحول ، في عقل اولئك الرومانسيين ، الى لذة مرهفة وبريئة . وكانت فكرة «شيوعية فظة» تنبع مباشرة من تلك العبادة للمرأة ، الكائن المجبول بالانفعال والشهوانية . وكانت هذه الفكرة تتجاوب والتصور الرومانسي عن حالة طبيعية مفقودة كان يجسدها المتوحش النبيل ، ثم الفلاح ، واخيرا العامل .

ان ماركس ، برفضه الصورة المؤمثلة لفلور دي ماري ، يبت صلته على نحو له مغزاه ودلالته بالاشتراكية الرومانسية . فقد استشف الامكانية المتاحة لفلور دي ماري واقعية في ان تلبي شهواتها ونوازعها الانسانية في مجتمع شيوعي حقيقي . الا ان فلور دي ماري لا تفكر لسوء الحظ في تنظيم نفسها . انها تجهل التضامن . ترمز الى القمع ، ولاتبادر الى اي عمل لتحرير ذاتها . والبغاء يعد تعبيرا ثقافيا نوعيا عن الاستغلال ، شكلا خصوصيا من أشكال الاستلاب . وليست المسألة عرضاً لحالة بعض البغايا الفرديات ، وانما هي مسألة بيان الشرط النسائي والعلاقات الاجتماعية بوجه عام . وعليه ، فان تحويل العلاقات بين الرجل والمرأة سمة اساسية من سمات المجتمع الشيوعي، لكن نشاط النساء من حيث انهن نساء لا يشكل في الظاهر مساهمة فاصلة في هذه السيرورة. اما عن الطبيعة المحددة والدقيقة لهذه السيرورة فقد كان ماركس وانجلز على حد سواء يكنان للتاريخ قدرا من الاحترام حال بينهما وبين تحديدها سلفا . فما دامت الشروط المادية لاقامة المجتمع الشيوعي غير متوفرة بعد ، فان العلاقات الانسانية والثقافية لا يمكن ان تغادر مجال الفرضيات . كتب انجلز فيما بعد في «أصل الاسرة» (١٨٨٤) يقول : «هذه المسألة لا تتضمن جوابا قبل ظهور جيل من رجال لم يتعلموا قط في حياتهم ما معنى شراء الطاف امرأة بالمال او بالقوة ، وجيل من نساء لم يهبن انفسهن قط لرجل الا بدافع الحب وحده ، او ما امتنعن على عشاقهن مغبة العواقب الاقتصادية لفعلتهن » .

ان هذه التوكيدات تشكو بكل تأكيد من فرط التفاؤل حين تعزو البغاء وإذلال المراة الى العوامل الاقتصادية وحدها . فقد علمتنا التجربة ان آفة البغاء ما تزال تعيث فسادا حتى بعد تغير بُنى المؤسسات والقضاء على البؤس الاقتصادي بالصورة التي كان قائما عليها في القرن التاسع عشر . وتدل ملاحظات انجلز اللاحقة انه كان يعتبر التغييرات الاقتصادية شرطا مسبقا اساسيا يفسح في المجال للتصدي لمظاهر البغاء الثقافية والسيكولوجية . والسؤال الذي يطرح نفسه الان هو ان نعرف ما اذا كانت التغييرات البنيانية ، القمينة بأن تؤدي الى التغييرات الثقافية التي توقعها انجلز ، قابلة لان تتحقق ، بفضل مساهمة جميع اتراب فلور

دي ماري المتعاطيات للبغاء ، قبل التحويل الثوري للمجتمع . بحسب الجواب الذي يعطى لهذا السؤال ، يوضع المحراث احيانا امام الثور بحيث لا نعود نعرف هل فلور دي ماري يجرفها التاريخ ام انها هي التي تحول مجرى التاريخ .

في «الايديولوجيا الالمانية» (١٨٤٥ – ١٨٤٦) وضع ماركس وانجلز الاسس لدراسة اكثر عيانية عن الشرط النسائي بوصفه واحدا من المظاهر المتقلبة للوضع المادي عبر العصور . ومن جديد ينطلق المؤلفان من الفرضية القائلة ان علاقة الكائنات الانسانية بالطبيعة لا تؤثر على طبيعتهم الخاصة فحسب ، بل ايضا على طبيعة العلاقات المتبادلة فيما بينهم . ومدى التعديلات التي يمكن للانسان ان يحدثها في الطبيعة عبر التاريخ ينعكس في طريقة وعيه للكائنات الانسانية الاخرى: «ان الانسان ، بوعيه ضرورة التشارك مع الافراد الذين يحيطون به ، يبدأ بوعي كونه يعيش في مجتمع» . وهذا «التشارك» هو ما يتولد عنه تقسيم العمل «الذي لا يعدو ان يكون في البداية تقسيما للعمل اثناء الفعل الجنسي» . هكذا يميز المؤلفان بين تقسيم العمل القائم على اساس الجنس والاستعدادات الطبيعية والقوة الجسمانية والملكات التابعة وبين تقسيم العمل الشكلي والمؤسسي الذي يقوم اولا على اساس النشاط العقلي والمادي ، ثم على اساس الملكية . وتكمن العوامل الحاسمة للتغيرات التاريخية ، في راي المؤلفَين ، في انتاج السلع المادية التي تمكن الكائنات الانسانية من الحياة ، وفي خلق حاجات جديدة ناشئة عن تلبية الحاجات القديمة ، وفي عملية التناسل.«ان انتاج الحياة لحساب الانسان الخاص بواسطة العمل ، وانتاج الحياة الجديدة عن طريق التناسل يأخذ صفة العلاقة المزدوجة : من جهة اولى كعلاقة طبيعية ، ومن الجهة الثانية كعلاقة اجتماعية» . وعليه ، يفرض الاستنتاج نفسه بأن دراسة العلاقات الاجتماعية المتعلقة باعادة انتاج الحياة (التناسل) لا تقل اهمية من منظور تفهم الشرط الانساني عن دراسة العلاقات الاجتماعية المتعلقة بالانتاج . ولئن جعل ماركس همه دراسة العلاقات الاخيرة وحدها ، وقد تبعه الماركسيون الآخرون على هذا الطريق ، الا ان انجلز عاد الى الفكرة في «اصل الاسرة» .

«ان العامل الحاسم في التاريخ بمقتضى التصور المادي هو في التحليل الاخير انتاج واعادة انتاج ما هو ضروري ضرورة مباشرة» . ويطور انجلز هذه الفكرة فيؤكد وجوب اخذ كلا المظهرين بعين الاعتبار ، «انتاج (وسائل المعاش) من جهة ، وانتاج الكائنات الانسانية عينها ، الحفاظ على النوع من الجهة الثانية» .

انطلاقا من هذه النظرية يمحص انجلز الاطوار الاجتماعية المناظرة لشتى انماط الانتاج والتناسل . فهو يربط التغيرات الطارئة على الاسرة بالتغيرات الطارئة على ملكية وسائل الانتاج . ويخيل اليه على هذا النحو انه يكتشف علاقة بين ملكية وسائل الانتاج ، الماشية على سبيل المثال ، وبين وضع المراة في المجتمع بالمقارنة مع الرجل . ويذهب به الظن الى ان المجتمع الانساني مر بطور امومي وان المراة لم تسترد قط المكانة الغالبة التي شغلتها فيما مضى .

ان المباحث في ميدان الجيولوجيا وعلم الآثار وما قبل التاريخ والانثروبولوجيا تعود الى عهد حديث نسبيا ؛ فبدءاً من عام ١٨٦٠ فقط بدات هذه المباحث تحل محل تصدي الهواة لهذه المواد على نحو ما كان يجري في مستهل القرن التاسع عشر. وقد اصطدمت هذه المباحث بنفس المعارضة التي اصطدمت بها المفاهيم الداروينية عن الارتقاء البيولوجي ، لانه بدا وكانها تناقض سفر التكوين وتقترح تاريخا يكذب الحسابات اللاهوتية لشراح التوراة . وفي العهد الذي كان فيه انجلز يحرر مؤلفاته ، كان النقاش محتدما حول طريقة تصنيف الاكتشافات التي يعود الفضل فيها الى اعمال التنقيب في الآثار القديمة . كذلك كانت المساجلة تتناول التناظر بين الارتقاء الانثروبولوجي والارتقاء البيولوجي . الا انه سبقت ذلك بمدة لا بأس بها مناظرات حول امكانيات المستقبل الطوباوية آلت الى مناقشات حول تطورات الماضي . وقد تقدم الاشتراكيون الطوباويون في الثلاثينات والاربعينات بتفسيراتهم الخاصة للارتقاء الانساني . وكثيرا ما ساورهم الاعتقاد بوجود «عصر ذهبي» انثروبولوجي ، وابدوا آراء شخصية حول قسط حواء من مسؤولية السقوط والطرد من النعيم . ولهذا السبب بالذات وجدنا الخيال الشعبي يربط في كثير من الاحيان تلك النسوية الاشتراكية بـ «فظاعات مذهب النشوء والارتقاء».

خرج لويس هـ. مورغان على تقاليد الاشتراكية الطوباوية واتخذ من مناهج البحث الجديدة مرتكزا له ونشر في عام ١٨٧٧ «المجتمع القديم» . ويحمل الكتاب عنوانا فرعيا هو : «ابحاث في التقدم الانساني من الحالة المتوحشة الى الحضارة مرورا بالبربرية» . ويجعل مورغان نقطة انطلاقه دراسات عن هنود اميركا ، ويعيد رسم الخط الصاعد لارتقاء الانسان الانثروبولوجي . وكان انجلز يولي اهتماما خاصا لهذه الدراسات لانه كان هو وماركس قد استعرضا جميع الوقائع الانثروبولوجية المعروفة عصرئذ كي يسلطا الضوء على العلاقات المتبادلة بين البشر والطبيعة قبل الزمن التاريخي . وبعد مورغان ، برهن علماء انثروبولوجيا آخرون على أن وجهات نظر انجلز لا تخلو من نزعة تبسيطية وانه بنى نظريته على مجموعة غير كافية من المعطيات . ولئن ارتأى انجلز انه في الامكان اصدار حكم صحيح على المجتمعات القديمة انطلاقا من المجتمعات البدائية المعاصرة ، فان ذلك يشير في حد ذاته الى حدود استنباطاته . ومما عقد المشكلة واربكها ـ لسوء الحظ ـ مناظرة اكاديمية مع مدرسة النشوء والارتقاء ، واعتبارات سياسية ، ورفض كل محاولة للتوكيد على وجود روابط تاريخية بين سلوك الانسان تجاه الطبيعة وتجاه المجتمع. وفي الواقع ، حقق انجلز تركيبا قيما للمعطيات الانثروبولوجية المعروفة في عصره وقدم بالتالي لماركس ، في اواخر القرن التاسع عشر ، صورة اكثر دقة عن ما قبل تاريخ البشرية من الصورة التي كانت في متناول الحركة الاشتراكية الطوباوية . بيد اننا سنقفز فوق ما هو اساسي لو شئنا الدفاع عن التصنيف الذي انجزه انجلز دون ان نقيم وزنا لفتوحات العلم الجديدة . وفي وسعنا على كل حال ان نناقش الى ما لا نهاية عددا كبيرا من استنتاجات هذا الكاتب ، اذ انها في التحليل الاخير

غير قابلة للتحقق منها . ولئن كانت استنباطاته الانثروبولوجية غير كافية فانه لا يترتب على ذلك بصورة من الصور ان الافكار التي يفصح عنها ، وان محاولته ادراج الماركسية كما يتصورها في دراسة انثروبولوجية عن الاسرة ، تخلو من كل قيمة. ومن يرد انثروبولوجيته بحجة انه قد «فات اوانها» فانما يدلل على صلف يضارع صلف من يرفض « راسمال » ماركس بحجة ان اسسه الاقتصادية باتت بالية . فحتى لو اخذنا بالاعتبار حدود «اصل الاسرة» ، فان المسألة الاساسية ، مسألة المنهج ، تبقى مطروحة . والحجج التي قد تشرع ضد انجلز تلبس بيسر وسهولة سيماء الحجج المناوئة لكل محاولة لكشف مخططات تاريخية وعوامل التغيير . وقد اهمل علماء الانثروبولوجيا الليبيراليون مشكلة العلاقات المتبادلة بين مختلف انماط التناسل والانتاج ، وكذلك العواقب التي نجمت عن ذلك بالنسبة الى شرط المراة وتغيير تنظيم المجتمع . بل ان الماركسيين انفسهم لم يقيموا وزنا لاهمية التناسل بوصفه عنصرا مكونا للعالم المادي وعاملا تاريخيا اساسيا . وانما منذ عهد قريب فحسب تمخضت دراسة وضع الطفل في الاسرة عن انشاء علم نفس ماركسي قادر على تفسير يقظة اول وعي فردي في المجتمع ، وفي الاسرة . فمنذ ان قام فصل مكاني بين العمل الانتاجي وبين النشاط التناسلي للانجاب والاسرة ، ومنذ أن تقلص تواتر حمل النساء بفعل مضادات الحمل ، مال علماء السوسيولوجيا اكثر فأكثر الى دراسة هذين الميدانين مفصولين احدهما عن الآخر . وفي الوقت نفسه انكب علم الاجتماع الماركسي بملء طوعه على علاقات العمل اكثر من انكبابه على العلاقات العائلية . وكان ذلك كما لو ان الوعي العمالي يتطور فقط عند التماس والاحتكاك بالانتاج . وغاب عن الاذهان ان العامل يتحدر من اسرة معينة ، واننا نفهم العالم من خلال العلاقات العائلية ، واننا نصفه باللغة التي تعلمناها في المقام الاول ضمن حلقة الاسرة ، واننا ندركه بأعين اعتادت على رؤية الكائنات الانسانية الاخرى في الاسرة اولا . والحق ان النتائج التي تترتب على دراسة علاقات التناسل الاجتماعية لها اهميتها الحاسمة بالنسبة الى انشاء نظرية في الوعي . ان عددا كبيرا من المسائل التي اثارها كتابا «الايديولوجية الالمانية» و«اصل الاسرة» بحاجة الى اعادة فحصها وتمحيصها لا من منظور دوغمائي ، وانما على ضوء المعارف والخبرات المتراكمة منذ عهد تحرير هذين الكتابين . وحركة تحرير المراة تلفت على وجه التحديد الانتباه الى مجالات اهملتها النظرية الماركسية ولو أقل الاهمال .

ليس لنا ان ندهش اذ ركز ماركس وانجلز اهتمامهما على التغيرات التاريخية في البنية العائلية . ففي أوج المرحلة الفكتورية لوحظت تغيرات درامية في العلاقات بين الجنسين ، وكذلك بين الاهل والاولاد . وفي وسعنا اليوم ايضا ان نلاحظ ان التغيرات الاجتماعية في مضمار الانتاج تنعكس مباشرة على الاسرة . لقد كان عصر ماركس وانجلز عصرا اضفى طابعا مثاليا على الاسرة البورجوازية ؛ والمجموعات العائلية القوية التي تظهرها لنا لوحات اواسط القرن التاسع عشر

والصور الفوتوغرافية من أواخر القرن نفسه هي رموز ملموسة عن العهد الفكتوري. فبدءاً من منتصف القرن التاسع عشر بدت الاسرة وكأنها الملجأ الاخير لجميع الخصال الانسانية التي لم تعد تلقى من يستخدمها في الحياة العامة للعالم الراسمالي . وكانت «عذوبة البيت» و«وداعة الاكواخ» تستثيران مشاعر وعواطف اصيلة . وكان «ملاك المنزل» يقوم بعبء وظيفة تضارع تلك التي كان يقوم بها البيناتس (١) في العهود الغابرة . يتكلم فرود في «نيميسيس الايمان»(١٨٤٩) عن اولئك الرجال الذين اذا ما عادوا الى المنزل «تخلصوا من قناعهم ورموا بأدواتهم». فهم ما عادوا مكرهين على أداء الدور المفروض عليهم اثناء العمل : «اننا نعود الى علاقاتنا الاكثر انسانية» . فالبيت يحمي الرجل من العقابيل الهدامة للصراع والمزاحمة . انه المأوى الاخير الذي يسعه فيه ان يكون بكل بساطة «هو ذاته» . وما كان تصور الاسرة البورجوازية يكتفي بحبس المراة جسمانيا بين جدران بيتها الاربعة . بل كان يعزو اليها ايضا دور مؤازرة الرجل . يصف راسكن هذا الدور في «السمسم والزنابق» : «مهمتها الكبرى هي كيل الثناء !» . وهي لا تفعل شيئا بمبادرتها الخاصة . ولكن لما كان الرجل يلقى ما يلقاه من صدمات وإزعاجات وسوء معاملة بحكم «عمله الشاق في العالم» ، فانه يوفر على امراته كل تماس بهذا العالم «الذي لا يرحم» . ومقابل ذلك ، تعد له مرفأ امان وسلام . وغني عن القول ان هذا المثل الاعلى للاسرة لم يرسم قط اشارة استفهام حول ديمومة مجتمع المزاحمة . بل على النقيض من ذلك ، فقد كان يجعل الرجل أشد احتمالا للإنسانيته ، وان يكن ذلك على حساب حياة المراة اللاإنسانية . فالتنورة المنفوخة هي بمثابة وسادة لروحه المعذبة . وتطعن فلور دي ماري في زور هذا التصور عن الاسرة الذي هزأ به ماركس وانجلز في «البيان الشيوعي» .

في الطرف المقابل من السلم الاجتماعي كانت الاسرة الفقيرة تعاني من تأثير انحلال المشاعات الريفية التقليدية في أعقاب هجرة القرويين الى المراكز الصناعية الكبيرة . ولم يكن لغالبية العمال اي «مرفأ امان وسلام» ، بل كانوا ينوؤون تحت وطأة عواقب الانفجار السكاني ، وانعدام شروط الصحة العامة ، وتدني الاجور، والإنهاك الجسماني ، وسوء التغذية ، ويراود نفوسهم اغراء تعاطي المسكنات الصارفة للانتباه كالكحول والعنف والجنس الرخيص . أما نساء الطبقات الكادحة فما كن ينعمن الا بالقدر الضئيل من الحماية ، وما كن يجدن في أنفسهن ميلا الى «كيل الثناء» . وكانت العاطفة الابوية مشوهة اذ كان العمال يرون في ذريتهم «يدا عاملة» في المقام الاول . وكان الاولاد يذهبون الى الشغل في سن مبكرة ؛ وكثيرا ما كانوا يتركون اهاليهم ما ان تتوفر لهم المقدرة على كسب أود حياتهم بأنفسهم. وكانوا احيانا السند الرئيسي للاسرة اذ يعيني أهاليهم الحصول على عمل . وقد

---

١ ـ آلهة المساكن لدى الرومان . «م»

وردت اخبار عن فتيان تزوجوا وفتحوا بيوتا مستقلة منذ سن الرابعة عشرة او شبان نظموا انفسهم في عصابات للسرقة . وكان هذا الجانب من الحياة في المدن، لا شروط عمل البروليتاريين ، هو الذي يثير في كثير من الاحيان استنكار المراقبين من الطبقات المتوسطة . كان هؤلاء المراقبون يندبـون انحطاط الاسرة ، ويندون بالوقاحة واللااخلاقية وحب الزينة والبريق الخداع وروح الاستقلال لدى العاملات الشابات في المصانع . وكانوا يقيمون المعارضة بين جهلهن بخصال الزوجة وربة البيت وبين المثل الاعلى للبيت القروي . وحتى في داخل الحركة العمالية الناشئة كان بعض الرجال يرفعون اصواتهم احتجاجا على عيوب نظام المصنع ويؤكدون ان النساء هن اكثر من يعانين منه . كان هذا الموقف يمليه ، من جهة اولى ، التعاطف الواعي تجاه ضعف النساء الجسماني ، ومن الجهة الثانية ، الاقتناع الراسخ بان المراة خلقت للبيت وبانها تهدد ، اذا ما اندفعت فـي حياة العمل ، بانتـزاع الاستخدامات المتاحة من الشغيلة الذكور . ويتجلى الخوف من مساهمة العمل النسائي في تفاقم المزاحمة في سوق العمل في ملاحظات احد انصار الشارتية ، ب.ج. ريتشاردسون الذي كان قد شاهد نساء يحملن بالات قماش مبللة بالماء ، فقال شارحا لهن :

«هذا عمل رجال ! ولا ينبغي لكنّ ان تقمن بعبئه . ان مكانكن في البيت . ومهامكن ذات صفة منزلية . ومصلحتكن انما في السهر على رفاه اسرتكن وليس في اجهاد انفسكن لمراكمةثروات الآخرين الذين يحلو لكنّ علىما يبدو ، ويا لعاركن، ان تكن إماء لهم ! عليكن بالزواج ، انتن يا من ليس لهن بعد ازواج ، واجعلن الرجال يعملون بدلا منكن . اما انتن اللائي لهن ازواج واسر ، فانصرفن الى بيوتكن واسهرن على راحة عائلاتكن !» (١) .

ليس ريتشاردسون من انصار استرقاق المراة . لكنه يتشبث بالتصـور التقليدي الذي يعين للمراة دائرة نشاط خاصة بها . وهو يعتقد ان عمل المصنع والاعمال الشاقة بوجه عام تذل المراة ، وان الخلاص لا يمكن ان ياتي بالنسبة اليها الا من حق الاقتراع والتساوي في الحقوق . ولقد كان في قلب الراديكاليـة والشارتية الشعبيتين تيار قوي يستلهم الماضي . بيد ان ماركس وانجلز كانا وراء تصور مغاير جدا عن دور المراة في البيت وفي حياة العمل . ففـي «وضع الطبقة العاملة» المكتوب عام ١٨٤٤ ، يتكلم انجلز عن حمل عاملة المصنع ، وعـن استئنافها العمل بعد بضعة ايام من الانجاب ، علما بان الطفل يبقى في المنزل ، وعن عودتها ساعة العشاء . وكانت الامهات اللواتي يرضعن يتكلمن عما يلاقين من مصاعب ،ويتشكين من وجع اثدائهن . ويعرض الكتاب باناة وصبر عواقب نظام

---

١ ـ ب.ج. ريتشاردسون : «حقوق النساء» ، نقلا عن دوروثي طومبسون : «اوائل الشارتيين» لندن ١٩٧١ ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ .

المصنع وآثاره على حقائق الحياة الحميمة كالطمث او العلاقات الجنسية . صحيح ان وصف انجلز لآثار رأسمالية القرن التاسع عشر على الاسرة العمالية يبقى مقترنا بشيء من النظرة المثالية الى البيت وبذكريات الاوضاع ما قبل الرأسمالية . الا ان ذلك لا ينبغي ان يقع منا موقع الاندهاش والتعجب ، اذ ان المصادر التي يعتمدها ، راصدي الطبقات المتوسطة وشهادات العالم العمالي ، تمثل الموقفين كليهما . ويعكس انجلز ايضا راي الطبقة المتوسطة حين يرثي للعواقب الاخلاقية الناجمة عن الاختلاط الذي كان من قسمة عدد كبير من العمال والعاملات في اماكن العمل ، لكنه عاد عن هذا الرأي في وقت لاحق . بيد ان ملاحظاته الخاصة تثبت انه لا يفتش عن الحل في عودة الى الماضي . كذلك ، انه لا يعتقد بامكانية الوصول الى تغيرات على الصعيد العائلي من دون تحويل كامل للمجتمع . فحالة الهجران التي يترعرع فيها الاولاد اذا كانت الام تعمل ، والوضع الشاذ للرجل الفقير الذي لا يستطيع ان يجد عملا والذي يحس بأنه مخصي ومذل اذ يرفأ جوارب زوجته فيما تكسب هذه رزق الاسرة ، يبرهنان على ان «الجنسين كليهما القي بهما من البداية في وضع غير صحيح» . وكانت الرابطة العائلية قبل تخلئع الاسرة بفعل العمل في المصانع تقوم على ملكية الرجل الذي كان ممثلها الرئيسي . وقد طوحت التغيرات التي احدثتها الصناعة بالمقومات الاقتصادية للاسرة . وتقوضت العلاقات الشخصية بينما لبثت سائر الشروط الاجتماعية على حالها . ولم يكن هناك اي احتياط لتجليل الرجل الذي لا يعمل بعزة نفس جديدة ، فكان يشعر بكل بساطة انه مسلوب الرجولة . ويستنتج انجلز من ذلك ان قلب الادوار يحط الجنسين . وبهذا المعنى دمرت الراسمالية ، في نظره ، الاسرة العمالية . ولا بد ان انجلز ، حتى يصل الى هذا الاستنتاج ، قد اخذ براي رفيق للعاطل عن العمل المشار اليه آنفا ؛ وهذا في الوقت الذي نجهل فيه راي زوجته .

حين يتطرق ماركس في «راس المال» الى مشكلة شروط عمل الخياطات وعاملات الحرير والفسالات والمقششات وغيرهن من الشغيلات ، او الى مشكلة تأثير الآلة على تطور مختلف المهن ، يعود الى تبني موضوعة انحلال الاسرة . وينسب هذا الانحلال الى نظام المصنع والى الانفصال المادي بين البيت والعمل . فالاسرة تكف عن ان تكون وحدة انتاج وتصير وحدة استهلاك . «ان الصناعة الحديثة ، التي طوحت بالاسس الاقتصادية للاسرة التقليدية وللعمل العائلي المرتهن بها ، قد فككت الروابط العائلية التقليدية» .

هذا الانفصال بين الوظائف وهذا الارتخاء في العلاقات العائلية ترافقا بهيمنة الدولة على عدد من القطاعات : وبذلك انتفت حرمة الاسرة . وبنتيجة التحديد القانوني لمدة العمل بالنسبة الى النساء والاطفال وقانون تربية الاولاد لعام ١٨٧٠ تقلصت سلطة الاب في هذه المجالات . وقد نصت هذه التشريعات ايضا ، وان ضمنيا ، على ان للنساء والاولاد حقوقا غير «متضمنة» في حقوق رب الاسرة . ولم يصر الاعتراف بحقوق العاملة ممكنا الا بعد تسليط الضوء على الطابع اللاانساني

للعمل في المصانع وللحياة في المدن الصناعية الجديدة . وبالفعل ، ان اولئك الذين كانوا يعارضون الغاء عمل النساء في المناجم كانوا يتحججون بأنهن سبق لهن العمل في المناجم قبل ظهور المصانع ، وكانت هناك ايضا نساء يخشين ان تكون عاقبة تشريع الحماية اقصاءهن كليا عن سوق العمل . وكان ذلك احراجا قاسيا لم يغب عن ادراك ماركس . فقد ايد هذا الاخير تشريع الحماية لوضع كابح للاستغلال الراسمالي لليد العاملة العمالية . لكنه رد وجهة نظر الكثيرين من الراديكاليين الانكليز وانصار الاشتراكي الفرنسي برودون ممن كانوا يرتؤون ان عمل النساء معاكس للطبيعة . فقد كان رايه ، على العكس ، ان سيرورة انحلال الاسرة في ظل النظام الراسمالي شرط ضروري لاقامة علاقات جديدة بين الرجال والنساء ، بين الاهل والاولاد . وفي ١٨٦٦ قدم **للأممية** قرارا في صالح عمل الاولاد والنساء بشرط تنظيمه بالقوانين ، لانه كان يقدر ان العمل لا يمكن ان ينفصل عن التربية ، وانه يعود بالنفع على تفتح الشخصية الانسانية . كتب في «راس المال» يقول : «اذا كانت النتائج المباشرة [لعمل الاولاد والنساء] رهيبة ومقززة ، فان هذا العمل يساهم بالمقابل ، بتعيينه للنساء والفتيات والاولاد من كلا الجنسين حصة موفورة في عملية الانتاج خارج نطاق المنزل ، في خلق قواعد اقتصادية جديدة ضرورية لشكل اسمى للاسرة وللعلاقة بين الجنسين» .

ان هذه المحاجّة صحيحة في حال الافتراض بأن ناقوس الراسمالية قد قرع. لكن الماركسيين اعربوا في وقت لاحق عن بعض التشكك في قيمة هذا التوكيد. وقد قالوا فعلا ، استنادا الى مؤلفات انجلز الاخيرة ، ان مشاركة النساء في عملية الانتاج شرط لتحررهن . لكنهم اعتبروا هذه المشاركة امكانية تتاح للنساء لممارسة رقابتهن كشفيلات اكثر مما اعتبروها قاعدة لشكل جديد من اشكال الاسرة او لتغير في العلاقات بين الجنسين . ومفهوم لدينا تماما ان يتحفظوا تجاه الفرضية التي ترى في عمل الاولاد شرطا مسبقا لتحرر الطبقة العاملة .

تشير تتمة مقطع ماركس بجلاء الى ان المؤلف بنى حكمه على اساس استباق المجتمع الشيوعي : «من الواضح للعيان ، فوق ذلك ، ان فريق العمل الجماعي المؤلف من افراد من كلا الجنسين ومن الاعمار كافة سيكون بالضرورة ، في ظروف موائمة ، مصدرا للتفتح الانساني» . والحق ان ذلك لا يبدو بمثل هذه البداهة في ايامنا هذه ، وبعد تصرم زهاء مئة عام من الزمن . وللاخذ به لا بد ، اولا ، من تبني وجهة نظر فلسفية ترى في النشاط والتشارك والعمل وسيلةلتطوير الوجدان الانساني . واذا ما سلمنا بوجهة النظر هذه ، يتوجب علينا ـ ثانيا ـ ان نثبت ان هذا النشاط يستدعي بالضرورة مشاركة الافراد من الجنسين ومن الاعمار كافة في الانتاج . ثالثا ، لا يمكننا ان نعطي الملاحظة التي تتحدث عن توفر «ظروف موائمة» سوى هذا التاويل : «اذا لم يكن هناك اي اكراه» . فالانتاج ينبغي الا يتميز عن مفهوم اللعب . والحال انه يكاد يتعذر علينا ان نتخيل وضعا كذلك .

كان ماركس وانجلز ، بوجه عام ، بالغي الحذر في تشخيصهما ، لانهما ما كانا يضعان ثقة كبيرة في المخططات الطوباوية . بيد اننا نلاقي في مواضع متناثرة من نصوصهما ملاحظات متنوعة عن طبيعة العلاقات الجنسية في ظل نظام شيوعي . وقد كتب ماركس وانجلز ، في شبابهما ، قصائد حب مصبوغة بصبغة رومانسية. ترجم انجلز شيللي الذي كان يعجب به ، وبعث ماركس الى جيني بثلاثة مجلدات من اشعار الحب . وكانت حياة كل منهما الخاصة مختلفة أشد الاختلاف عن حياة الآخر : فقد أسس ماركس بيتا محترما ، ولكن كان له ابن غير شرعي يدعى فريدريك ؛ اما انجلز فقد عاش في اتحاد حر مع ماري بورنز ، ثم مع شقيقتها بعد وفاتها ، وكانتا كلتاهما عاملتين ارلنديتين وجمهوريتين راسختي الايمان . كان موقف ماركس وانجلز تجاه الحب يستجيب لمعتقدهما الاساسي في التطور والتفتح الانسانيين . كانا على يقين بأن الحب الجنسي الفردي سيجد تعبيرا أكمل له في ظل مجتمع شيوعي ، اذ ان مثل هذا المجتمع سيزيل الاكراهات الاقتصادية للرأسمالية وسيقضي على استلاب العلاقات الاجتماعية طراً . وكانا يعاديان عبادة المرأة وإلباسها ثوبا من المثالية وما يترتب على ذلك من اغراق وتكلف في النزعة العاطفية ، بقدر ما يعاديان المادية الميكانيكية الرامية الى اختزال جميع العلاقات الجنسية الانسانية الى مجرد حاجة جسدية . في «الاسرة المقدسة» يصور ماركس الحب باعتباره عنصرا اساسيا في تفتح الشخص الانساني . يؤكد انه كان التجربة الاولى التي اتاحت للانسان ان «يؤمن بعالم موضوعي خارج نطاق ذاته» . وكان يشتبه في أولئك الذين ينظرون الى الحب بعين الازدراء العقلي ، ويتهمهم بـ «رفض كل ما هو حي ، كل ما هو مباشر ، كل تجربة حواسية ، كل تجربة حقيقية يجهل المرء في البدء من اين جاءت والى اين ستؤدي» .

لم تكن الرأسمالية مذنبة في استغلال قوة العمل فحسب . بل استحوذت ايضا على **التجربة الحواسية** . وهذا متأت من الايديولوجيا البورجوازية ومن حياة البورجوازيين سواء بسواء . في «أصل الاسرة» يلاحظ انجلز بنبرة ساخرة ان حق الزواج من الشخص الواقع عليه الاختيار يلقى من الاحترام في صفوف الطبقة المضطهَدة ، البروليتاريا ، اكثر مما يلقاه في صفوف المضطهِدين ، لانشغال هؤلاء الاخيرين بمسؤوليتهم كملاك . ولما كان انجلز يؤمن ، مثله مثل شيللي والراديكاليين الاوائل ، بأن الحب بين الجنسين قضية اجتماعية لا تفلت من تأثير المؤسسات الاجتماعية ، فقد ذهب به الراي الى ان الزواج الاحادي قد أوجد من وجهة النظر التاريخية الشروط الضرورية لتحرر المرأة . فزواج الحب في النظرية البورجوازية حق للرجل مثلما هو حق للمرأة . لكن حقوق العشاق تابعة في الممارسة لحق الملكية . كذلك ارتأى ماركس الشاب في ١٨٤٠ ان الحب التملكي يعبر عن الرغبة في ان يكون الشريك عبدا اكثر منه شخصا انسانيا :

«الغيور هو قبل كل شيء مالك خاص» (١) .

ومع ذلك لم يستخلص لا ماركس ولا انجلز استنتاجا يقول بوجوب تقدم العلاقات الجنسية خطوة الى الامام باتجاه المضمار العام . بل على العكس ، فالشيوعية ستتيح في رايهما لكل كائن انساني حياة شخصية اغنى من تلك التي تنعم بها عليه الرأسمالية ، على اعتبار انها ستلغي التبعية الاقتصادية : «سوف تحول الشيوعية العلاقات بين الجنسين الى مسألة خاصة صرف لا تعني سوى الاشخاص المعنيين ولا تتيح للمجتمع اي فرصة للتدخل» (٢) .

في معرض الكلام عن طبيعة تلك العلاقات الجنسية الجديدة ، ينوه مؤلف «اصل الاسرة» بأن كل ما يمكن التكهن به هو فقط ما لن تكونه . فقد كان على يقين بأن الاجيال «التي لم تعرف لا الاستلاب ولا السيطرة» لن تكترث كثيرا بما يعتقد الناس اليوم ان عليها ان تفعله ، وانما سيكون لها نهجها الخاص ورايها العام في نهج كل فرد ، وهذه ستكون نهاية التاريخ» ... ومثل هذا الجيل لما ير النور بعد .

لقد خلف لنا ماركس وانجلز لمحات نظرية هامة عن تحرير طاقات المراة بوصفها كائنا انسانيا ، وعن راجعية هذا التحرر على الشيوعية . وقد ساهم كلاهما في تفهم افضل للطبيعة المحددة والدقيقة لاسترقاق المراة في القرن التاسع عشر ، سواء أعلى الصعيد الانثروبولوجي ام على الصعيد الاقتصادي . الا ان ذلك لا يبدل شيئا ـ كما تلاحظ جولييت متشل في «وضع المراة» ـ في حقيقة ان تحرر المراة يحتل مكانة ثانوية في النظرية الماركسية ، وانه تابع لتحرر الطبقة العاملة . وقد ترك ماركس وانجلز عددا لا بأس به من الاسئلة بلا جواب ، واعتبرا اكيدة بعض الافكار التي ما عادت تبدو اليوم مقبولة . لقد كانا من رجال عصرهما . وما كان يسعهما ان يتوقعا التطور الكبير في الثورة الاجتماعية ، والنتائج المثيرة للفضول الشديد التي انتهى اليها علم النفس البورجوازي ، والتقنيات الجديدة لمنع الحمل، والتيارات المشابهة لحركة تحرر المراة . لقد بقيت اسئلة اساسية بلا اجوبة . ولحلها لا يكفي شرح كتابات ماركس وانجلز عن المراة ، بل ينبغي توسيع النظرية الماركسية حتى تصير جزءا من الممارسة الثورية النسائية . هل يترتب على ذلك ان التغيرات التي ستطرأ على نظام الملكية الخاصة ستبدل تنظيم الانتاج وستؤدي بفعل الواقع الى تبديل ثوري لوضع المراة ؟ وما دام استرقاق المراة قد سبق المجتمع الرأسمالي ، فهل يمكننا أن نأمل ان الثورة التي ستحول اسس المجتمع الاقتصادية باتجاه الاشتراكية ستطال الدور الجنسي للمراة ؟ اليس من الضروري

---

١ ـ ماركس : «بوشيه والانتحار» ، نقلا عن هال درابر : «ماركس وانجلز وحركة تحرير النساء» في «الاشتراكية الاممية» ، تموز ـ آب ١٩٧٠ ، ص ٢٢ .

٢ ـ انجلز : «مبادىء الشيوعية» ، نقلا عن جيجر : «الاسرة في الاتحاد السوفياتي» ، منشورات جامعة هارفارد ١٩٦٨ ، ص ٢١ ..

ان تنظم النساء انفسهن بصفتهن نساء ، وبدالة تجاربهن الخاصة في ميدان الكفاح الثوري ضد الراسمالية ؟ وتبقى بعد ذلك مسألة معرفة الشكل الذي ينبغي أن يتلبسه مثل ذلك التنظيم حتى يكون فعالا حقا . الى اي مدى يمكن للثوري أن ينصب نفسه مدافعا عن مشاركة النساء في العمل الانتاجي ، مع علمه بأن الاعمال المحفوظة للنساء هي اكثرها كآبة واقلها مردودا ؟ ولئن ميز انجلز بجلاء القمع الخاص والنوعي الذي تقع المرأة ضحيته ولم يحجم حتى عن تشبيه المرأة بالبروليتاري والرجل بالبورجوازي ، فانه لم يضع اي مخطط يدرج النساء ك «طبقة» في مفهوم الطبقة بالمعنى الماركسي للمصطلح . ولم يكن عنده من جهة اخرى اي فكرة عن نوع العمل الذي يمكن للنساء الشروع به . كان ماركس وانجلز على حد سواء يفترضان ان النساء سيشاركن ، على نفس منوال الرجال ، في النضال في سبيل تحويل المجتمع ، مع ان وضعهن العام في المجتمع لم يكن معادلا بصورة من الصور لوضع الرجال. كانا على استعداد ، على المستوى الشخصي ، للقبول بمشاركة المرأة في العمل الثوري على أساس من المساواة التامة . وقد اخذ ماركس على عاتقه الدفاع عن الشعبة النسائية من **الاممية** . والح على نشاط النساء اثناء عامية باريس وكال الثناء لهن على بطولتهن . وما ونى يشجع تطور بناته ونشاطاتهن . وكان انجلز يحترم الروح الجمهورية والوعي البروليتاري لدى ماري وليزي ، ولم يتردد في التعلم منهما . لكن في داخل المنظمات الثورية كانت النساء يعانين من وضع دوني هو بوجه عام عين وضعهن في المجتمع . فقد كان العديد من الثوريين يعجزون ، حتى بعد ان يصيروا اشتراكيين ، عن التخلص من ازدرائهم العميق للنساء .

كانت تلك واحدة من المعضلات الكبيرة التي لم يتوفر لها حل . وكانت مثار مناقشات حادة في الحركات الثورية ، في كل مرة تطرح فيها على بساط البحث المشكلة الراهنة دوما وأبدا ، مشكلة انعتاق المرأة .

-٤-

أحلام وخيارات

«الحقيرة فعلا ليست هي البغي ، وانما هي بالاحرى المرأة التي تتزوج للمال . فهي تنال أقل مما تناله الاولى بكثير ، وتقدم بالمقابل عملا وعناية اكثر ، وتكون مرتهنة بكليتها لسيدها» .

هافلوك إليس

«لماذا لا نستطيع ، نحن الرجال والنساء ، ان نقترب من بعضنا بعضا ، وأن نساعد بعضنا بعضا بدلا من ان نقتل ارواحنا ونسمم حيواتنا ...

«حين يقترن الهوى المنسوب برباط ، تتبخر عذوبته كلها . ولعلهم على حق اولئك الذين يقولون انه لا يمكن ان توجد صداقة بين الرجل والمرأة ، لكن هذه الفكرة لا تطاق بالنسبة الي» .

اوليف شرايبر

رسائل الى هافلوك إليس

«يعلمنا التاريخ ان الطبقة المضطهدة لا تستطيع ان تتخلص من سادتها الا بجهودها الذاتية . ومن المهم ان تتمثل المرأة هذا الدرس ، وأن تعي ان حريتها ستكون على قدر الطاقة التي ستبذلها للوصول اليها » .

إيما غولدمان

«انتخاب النساء» في «الفوضوية ومقالات اخرى»

كان تحرير المراة من مواضيع الساعة في الحركات الاشتراكية الاولى في اواخر القرن التاسع عشر . ولا تعود علة ذلك الى ان الناس طفقوا يدرسون بمواظبة ماركس وانجلز . فقد كان من الصعب العثور الى عهد قريب على معظم كتاباتهما التي تعالج استرقاق المراة . لكن النساء كن يمارسن ضغطا شديدا على الحركات الجديدة ، ويفلحن في إدراج مطالبهن الخاصة في البرنامج العام للاشتراكية . وقد وضع مؤلفون آخرون من اصحاب الخط الماركسي او الفوضوي اصبعهم على العلاقة بين تحرر المراة والثورة . ولا مراء ايضا في ان منظمات ومبادرات النسوية البورجوازية ، وبخاصة في بريطانيا واميركا ، ارغمت الاشتراكيين على الانكباب على تلك المشكلة وعلى تحديد طريقتهم في تناولها .

كان هناك من البداية تنوع كبير في الاتجاهات : ففي روسيا على سبيل المثال، حيث كانت الحركة الثورية وثيقة الصلة بتحرير المراة وبالتحويل الثقافي للافراد، كانت رواية تشيرنيشفسكي «ما العمل ؟» ، الصادرة عام ١٨٦٠ ، إنجيل جيل بكامله ــ اذا صرفنا النظر عن التأثير الذي كانت جورج صاند قد مارسته على هرزن . وتروي الرواية حياة بطلة متحررة ، وقصة «اتحاد حر» رائع ، وتحولات مشغل خياطة بعد ان اخذ شكلا تعاونيا . وقد لعبت نساء من مثيلات فيرا فغنر دورا هاما ، وفي كثير من الاحيان بطوليا ، في الحركة الثورية . ولكن لم تتطور حركات نسوية في البلاد الا في وقت متأخر جدا .

في الولايات المتحدة بالمقابل ، انبثقت الحركة النسوية عن الحملة المعادية للرق ، وكانت تضم اتجاهين . أولهما اكتفى بالمطالبة بحق الاقتراع وقبل بمبدأ المساومة والتسوية ؛ ومجموعة ثانية ، وطدت قدميها في نيويورك وكان من اعضائها سوزان. ب. انطوني واليزابيت كاندي ستانتون ، كانت لا تقبل بأي حل وسط في موضوع حق الانتخاب وتدعو في الوقت نفسه الى تحرر المراة الكامل، علاوة على تعديل مؤسسة الزواج وطريقة اللبس وتنظيم العمل . وقد نشرت تلك المجموعة في عام ١٨٦٨ صحيفة باسم «الثورة» ، لم تعمر طويلا . وفي العام نفسه قدمت فكتوريا وودهول الى نيويورك . وسرعان ما غدت وجه النسوية البارز وداعية الحب الحر ، والماركسية النسوية (من ابداعها الخاص) ، والروحانية ، وعلم الكون ــ باعتباره مفتاح كل معرفة . لكن الجناح الرئيسي من النسوية الاميركية كان يتبنى موقفا اكثر حذرا واشد تحفظا . فقد كانت المحاميات عنه يجهلن ويزدرين العمل المنظم ، بالرغم من انه ظهر الى حيز الوجود ، الى جانب النشاط الاجتماعي في المراكز المدينية الكبيرة ، ضرب من النسوية الاجتماعية . وكانت الحركة الاخيرة تهدف الى تحسين شروط عمل الفتيات والنساء المستخدمات في المصانع او في المشاريع المتخصصة في استغلال اليد العاملة اكثر مما ترمي الى ربط حركة انعتاق المراة بالفكرة الاكثر عمومية ، فكرة الثورة الاجتماعية .

كانت «المسألة النسائية» تثير مناقشات كثيرة في الحركات الاشتراكية الاوروبية . في الاممية الاولى كان الفوضوي ــ الاشتراكي برودون واتباعه في

الستينات يعارضون بقوة افكار ماركس . وسرعان ما دخل برودون في نزاع مع المناضلات النسويات في الحركة الاشتراكية الفرنسية . وفي المانيا ثارت ثائرة انصار لاسال ، اثناء احد المؤتمرات في غوتا عام ١٨٧٥ ، على الجماعات شبه الماركسية التي كان يقودها بيبل . وكان بيبل قد اقترح إدراج تساوي حقوق الرجل والمرأة في البرنامج الرسمي للحزب . وقد رفض المؤتمر ذلك الاقتراح لحجة اكل الدهر عليها وشرب : الزعم بأن النساء غير مؤهلات بعد بما فيه الكفاية لممارسة حقوقهن .

كان لمؤلف بيبل ، «**المرأة والاشتراكية**» ، الذي صدر في عام ١٨٧٩ ، صدى واسع في المانيا بالرغم من ان البورجوازية الالمانية استقبلته بصيحات الويل والثبور . وقد ساهم بيبل وانجلز بصفة شخصية في تطوير حركة اشتراكية نسائية في المانيا كانت تقوم باصدار نشرتها الخاصة وتمول منظماتها الخاصة بنفسها . لكن الحزب الاشتراكي لم يدرج في برنامجه الا في عام ١٨٩١ تساوي حقوق الرجل والمرأة ،في شكل محدود ومتقيد بالقانون . ويبدو بجلاء ان تلك المسألة لم تحتل على مستوى الشعب مكانة كبيرة في دعاية الحزب . وقد عرضت آدلهيد بوب ، وهي نقابية ومناضلة في الاشتراكية ـ الديموقراطية الالمانية ، الوضع في سيرتها الذاتية :

«لم تكن لديّ اي فكرة عن «المسألة النسائية» . فما كانت صحيفتي تتحدث عنها ، بالرغم من انني لم اكن اقرأ سوى منشورات الحزب الاشتراكي ـ الديموقراطي . كنت اعامل كحالة على حدة ، وكنت اتحمل تبعة ذلك . كنت أعد المسألة الاجتماعية بقدر ما افهمها قضية تخص الرجال ، تماما كالسياسة . وكان بودي لو اكون رجلا حتى يكون لي الحق في الاهتمام بالسياسة ايضا» (١) .

واتضح لها ان الاشتراكيين ـ الديموقراطيين ، الذين كانوا يطالبون على كل حال بالمساواة في الحقوق للنساء ، لا يتقبلون فكرة ان يكون لهؤلاء الاخيرات نصيب في نشاطات الحزب . وعليه ، حين اكتشفت ذات يوم في صحيفة الحزب مقالا يندد باستغلال النساء ، اهتاجت وفاضت سعادة حتى امتنع النوم على جفونها ليلا . ولم تجد في نفسها الشجاعة للتعبير جهارا عن رأيها وللمشاركة الفعالة في النشاط الثوري الا بمناسبة انعقاد مهرجان محلي للحزب ضم ثلاثمئة رجل وتسع نساء . ومما شجعها في هذا السبيل كتاب بيبل «المرأة والاشتراكية» .

كان بيبل يعتقد مع الاشتراكيين الطوباويين ان تحرر المرأة لا يقبل انفصاما عن تحرر بني البشر جميعا من «الاضطهاد والاستغلال والحاجة والبؤس في جميع اشكالها ... «المسألة النسائية» المزعومة ليست اذن سوى جانب من جوانب المسألة الاجتماعية ... فالمسألتان كلتاهما مترابطتان بعرى وثيقة ، ولا يمكن

الوصول الى حل نهائي لهما الا مجتمعتين» (١) .

في نظر بيبل ، لم يكن هناك من حل لاي منهما الا بإقامة مجتمع اشتراكي . كان يرى ، بالفعل ، ان الشروط التي لا غنى عنها لتحرر المرأة ، أعني «تشريك» الاشغال المنزلية وحضانة الاطفال ، لا يمكن الا لنظام اشتراكي توفيرها ؛ ومن جهة اخرى يرتبط الاستغلال والسيطرة اشد الارتباط بالراسمالية التي تضطهد النساء ايضا : والحال ان ذلك لا يمكن ان يوضع له حد الا اذا طرأ تحول جوهري على البنية الاجتماعية . الا ان بيبل كان يعلم مع ذلك ان استعباد المرأة لا يعود بتاريخه الى العهد الراسمالي ، وان الشعور بالنقص عميق الجذور في روح المرأة ، وان هذا الشعور يعبر عن نفسه في المجالات التي تختلط فيها العادة والطبيعة الى حد التمازج . فالمرأة كانت «عبدة حتى قبل اختراع العبودية» . وكان يعتقد ، مثله مثل انجلز ، أن تحرر المرأة لا يمكن ان يتحقق على نحو طوباوي، بمجرد قيام ثورة . فما الثورة الا بداية : والمفروض فيها ان تشعل سيرورة انعتاق طويلة الامد ... وبالرغم من هذه الفكرة المبدئية ، لم ينح بيبل جانبا فكرة تغييرات قصيرة الامد ، ولم يتهرب من المنازعات العينية بين الرجال والنساء في اطار الراسمالية بالذات . فكل بداية لا بد من استحقاقها ! وحتى قبل البدء لا بد من انجاز مهام عدة : فبعد ان يلاحظ بيبل ان المرأة ترزح تحت عبء استغلال مزدوج، يشجعها على النضال على المستويين معا : ضد الراسمالية وضد عبوديتها الخاصة. وينضوي تحت لواء التراث الراديكالي حين يدعو المضطهَد الى العمل بلا هوادة في سبيل تحرره الذاتي . فكما انه ليس في المستطاع «إدراج» مصالح الشغيلة في مصالح ارباب العمل ، كذلك لا يمكن «إدراج» مصالح المرأة في مصالح الرجل. والحال ان النساء الثوريات ، ابتداء من ماري ولستونكرافت ووصولا الى فلورا تريستان ، لم يفعلن شيئا سوى انتظار الرجال الذين قد يتوفر لديهم الاستعداد لتحرير النساء . اما بيبل فيقدر من جهته ان الفرص قليلة لكي يتبنى الرجال كفئة وجماعة ذات يوم قضية انعتاق المرأة . فما داعيهم الى وضع حد لتبعية المرأة في الاسرة وفي المجتمع ما دامت هذه التبعية لا تعود عليهم الا بالفوائد ؟

«انهم بأدائهم دور السيد والمولى يصانعون غرورهم ، ويرعون خيلاءهم ، ويخدمون مصالحهم ، ولا يعيرون ، شأنهم شأن السادة جميعا ، كبير اذن صاغية للعقل . وهذا ما يوجد ضرورة اكبر لسعي النساء الى خلق شروط جديدة تتيح لهن أن يعتقن انفسهن بأنفسهن من وضعهن الدوني . فليس على النساء ان ينتظرن من الرجال اكثر مما ينتظر الشغيلة من الطبقات المتوسطة» .

يبين هذا المقطع بوضوح التغييرات التي ادخلتها الماركسية على الافكار الموروثة

---

١ ـ اوغست بيبل : «المرأة في الماضي والحاضر والمستقبل» ، باريس ١٨٩١ .

عن الاشتراكية الطوباوية ، وان تركت في الوقت نفسه بلا جواب معضلات عديدة اثارتها الحركات السابقة . لقد ولى أوان حض المضطهدين كفئة على النظر الى الامور نظرة اكثر معقولية واقرب الى الشفقة . فالثورة ليست محض مسالة عقل او تعاطف انساني ، بل تنطوي ايضا على المقدرة على القيام بتغييرات . ولقد ادرك ذلك قبل ماركس عدد من الراديكاليين . والارتياب الذي واجه به المصلحون الراديكاليون اوين يرجع الى اتصالاته بالاغنياء والاقوياء الذين كان يفكر بكسب مناصرتهم لقضية الفقراء . وبالمقابل ، كانت افكار ماركس تقدم اساسا نظريا وتاريخيا في غاية المتانة . ومن هنا كان توكيد بيبل على ضرورة خوض النساء معركتهن الخاصة . لكن ما كان يميز كتابات ماركس عن دعوات المتقدمين عليه الى الشفيلة لاشعال فتيل الثورة هو اسلوبه في بيان حاجة الطبقة الكادحة الى إحداث تغيير في النظام من خلال معارضتها ، من منطلق وضعها الفعلي ، النظام الراسمالي . أما حين يشير بيبل الى ضرورة نضال المراة ، فانه يبقى على مستوى الآمر **الاخلاقي** . آمر ارادي ، ممارسة حرة للارادة والقطيعة مع اليوتوبيا ليست مبرمة ولا تامة . فليس ثمة ما يشير الى الطريق الذي يمكن للنساء فيه أن يساهمن في ارساء اسس نظام اشتراكي . ويدعو بيبل ، مثله مثل رائدات النسوية السابقات له ، النساء الى فتح عيونهن لنور العقل . وهذا الموقف يتفق والمأزق النظري والعملي الذي كانت تتخبط فيه يومئذ الاشتراكية الديموقراطية الالمانية، وغياب كل مشروع يرمي الى الاستيلاء على السلطة بالثورة .

تكمن اهمية كتاب بيبل في تطبيقه المنهج التاريخي على وضع المراة الهش والمتقلقل ، وفي رفضه التملص من المشكلات الشائكة . وقد ادرج بيبل على نحو مباشر ومفتوح المشكلة النسوية في الحركة الاشتراكية :

«ثمة اشتراكيون يعارضون انعتاق المراة بمثل الشراسة التي تعارض بها الراسمالية الاشتراكية . ان كل اشتراكي يميز حالة تبعية الشفيل تجاه الراسمالي ، ولا يفهم كيف يمكن لآخرين ، وبالتحديد الراسماليين ، رفض التسليم بذلك . لكن هذا الاشتراكي عينه لا يميز في كثير من الاحيان حالة تبعية المراة تجاه الرجال ، لان هذه المسالة تمس عن كثب أناه الصغير الخاص . والحق ان الرغبة في الدفاع عن مصالح فعلية او وهمية توصف على الدوام بانها غير قابلة للمماراة فيها او للمساس بها ، تجعل الرجال كالعميان» .

ينبغي ان نقر لبيبل بالفضل في انه سلط شعاعا من الضوء ، من تلقاء نفسه، على ذلك الموضوع الذي يكتنفه الغموض . ففي العصر الذي كتب فيه كتبه ، لم يكن العمى وقفا على الثوريين وحدهم . فقد وجد على الدوام أناس لا يرون ، وسيوجد على الدوام من هم على شاكلتهم . ولم يكن هناك مناص بوجه عام من بذل مجهود خاص لحمل الاشتراكيين على النظر الى بعض المشكلات وجها لوجه. وليس هناك شيء في غير محله كالدهشة البريئة التي يبديها ماركسي من الماركسيين حين يرى استنتاجاته النظرية بالذات وقد وجدت توكيدا لها في داخل

حركته . وقد تتلبس الرفاقية ثوبا تنكريا يموه ، ولا يلغي ، معنى الانتماء الى جنس بعينه وعرق بعينه وطبقة بعينها . وكثيرا ما تستخدم الرفاقيـــة ستارا **للتظاهر** بالتخلص من الأنا الذي انتجه العالم الخارجي . وما كان بيبل ليقبل بأن تصـــير الرفاقية ذريعة : بل كان يعتقد على العكس ان التناحرات الفعلية داخل الحركـة ينبغي ان تكون موضوعا لمواجهات في منتهى الصراحة .

على ان وعي بيبل للمصالح المتناقضة والمتعاكسة التي تؤلب النساء بعضهن على بعض كان دون ذلك المستوى . فقد اهمل مشكلة المنازعات الطبقية التي تحول بين النساء وبين اعتبار انفسهن منتميات الى فئة واحدة وحيدة . ويرجع ذلك الى ان المصالح الطبقية لرائدات النسوية من الطبقتين العليا والوسطى ، وهي المصالح التي تحددت معالمها وتوضحت ابان الحرب العالمية الثانية ، ما كانت في اعـوام ١٨٨٠ و١٨٩٠ تتعارض ذلك التعارض الحاد مع مصالح النساء البروليتاريات ومع مصالح الاشتراكية . فقد كان وجه النسوية البورجوازية في ذلك العصر ما يزال وجها ذا نزعات انسانية غامضة ومبهمة ترمي الى انشاء مجتمع افضل . وقد اثارت التظاهرات اللاحقة للنسوية البورجوازية عداء مفهوما في الصفوف الاشتراكية ، وهو العداء الذي تترجم ، في شكله الاكثر شططا ، في ازدراء المرأة المنتمية الـى الطبقات المتوسطة التي يختلط عندها الرأي المسبق الجنسي والاخلاص الثوري .

وما كان يندر أن يدلل بيبل على المزيد من رحابة الافق . فقد وصف بإشفاق مصير النساء «اللائي يعاملن معاملة الدمى ، ويجعلن إماء للموضـــة» ، وأبان ان امراضهن المتواترة ترجع في علتها الى حد كبير الى الفراغ الذي يسم بميسمـــه وجودهن . وفي جميع الاقطار كانت مساهمة رائدات النسوية البورجوازية فـي الحركة الاشتراكية على قدر من الاهمية في ذلك الطور من التطور . وكانت الاهمية المعزوة الى تجربتهن الخاصة والذاتية بالاضطهاد تتويجا في ارجح الظن لنشاطهن الثوري ، وتساهم في الوقت نفسه في دفعهن الى المشاركة في الحركة الثورية .

ان أطروحة بيبل القائلة ان المسألة النسوية لا يمكن فصلها عن المسألـــة الاجتماعية في مجملها لم تقدر بعد حق قدرها :

«ان مسألة معرفة ما التدبير الذي ينبغي أن يتخذه تنظيمنا الاجتماعي حتى يتيح للمرأة ان تصير عضوا نافعا في المجتمع ، وان تنعم بنفس الحقوق التي ينعم بها سائر اعضائه ، وان تطور كامل التطوير طاقاتها ومواهبها في جميع الميادين ، مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمسألة الاخرى التالية : ما الشكل ، ما تنظيم المجتمع الذي سيستبدل الاضطهاد والاستغلال والفاقة والبؤس بجميع صوره بانسانية حرة».

ان تحرير المرأة يقتضي اقامة شكل خاص من الاشتراكية ، ينبع من تجربة النساء المسترقات . ودونية الشرط النسائي لها وجوه عدة يستدعي كل منهـــا تبدلات عديدة في المجتمع . والاشتراكية لا تعني نهاية استغلال طبقة لاخرى ، نهاية استغلال الشغيل فحسب ، بل كذلك نهاية الاستغلال في جميع ميادين الوجود والحياة . وليس في الامكان تحديد مستويات الوعي تحديدا صارما ، اذ

هنالك تقاطع بين مختلف مضامير الاضطهاد .

يقتدي بيبل بمثال ماركس وانجلز حين يضع ثقته في الارتقاء البشري وفي طاقات الانسان الكامنة . واننا لنكشف في نهاية مؤلفه مقطعا مدهشا . وقد اراد بعضهم صرف النظر عنه بحجة انقطاع صلته بمحاجّته لصالح انعتاق المراة وارتباطه بالطوباوية . فبيبل يندفع على حين غرة وبلا مقدمات في استطراد عن التربية العسفية الرامية الى تقسيم وتحديد طاقة الكائن الانساني على وعي العالم فيما حوله . ويذهب بيبل الى ان هذه التربية تندرج في اطار تقسيم العمل ، والى ان الاشتراكية مدعوة الى وضع حد لكليهما . «لن يعود هناك موسيقيون وممثلون وفنانون وعلماء بحكم الاحتراف ، وانما فقط عن طريق الاختيار التلقائي ، بحكم الموهبة والعبقرية» .

في الواقع ، لا تخرج هذه الملاحظة البتة عن خط تصوره لالغاء الفارق بين دور كل من الرجل والمراة . وبالفعل ، كان بيبل يرى ان الاشتراكية ستفضي الى تلاشي الخلية الاجتماعية الفردية المسماة بـ «الاسرة» . فسوف يحيا بنو الانسان في ظل الاشتراكية حياة مجتمعية . سوف يكون هناك عدد كبير من صالات اللعب والمطاعم المشتركة وقاعات المطالعة والمكتبات العامة وصالات الموسيقى والمسارح والمتاحف العامة وصالات الموسيقى والمسارح والمتاحف والملاعب والمتنزهات العامة. وكانت هذه الافكار تقوم على اساس القناعة المشتركة بين جميع اعضاء الحركة الاشتراكية بأن العالم الداخلي للحياة العائلية ليس هو وحده الذي سيذوب في حياة المجتمع ، بل ستزول بصورة نهائية الحدود بين العمل واللعب ، بين اللعب والتربية ، بين التربية والعمل ، بين العمل والحب ، بين الحب والعمل . وغني عن القول ان اعادة الخلق الثوري لحدود جديدة بين المضمار العام والمضمار الخاص لا يمكن ان تتم على اساس تصور ماركس وانجلز للحب . ففي راي بيبل ان المشكلة مرهون امرها بالتجريبية وحدها . على هذا النحو دارت ، بعد الثورة السوفياتية، مناقشات حول المسألة المتعلقة بمعرفة الى اي حد يتوجب تشريك الحياة الخاصة. وكانت هذه المناقشات تدخل في اطار اعم : هل ينبغي الابقاء على ثقافة ما قبل الثورة أم ينبغي استبدالها بإبداع جديد .

كانت الحركة الاشتراكية التي تطورت في بريطانيا بدءاً من ١٨٨٠ واحدة من الحركات التي لعب في داخلها انعتاق المراة دورا بالغ الاهمية . واسباب ذلك عديدة . فنضال النسويات البورجوازيات في سبيل تربية افضل للبنات وفي سبيل تحسين التشريع الساري المفعول ، ومشاركة الراديكاليين في الحملة ضد القوانين المسماة بقوانين «الحماية من الامراض السارية» وفي سبيل تحديد النسل ، وضعا حقوق المراة في نقطة المركز من مناقشة ما كان في وسع الاشتراكيين تجاهلها . فبالرغم من ان الحركة النسوية الليبيرالية في سبيل تساوي حقوق الرجل والمراة ، وهي الحركة التي كان مطلبها الرئيسي حق الانتخاب ، كانت موضوعا لدراسات عديدة ، الا انها كانت في كثير من الاحيان

عرضة للشطط في اعلاء شانها او في تسويد صفحتها . وغالبا ما كانت تصور نصيرات المراة في صورة بطلات عظيمات ونبيلات، او في صورة أمازونيات مكبوتات ومضحكات . وكانت قد طرحت للتو بعض الاسئلة الحاسمة بصدد النسوية الليبيرالية بوصفها حركة سياسية واجتماعية . وكان بيت القصيد في المقام الاول معرفة طبيعة واهمية العلاقات بين النسوية الليبيرالية وبين مختلف التجمعات الاشتراكية ، سواء أعلى صعيد الصلات الشخصية أم على صعيد وشائج الافكار. وكان من الوقائع ذات المغزى والدلالة ظهور اسرة بانكهورست (باستثناء سيلفيا) بوصفهن ممثلات للطبقة السائدة والنزعة المحافظة في الامبراطورية البريطانية قبيل الحرب العالمية . وقد تجلت القطيعة امام انظار الجميع حين اصطدمت محاولة سيلفيا ربط قضية النسوية بقضية الطبقة الكادحة بمعارضة جازمة من قبل والدتها واختها .

بين ١٨٨٠ و١٨٩٠ كان الوضع اكثر تقلقلا بكثير : فقد كانت التطاحنات اقل بروزا للانظار ، ونقاط الاتفاق اقل وضوحا . وكانت بعض مظاهر التقاليد الراديكالية والاشتراكية في بريطانيا قد اسهمت في تفهم افضل للنضال النسوي، كما جاءت بعض العوامل التاريخية التي ايقظت الاهتمام مجددا بالاشتراكية لتفسر الدور الهام الذي لعبته «المسالة النسائية» . فالاشتراكيون ما كانوا يعتمدون ، في المقام الاول ، على الحجج الاقتصادية الواردة في «الراسمال» (الذي لم تذع شهرته حتى مطلع القرن العشرين) ، وانما على الادانة الاخلاقية لاستلاب العلاقات الانسانية في المجتمع الراسمالي (وهي الادانة التي تولى صياغتها الشعراء والحركة الرومانسية والالفية وكارلايل وراسكن) . ولئن كان ماركس قد افاض في الحديث عن القرف الذي تبعثه في نفسه العواقب اللاانسانية للراسمالية على البشر بوجه عام ، فانه يربط صراحة في كتاباته اللاحقة المشكلة الاخلاقية بالمحاولة التي لا غنى عنها ولا بديل لتوفير وسائل تغيير المجتمع عن طريق تفهم افضل لاسسه التاريخية والاقتصادية . لكن لااخلاقية الراسمالية وقبحها وضيق افقها ولامعقوليتها هي التي كانت تؤجج اوار المناقشة في الاوساط الاشتراكية في حوالي العام ١٨٨٠ . وما كانت هذه الاوساط تكترث كثيرا للنظريات التنظيمية ، ولا للمعطيات الاستراتيجية ، وذلك بخلاف ما حصل فيما بعد حين بدأ تأثير لينين يفرض نفسه. ولما كان انعتاق المراة لا يزال يعد مسالة اخلاقية مرتهنة بمفهومي الوعي والارتقاء الثقافي ، فما كان يحظى بالاهتمام الا في الاطار الرحب للمواضيع التي كانت تعتبر هامة . وعلى اعتبار ان العلمانية كانت وثيقة العرى بتطور الاشتراكية ، وان الشك الديني كان يدفع بالكثيرات من نساء الطبقات المتوسطة الى الاقتراب من الافكار الاشتراكية ، فقد انطرحت اول ما انطوحت مشكلة التغييرات الروحية والمادية .

هكذا انشقت في اعقاب تلك المناقشات «اخوية الحياة الجديدة» ، التي كانت قد استقبلت العديدين من الاعضاء القدامى في «الجمعية الفابية» . وبالفعل ، كثيرا ما كانت المساجلة حول التغيرات الروحية الداخلية والتغيرات السياسية

الخارجية تنزع الى الاطلاقية، فلكأن التغيرات الاولى تنفي الثانية والعكس بالعكس. هذا مع ان اشتراكيي الساعة الاولى كانوا يميلون الى التوكيد على ضرورة كلا الضربين من التغيرات . وكان ذلك الموقف ينطوي ضمنا ، الى حد ما ، على معارضة مباشرة للاطروحات التي شدد عليها ماركس وانجلز اللهجة في كتاباتهما اللاحقة ، وقد تولد عنه تيار اشتراكي رومانسي الاستلهام . وقد ساهم مساهمة جلى في تجدد الاهتمام بمشكلة عبودية المراة ، ذلك المضمار الذي يلتقي فيه ما هو سياسي وما هو شخصي . وفي حين ان ترجمة رخيصة الثمن لـ «أصل الاسرة» لم تكن متاحة في بريطانيا الىان قام شبان «الفيدرالية الاشتراكية الديموقراطية»، الثائرون على هيدمان ، باستيراده من الولايات المتحدة في حوالي عام ١٩٠٠ ، كان كتاب بيبل يحظى برواج كبير في الدوائر الاشتراكية ويمارس عليها تأثيرا مرموقا.

بعد نشر هذا الكتاب في انكلترا عام ١٨٨٥ ، قامت إليانور ، ابنة كارل ماركس ، بالتعاون مع آفلينغ ، الرجل الذي تحيا معه ، بكتابة تلخيص له ونشرته في «الوسمنستر ريفيو» تحت عنوان «المسألة النسائية : وجهة نظر اشتراكية». وفي ذلك التلخيص ، انحى المؤلفان باللائمة على مختلف الحملات النسوية لعدم اخذها بعين الاعتبار الاسس الاقتصادية لاسترقاق النساء ولعدم تفكيرها في إحداث تغييرات جذرية في مجال العلاقات بين الجنسين وعلى مستوى المجتمع . وقد عادا الى تبني فكرة انجلز وبيبل ، فأقاما توازيا بين وضع العامل ووضع المراة :

«ان الحقيقة التي لا يراها بوضوح حتى اولئك الذين يريدون للنساء خيرا هي ان النساء هن ، نظير الطبقة الكادحة ، في وضع المضطهدات ، وانهن ، نظير العمال ، يرزحن تحت نير قمع عديم الانصاف وعديم الشفقة . انهن ضحايا طغيان الرجال المنظم ، كما ان العمال ضحايا طغيان التنابلة المنظم» (١) .

انهما يلاحظان اذن أن النساء يقاسين ، من طرف الرجال ، من قسر نوعي، ويؤكدان نظير بيبل ضرورة تنظيمهن لانفسهن :

«على الطبقات الرازحة تحت الاضطهاد ، وعلى النساء ، وعلى منتجي الخيرات ان يفهموا ان انعتاقهم لا يمكن ان يتأتى الا من جهودهم بالذات . وسوف تجد النساء حلفاء لهن بين ذوي القدر والشأن من الرجال ، مثلما سيجد الشغيلة حلفاء لهم في شخص الفلاسفة والفنانين والشعراء . لكن ليس للنساء ان يأملن شيئا من الرجال كفئة ، كما انه ليس للعمال ان يأملوا شيئا من الطبقة المتوسطة كطبقة»(٢).

---

١ ــ ا. ماركس و إ. آفلينغ : «المسألة النسائية : وجهة نظر اشتراكية» ، وسمنستر ريفيو، ١٨٨٥ ، العدد ٢٥ ، ص ٢١١ . وقد نشر ايضا في كراسة مستقلة بعنوان «المسألة النسائية» ، لندن ١٨٨٦ .

٢ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٢٢ .

يستخدم كل من إليانور ماركس وآفلينغ في حديثهما عن النساء مصطلح «الطبقة» بنفس المعنى الملتبس الذي يستخدمه به انجلز وبيبل . ومن السهل ان ندرك بجلاء ما يدينان به لهما . لكن اهمية المقال تكمن في انه يعكس رد فعل الحركة الاشتراكية الانكليزية . فالمراجع الاخرى التي يستشهد بها المؤلفان ـ شكسبير ، «اعادة الاعتبار» ، مدونات شيللي عن «الملكة ماب» ، «قصة مزرعة افريقية» لأوليف شراينر ، «بيت الدمية» لابسن ـ كثيرا ما كان يرد ذكرها على السنة الاشتراكيين المناضلين في سبيل انعتاق المرأة . وهما يلحان كثيرا على الصلة بين الاشتراكية وبين انشاء أخلاق جديدة وطراز جديد للحياة الاجتماعية . وفي ١٨٨٠ ، كان لا بد من قدر كبير من الشجاعة للدعوة الى الحرية الجنسية ، وللتنديد بالتكتم السخيف والنفاق في العلاقات الشخصية ضمن الطبقة البورجوازية . ويتفق كل من إليانور ماركس وآفلينغ على ان الزواج في المجتمع الاشتراكي سيكون قضية شخصية صرفا ؛ وبالتالي لن يكون الطلاق بذي موضوع. ويرتئيان مع انجلز ان أحادية الزواج هي الشكل الطبيعي للتشارك الجنسي ، لكنها أحادية قائمة على حرية الاختيار . ولما كانت النساء سينعمن باستقلال تام في الميادين كافة ، فسوف ينتفي البغاء بكل أشكاله : «لن يعود هناك قانون للنساء وآخر للرجال» . وسوف يسري مفعول الاخلاق الجنسية على الرجل والمرأة على حد سواء . «لن يعود هناك وجود لذلك التضليل الكريه ، لذلك الكذب المستديم الذي يجعل من معظم الاسر الانكليزية مؤسسة للرياء المنظم» .

معروف ان علاقة إليانور المأساوية بآفلينغ انتهت بانتحار إليانور . صحيح انها استشفت امكانية حياة اكثر استقامة وحب أعمق غورا ، الا انها اصطدمت ، مثلها مثل سائر النساء المشغوفات بـ «الحرية» من قبلها ومن بعدها ، باستحالة الحياة والحب باستقامة في العالم الذي كان عالمها . وبالمقابل ، لا يعرف الناس الشيء الكثير عن نشاطها في خدمة النقابات العمالية ، وعلى الاخص بين عمال موانىء الايست إند والفروع النسائية لنقابات عمال الغاز و«اتحاد العمال العام». وقد نذرت نفسها ايضا للمنظمات الاشتراكية النسائية التي شهدت تطورا كبيرا ، والتي ستلعب فيها نساء ثوريات المانيات وروسيات وايطاليات ، من امثال كلارا زتكن والكسندرا كولونتاي وانجليكا بالابانوف ، دورا متعاظم الاهمية . ولئن كانت إليانور ماركس شديدة الشغف بشيللي وبإبسن الذي تولت ترجمته الى الانكليزية، فقد كانت تعرب بذلك عن نفورها من تواري المرأة البورجوازية وشرطها الخانق على نحو ما تصوره «بيت الدمية» .

في الثمانينات والتسعينات ، كان هناك تقاطع وتداخل بين الاشتراكيين وبين اعضاء حلقة ثقافية تقدمية كانوا يعنون قبل كل شيء بما كانوا يسمونه هم انفسهم بـ «حياة جديدة» : كانوا يقصدون بذلك رفض راسمالية القرن التاسع عشر بقبحها وروحها التجارية . وكان هذا الرفض يتلبس اشكالا متباينة : فقد كان بعضهم ينتعل نعالا ، وينتسب الى البوذية ، ويقيم في منزل فلاحي ، ويزرع

بساتين البقول ، بينما كان بعضهم الآخر يختار حياة الجماعة والاتحاد الحر ، في حين كان بعضهم الثالث لا يزال يخالجه شعور بالحرج . كذلك ، كان ذلك الرفض يتترجم بالمجاهرة في تأييد «المراة الجديدة» او اطروحات إبسن . وبالرغم من ان الاشتراكيين كثيرا ما انحوا باللائمة على تلك الاوساط لتوقفها في منتصف الطريق ، وعلى تكيفها مع استغلال الطبقات الدنيا بدلا من الدعوة الى الثورة ، الا ان تأثير تلك الاوساط على الحركة الاشتراكية قد غمط في غالب الاحيان حقه . كانت المناظرة الرئيسية تنصب على المسالة المتعلقة بمعرفة الى اي مدى يمكن تغيير الشخص الانساني في اطار الراسمالية ، على اعتبار ان اشباه هذه التغيرات لا يمكن ان تتم الا بعد الثورة . كان كثير من الاشتراكيين في حوالي عام ١٨٨٠ يعتقدون ان الاصلاح الثقافي لا يمكن تحقيقا الا بعد قيام الثورة ؛ لكنهم كانوا يتصرفون على الصعيد العملي وكان ذلك التحول ينبغي ان يتم للحال وعلى نحو ملحّ وقاهر . وغالبا ما كانوا يعتبرون منظماتهم الخاصة نماذج مصغرة لمجتمع اخوي . وفي مثل هذا المناخ المناسب كانوا يدللون على حس حاد بتداخل الميدانين الخاص والعام ، النفسي والمادي ، وهو التداخل الذي كان من السمات المميزة لـ «المسألة النسائية » .

كان وليم موريس يشاطر شيللي افكاره حول الاتحاد الحر ، لانه كان يرى أن الاتحاد الحر يستبعد مظاهر الحب المصطنعة والكاذبة ، وان الصداقة يمكن أن تعقب برود الحب الجنسي . كان يريد ان يعيد الحب الرومانسي الى مكانته الطبيعية ، وهي مكانة متواضعة ومحدودة . وكان من رايه ان الحب الرومانسي قد بولغ في اهميته بعد ان قطعت اجنحة سائر اشكال التواد والتحاب . وقد تحاشى موريس صياغة قواعد بصدد العلاقات الانسانية في مجتمع الغد ، لكنه كان يراها شديدة التنوع وعظيمة المرونة . والح كثيرا على تساوي حقوق الرجال والنساء وعلى استقلال المراة المطلق . وكان يبغض روح الغيرة والتملك . ولعله كان يفوق اشتراكيي عصره جميعا بتحسسه للطبيعة الصحية والسوية للعلاقات الجنسية . هكذا امكنه ان يكتب في مؤلفه «مجتمع الغد» : «اطلب للناس في المقام الاول حياة حيوانية حرة وغير مكبوتة . اطلب الالغاء الجذري للزهد بجميع صوره . واذا كنا نعتقد اننا منقوصون لاننا عاشقون مرحون ، او لاننا عطشى او نعسى ، فما نحن في هذه الحال الا حيوانات رديئة ، وبالتالي اناس بائسون» . اما في المجتمع الاشتراكي الذي كان يحلم به ، فسوف تتم اللقاءات الشخصية بالنحو الذي كان يقدر انه طبيعي .

جاء نشر مؤلّف ادوارد كاربنتر «سن بلوغ الحب» في عام ١٨٩٦ ليسهم بقسط وفير في ترويج الفكرة القائلة بوجود صلة حميمة بين تحرر المراة والحركة الاشتراكية . وقد استند كتابه الى نظريات مورغان وانجلز وبيبل ، وطوّر افكارا كان كاربنتر قد عرضها في عدد من المقالات الهجومية والمحاضرات . وبديهي ان حياة كاربنتر وافكاره تعكس الميول التي كان يتميز بها قسم من الانتلجانسيا

التقدمية في عصره . فبعد انتقاله بين ١٨٧٠ و١٨٨٠ من الكنيسة الليبيرالية الانغليكانية (Broad Church) الى اللاادرية الاكثر جذرية ، درس لفترة من الزمن تاريخ الديانات . وقد احس بانجذاب الى الاديان الشرقية ، ولاسيما البوذية والديانة البدائية ، واهتم بالانثروبولوجيا . وفي مطلع الثمانينات انضم الى الحركة الاشتراكية . كان معجبا اشد الاعجاب بوالت وتمان وموريس وتولستوي، وانتمى الى تلك المجموعة المشتتة من المثقفين الاشتراكيين المهتمين بالمسائل الفنية والادبية والسيكولوجية والانثروبولوجية . والوجه الذي برز به كاربنتر على مدى بضع سنين هو دوره كضابط ارتباط بين الثوريين بحصر المعنى وبين اعضاء الحركة العمالية والرجال والنساء المعنيين قبل كل شيء بوضوح الرؤية على الصعيد الروحي والفكري .

كان كاربنتر يؤمن بحياة طبيعية وحرة . كان يحلو له الكلام عن «تبسيط الحياة» . وكان لا يكافح استغلال الرأسمالية الاقتصادي بقدر ما كان يحارب انحطاط الحياة الثقافية والروحية وقبحها في زمانه . وقد اتصل بمجموعة من العمال كانت على صلة بالمزرعة المشاعية التي كان راسكن قد انشأها على مقربة من شفيلد . كانوا من الاشتراكيين الطوباويين ، وقد ضاعف تأثيرهم من الشعور بالذنب الذي كان يخالج كاربنتر بسبب انتمائه الطبقي . وقد اتخذ قرارا بألا يعيش بعد ذلك اليوم طفيليا على كدح الآخرين . فاشترى قطعة من الارض وصار يبيع في سوق المدينة المنتجات التي زرعها فيها . على هذا النحو تعرّف الى الحلقة الصغيرة من اشتراكيي شفيلد الذين كانوا يجتمعون في مقهى «كومنويلث» ؛ وغدا بيته الريفي الصغير في ضاحية شفيلد مركز التقاء لضروب شتى من الناس . وكانت حياة كاربنتر الشخصية تعاني ما تعانيه من ميوله اللواطية ، لكن هذه الميول كانت ترغمه ايضا على الانكباب على بعض المشكلات المجهولة لدى معظم معاصريه من الطبقات المتوسطة . فقد كان من أوائل الكتاب الاشتراكيين الذين تناولوا بتفهم مشكلة الحاجات الجنسية لدى الجنسيين المثليين الذين سماهم بـ «الجنس الوسيط» . وبفضل صداقته مع هافلوك إليس ، اطلع على اول التمتمات التي تفوه بها علم النفس الجنسي ؛ ونراه يرجع في مدوناته الى كرافت ــ ايبنغ والبرث مول .

ان «سن بلوغ الحب» تركيب لولعه بالسيرورات الروحية الباطنية ولشغفه بالمسائل الانثروبولوجية والسيكولوجية . وقد تحمس كاربنتر للحركة النسوية التي حيا فيها يقظة وعي جديدة ومعركة في سبيل هدف محدد في آن معا . وقد سعى الى اقامة صلة بين الحركة النسوية والحركة العمالية ، بالرغم من ادراكه ان غالبية نساء الطبقة العاملة لا يكترثن تقريبا لفكرة انوثة جديدة . كان على يقين بأن المجتمع الشيوعي هو وحده الذي يستطيع ان يمنح المرأة استقلالا كاملا ، على اعتبار ان هذا الاستقلال يستوجب الاستقلال المادي للأم الفتية من دون ان تكون مرغمة على ربط مصيرها بمصير رجل . وكان يشاطر بيبل افكاره عن تشريك

الاشغال المنزلية في ظل نظام اشتراكي . وكان يرى في ذلك عنصرا اساسيا من عناصر تحرر المراة الكادحة . وكانت المشكلة في ١٨٨٠ تطرح على بساط البحث في كل مرة تثار فيها مسألة تنظيم مزارع تعاونية . وحين تصور كاربنتر ان الحب في مجتمع الغد سيكون اكثر كمالا واكثر اشباعا وتلبية ، فانه انما كان يقتفي ايضا خطى التراث الاشتراكي الطوباوي والماركسي .

لكن التأثير المرموق لـ «سن بلوغ الحب» لا يرجع الى ما تضمنه من توقعات وتنبؤات بقدر ما يرجع الى الطريقة الجديدة مطلق الجدة في عصره في تمثيل الجوانب السيكولوجية من الجنسية المؤنثة . فكاربنتر يلح على مفاعيل الحمل وعلى حاجة الاحداث الى الإعلام الجنسي . ويشير اشارة مبهمة وعقلية صرفا الى لذة المراة الجنسية عند كلامه بعبارات متكلفة عن الطابع الاندفاعي والتلقائي للطبيعة . كان يرى ان وسائل منع الحمل الدارجة عصرئذ ــ باستثناء الاستنكاف الدوري ــ غير موثوقة النتائج وبعيدة عن الطبيعة ، ويوصي بالتصعيد العاطفي . كان يدعو الى ما اسماه بـ «اتحاد الارواح» اي «الجماع المحتشم» .

ما عاد احد في ايامنا هذه يتكلم عن كاربنتر او عن كتابه «سن بلوغ الحب» . فقد شاخت لغته ، اسلوبه ، نظرياته . وتبدو لنا اليوم ذابلة وذاوية تلك النزعة الصوفية المحلاة التي فتنت الباب الكثيرين من معاصريه . أما ما تبقى منه فهو رفضه «الجازم والحازم» وضع شخص آخر «في قفص» وإلحاحه على «حرية» العلاقات الانسانية و«عفويتها» ــ بالرغم «من وجوب دفع ثمنها بالاوجاع المريرة» . وحرية كتلك لا يمكن ان تقوم لها قائمة بالنسبة الى اشخاص محرومين من الحرية الاجتماعية والاقتصادية والسيكولوجية . هكذا اوصى كاربنتر النساء بالمجاهرة بكل زهو وافتخار بكونهن «نساء حرات» :

«فليقبلن بهذا الوصف مهما امكن ان ينطوي عليه من تحقير ؛ ليلححن على حقهن في الكلام واللبس والتفكير والعمل ، وقبل كل شيء حقهن في التمتع بجنسهن على النحو الذي يحلو لهن ؛ ليواجهن الازدراء والهزء ، «ليفسدن» حياتهن اذا طاب لهن ذلك ما دام هذا هو طريق الخلاص الوحيد . ويوم تكرم «المراة الحرة» يزول البغاء » .

كان كاربنتر يرى اذن في تحرر المراة فعل التزام ثقافي بقدر ما كان يرى فيه نتيجة للثورة الاجتماعية . وارجح الظن ان هذا الجانب من نظريته هو الذي حظي بتأييد النساء . فربما كان عزاء للنفس ان يطرق الاسماع قول القائلين بأن عالما جديدا سينفتح للنساء بعد تحرير الانسانية قاطبة . لكن منظورا كهذا ما كان ليدفع بأحد الى العمل. اما كاربنتر فانه بإلحاحه على الالتزام الشخصي والاختيار الفردي كان يتوجه بنداء حار الى الوجدان النسائي : «لقد اكتفت النساء طوال حقبة طويلة بالمشاركة في حوار يقوم فيه الرجل بالدور الرئيسي ، فتخلين عن فرديتهن وساندن تنفج الذكر وانتفاضه زهوا . وعلى النساء ، حتى يستعدن الروح ، أن يحررن انفسهن بالاعتماد قبل كل شيء على جهودهن الخاصة» .

لا نعلم الشيء الكثير عن تأثير هذه الافكار في «قاعدة» الحركة الاشتراكية . وثمة نسخة من «سن بلوغ الحب» موجودة اليوم بين الاشياء التي يعرضها **المعرض** التاريخي المتنقل للحركة النقابية الانكليزية . وكانت هذه النسخة ملكا في مستهل القرن لمناضلة شابة من «فيدرالية هاكني الديموقراطية» . ولا نعرف حق المعرفة صفة الاشخاص الذين ابتاعوا بين ١٨٩٦ و١٩١٨ الطبعات المتعددة لمؤلف كاربنتر . كذلك لا نعرف اذا كان من نتيجة الافكار المعروضة فيه عن الحركة الاشتراكية ومن تأثير المناديات بحق المرأة في الاقتراع ان صارت النساء يلقين على انفسهن وعلى أترابهن في الجنس نظرة جديدة . الا اننا نجد على كل حال في مراسلات كاربنتر اشارة مثيرة للاهتمام : اذ يبدو بالفعل انه حتى النساء اللواتي كن يرفضن جوانب معينة في النسوية والانوثة الجديدة كن يضعن في قفص الاتهام اسس الزواج والاسرة وينددن برياء الاخلاق الرسمية .

هكذا كتبت امرأة تدعى اديت ا. ماكدوف في عام ١٨٩٤ الى كاربنتر بعد ان قرأت احد مقالاته الانتقادية . وكانت اشد اهتماما بالجوانب الشخصية والاجتماعية في انعتاق المرأة منها بمشكلة الاقتراع السياسية . وقد الحت في رسالتها على ضرورة التضامن النسائي الذي تحبطه «خيانة المرأة المتوسطة لجنسها وقضيتها . انني افترض ان هذه الخيانة هي من مخلفات زمن عبوديتها ، زلفى حيال طاغيتها . آه ، لو امكن للنساء أن يخلصن لانفسهن ولسائر النساء لكان في مستطاعهن نقل الجبال من اماكنها !» (١) .

لقد اثار كتاب كاربنتر سخط الكثيرين من اشتراكيي عصره . وقد توجس بعضهم خيفة من ربط مفهوم الاشتراكية بمفهوم «الحب الحر» . وارتأى بعضهم الآخر مع روبرت بلاتشفورد انه من الافضل القيام اولا بالتغييرات الاجتماعية والاقتصادية ، ثم المبادرة بعد ذلك الى فتح الباب بدون جلبة لـ «الحب الحر» وانعتاق المرأة .

ولا عجب الا تبدي النساء الثوريات استعدادا للاخذ بتلك النصيحة والامتثال لها . لقد شرحت ذات يوم انجليكا بالابانوف ، وهي اشتراكية ونسوية ايطالية ، للويزا بريانت ، وهي صحفية اميركية ، انه «يتوجب على النساء أن يخضن معركة ضارية للفوز بحرية الفكر وبالقناعة بأن الحرية أثمن من الرجل» (٢) . وهذه فكرة خطرة لا مسوغ لتعميمها ، لكنها كانت توائم النساء اللائي وعين لتوهن ضرورة انضاج الثورة الاشتراكية والتغيير الفوري للشرط النسائي . كانت نساء تلك المدرسة لا يتحملن كثيرا من المماطلة والمراوغة . وكن على درجة من التصميم ونفاد

---

١ ـ رسالة اديت ا. ماكدوف الى ادوارد كاربنتر في ١٢ ايار ١٨٩٤ في Carpenter Collection Sheffield .

٢ ـ لويزا بريانت : «ستة شهور حمر في روسيا» ، لندن ١٩١٩ ، ص ١٦٨ .

الصبر لا تسمح لهن بالاكتفاء بغامض الوعود . وكانت الذكرى الحية لمآسي الماضي مطبوعة في اذهانهن . ولئن أمكن التوكيد بأن أسلوب الحياة الشخصي للرجال العاملين في احدِ فروع الحركة الاشتراكية هو بمثابة اثبات سياسي شأنه في ذلك بالضبط شأن نظرياتهم ، وانه من المستحيل التفريق بين النظرية والممارسة ، فان هذه الحقيقة اشد انطباقا ايضا على النساء. فالنظرية والممارسة مترابطان بالنسبة اليهن ترابطا مأساويا : ولم تكن ابنة ماركس هي وحدها التي خبرت صحة ذلك !

كانت واحدة من صديقات إليانور ماركس الحميمات ، اوليف شراينر ، تنتمي الى حلقة كاربنتر . كانت قد نشأت في افريقيا الجنوبية ، وسردت في روايتها «قصة مزرعة افريقية» مراهقة فتاة رفضت بحمية الدور المحفوظ تقليديا للنساء. ويخالج المرء احساس بأن قصتها اقرب ما تكون الى سيرة ذاتية . وعند وصولها الى بريطانيا بعد أن تصرم من عمرها خمسة وعشرون عاما تعرفت عن طريق هافلوك إليس ـ الذي جمعها به فاصل حب قصير ما لبث أن تحول فيما بعد الى صداقة دائمة ـ الى كاربنتر وحلقته من المثقفين الذين قرنوا التزامهم السياسي بتجربة اسلوب جديد للحياة .

ليس من السهل تصنيف أفكار اوليف شراينر في ابواب . وقد بقي العديد من مبادهاتها ناقصا وغير مكتمل . وقد وصف كاربنتر في سيرته الذاتية ، «ايامي واحلامي» ، التناقضات الداخلية لطبيعتها و«سرعة حركتها والمرح الظاهر في افعالها واقوالها» و«التصميم الشرس الذي يختبىء وراءها» و«تشاؤمها الذي لا يمكن استئصال جذوره» . وكان التزامها بقضية تحرير المرأة ميلا عاما لكيانها وحياتها اكثر منه قرارا سياسيا . وقد وجدت نفسها مكرهة ، بحكم عجزها عن حد مفهومها عن التحرر بالاصلاح السياسي وحده ، على مواجهة التناقض المأساوي للانعتاق . ولما كان يساورها شعور بأن «الداء أعمق من ان يكتفى بوضع الرجال موضع اتهام ومن ان يتدارك شره بإصلاح حق الاقتراع» (١) ، فقد وقفت على الدوام ، والىحد ما ، على هامش الحركة النسوية . كذلك نأت بنفسها بحياتها وبأفكارها معا عن اليسار المنظم ، بالرغم من انها ناضلت ابتداء من ١٨٨٠ في صفوف بعض الجماعات الاشتراكية وساهمت بحكم ذلك مساهمة فعالة في الحملة المناوئة لحرب البوير . وقد عرضت أفكارها عن العلاقات بين الرجال والنساء في شكل حكاية تصوفية : «ثلاثة أحلام في الصحراء» . وقد وصفت في واحدة من تلك القصص الرجل والمرأة وقد جمع بينهما جامع الالم .

لقد عانت في حياتها الشخصية آلاما مبرحة على الصعيد العاطفي ، كانت تشلها احيانا شللا تاما . في ١٨٨٥ كتبت الى هافلوك إليس : «الحياة معركة دائمة ينبغي ان نخوضها بهدوء ومثابرة» . كانت تشاطر جميع نساء عصرها

---

١ ـ ادوارد كاربنتر : «ايامي واحلامي» ، لندن ١٩١٨ ، ص ٢٣١ .

اللائي رفضن المواضعات السياسية والاجتماعية والجنسية عزلتهن الفكرية ويأسهن العاطفي وامراضهن وتوترهن العصبي . عجزت عن تعرف نفسها في الحركة النسوية للثمانينات والتسعينات ، وكانت تنفر نفورا شديدا من الخجل والخفر ومن مراعاة الاعتبارات الاجتماعية ومن التنازلات للعالم ، التي كانت تجد تعبيرها في «حقوق النساء» . كانت اهتماماتها أرحب مدى من ذلك واكثر ثورية . كانت تريد ان تعرف لماذا تشعر بالتوتر الشديد قبل الطمث ، ولم تتوصل الى نتيجة . كانت إليانور ماركس الشخص الوحيد القادر على ان يناقش معها تلك المشكلات . وكانت جنسيتها تقلق بالها . فقد انتبهت ، اثناء تجربة لها مع احد الرجال ، الى ان بها ميولا مازوخية قوية ، ودرست بإرشاد هافلوك إليس جميع مؤلفات علم النفس الجنسي المعروفة عصرئذ . كانت اوليف شراينر تحرص ايضا على معرفة الاحاسيس والاستعدادات الفعلية لدى نساء اخريات عشن تجارب مغايرة لتجاربها. وكانت تدون مذكرات عن نساء افريقيا الجنوبية ، وموسمات لندن ، وعاملات مصانع لانكشاير اللائي كانت تراقبهن لكي تكوّن لنفسها فكرة أصدق عن وضعهن.

في سعيها الدائب الى اكتشاف «المرأة» ، انقطع اهتمامها بأنوثتها الخاصة التي كانت تحس احساسا حادا بحدودها . كان يخالجها انطباع بأنها لا تستجيب شخصيا للعديد من السمات المميزة لنساء عصرها . وكانت في فتوتها قد تمنت لو تكون صبيا ؛ وتحلم بطلة روايتها «من رجل الى رجل» حلما : «حبذا لو كانت رجلا ! تصورت نفسها غلاما ، فأحست بجسمها يقوى ويشتد عودا ويأخذ مظهر جسم مذكر . انفتح لها عالم من الحرية ، سقطت القيود والاغلال ، ففي وسعها ان تقوم بالاعمال كافة ، من دون ان يذكرها اي قانون بأن هذه الاشياء او تلك وقف على النساء !» (١) .

كانت الهوة ما تزال عميقة بين توكيد كرامة المرأة وبين الامل بالنسبة الى النساء في تحقيق هذه الكرامة على صعيد الحياة العملية . كتبت في ١٨٨٥ الى هافلوك إليس : «رهيب ان يكون الانسان امرأة . لم أكن امرأة حقا قط ، بالرغم من انني غدوت كإمرأة» . وبصفتها «امرأة حرة» كانت شبه مكرهة على التنازل عن بعض جوانب أنوثتها . وفي معرض كفاحها ضد التمييزات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، لاحظت ان دورها الجنسي التقليدي لا يتفق والتحرر الذي تنادي به على أصعدة اخرى . لكن الهرطقة الجنسية كانت تهدد بأن تسد عليها الطريق الى سائر النشاطات الاخرى ، وكانت تشعر بعزلة فعلية بين النساء. وكان من ضمن الحلول أن تلجم وتراقب جنسيتها الذاتية وأن تعزف عن بناء أسرة. والطريق الذي اختارته اوليف شراينر قادها الى عقد صلات صوفية مع نساء أخريات ، كانت واسطة اتصالها بهن تجربة الألم المشتركة . كان يخيل اليها انه

---

١ ـ نقلا عن د. ل. هوبمان : «اوليف شراينر ، اصدقاؤها وعصرها» ، لندن ١٩٥٥ ، ص٨٥ .

من المستحيل المضي الى ابعد من ذلك وتجاوز المازوخية كتعبير عن الوعي النسائي.

في ١٩٠٨ عبرت في رسالة الى فرانسز سميث عن تعاطفها مع المستنخبات الانكليزيات اللائي اكرهن بالقوة على تناول الطعام في السجن :

«رق قلبي حين فكرت بتلك الفتاة الصغيرة بسبب الآلام التي تنتظرها في ارجح الظن . لقد فعلت كل شيء المساعدة على تحرر النساء ، ولكن واأسفاه ! ما فعلته قليل قليل . سوف تتصرم اجيال قبل ان نصير حرات حقا ونعانق بأنظارنا عالما هو لنا بقدر ما انه للرجال ... انت تعلمين انني كنت احس ، وأنا فتاة وطفلة ، انني في غاية التعاسة لانني امراة ولانني ارى نساء اخريات في العالم . كنت أشارك في الراي تلك المراة السوداء المدهشة التي قالت لي ذات يوم : «يمكن ان يكون لله وجود . لا اقول ان الله غير موجود . لكن اذا كان موجودا ، فليس برحيم ـ لماذا خلق المراة ؟» (١) .

في كتابها «المراة والعمل» الصادر عام ١٩١١ ، عبرت عن الامل في أن تضع حياة اكثر امتلاء بالنشاط حدا لدور «الطفيلي» المقضي به على النساء . وكررت التنويه بالمصاعب التي تعترض تحرر المراة وبعمق عبوديتها . لكن محاجّتها جاءت تلك المرة تاريخية اكثر منها صوفية خارج الزمان . فقد ربطت السيرورة التاريخية المتمثلة في رفض المراة صاحبة الامتيازات لعالم العمل وطفيليتها الجنسية الناجمة عن تلك السيرورة بـ «الطفيلية الطبقية» ـ طبقة تعيش من عمل طبقة اخرى . ولا تختلف وجهات نظرها اختلافا كبيرا عن وجهات نظر انجلز وبيبل . ولا يكمن الاختلاف في النظريات بقدر ما يكمن في طريقة عرضها . فأوليف شراينر تزين محاجّتها بلمسات حية وشخصية . هكذا تصف ، في معرض تنديدها بنفاق رجال الطبقات العليا الذين يحظرون على نسائهم المنفذ الى الحياة المهنية ، «المنظّر المتعجرف التسامح» ، القابع امام مدفأة الصالون ، بصداريته الساطعة البياض ، وبثوبه الذي يشد قامته شدا ، وهو يطنب في الحديث عن دور المراة كمنجبة . انه ليخيل الينا اننا نراه بأم أعيننا ، ذلك «المنظّر المتعجرف التسامح» ؛ ولا ريب في ان اوليف شراينر عرفت عددا كبيرا من أمثاله . وبكل خبث ترسله الى السرير: «لا شيء أصلح من السرير لاعادة المنظّرين الى أحجام اكثر انسانية» . وتلاحظ انه عندما يستيقظ في اليوم التالي فلن يقول لـ «سندريلا العجوز التي تنهض فيما لا يزال هو نائما كي تعد له الشاي وتصبغ حذاءه» : «ايتها المنجبة الالهية ، يا أم العرق البشري كله ! لماذا تنظفين حذائي او تأتين لي بالشاي ؟» (٢) . ان المنظّر لا يعارض نظاما اجتماعيا يجبر النساء المراهقات على العمل بدلا منه وهو يعجز عن ادراك الرباط بين الخادمة التي شاخت قبل الاوان ، المراة والام المعروقة،

---

١ ـ س.ك. كرونرايت ـ شراينر : «رسائل اوليف شراينر» ، لندن ١٩٢٥ ، ص ٢٨٠ .

٢ ـ اوليف شراينر : «المراة والعمل» ، لندن ١٩١١ ، ص ٢٠١ ـ ٢٠٣ .

المسحوقة بالعمل ، التي تكوي قمصانه ، ام الغد التي تفني صحتها وشبابها في مشغل مستغل من المستغلين ، وبين شخصه المدلل العزيز ، يعجز عن ادراك ذلك عجز بورجوازي عام ١٨٤٠ عن رؤية العلاقة بين مصير فلور دي ماري وبين شرط المرأة العام . وما مفهوم الانوثة كما هو ظاهر للعيان سوى اسقاط للفكرة الباطلة التي يصطنعها الرجل لنفسه عن المرأة . فهو يرى انه من الطبيعي ان تغسل المرأة له الارض . لكنه يصدر حكمه بأن المرأة الطبيبة او المرأة العاملة في مكتب تعاكس «الانوثة» . وفي الواقع ، انه لا يتحمل فكرة استقلال امراته بالذات عنه بواسطة عملها . انه لا يعارض عمل النساء ، بل يعارض العمل الذي يدر على المرأة اجرا محترما ونزرا يسيرا من اوقات الفراغ .

في الوقت الذي نددت فيه اوليف شراينر بالطابع المتناقض لتمييز البورجوازي بين عالمي المرأة المختلفين تمام الاختلاف ، تقف عاجزة عن استنباط المصالح المشتركة لذينك الصنفين من النساء : المرأة الشغيلة والمرأة الطفيلية . كذلك لا يمكننا ان نتبين ما الوسيلة التي يمكن بها تغيير طبيعة العمل بالنسبة الى النساء كافة . وحين تغادر ذلك الميدان وقد شارفت على نهاية كتابها ، تأذن لمخيلتها بأن تقدم لنا وصفا رؤيويا للفردوس ، وهنا بالضبط يكمن ضعف معالجتها: فقدرتها على التمييز والاستيعاب تفيدها ، عند الاقتضاء ، في اخفاء عجزها عن التحليل وعن اقتراح حلول .

في عام ١٨٨٩ قدمت الى نيويورك من روسيا بطريق البحر إيما غولدمان ، وليس معها من المتاع سوى خرج وماكنة خياطة . ولم تمض سنوات قلائل حتى صبت الصحافة قدرا هائلا من حممها على «إيما الحمراء» ، فاذا بها تتحول في الخيال الشعبي الى فزاعة الفوضوية . ولكن بين الفينة والفينة كانت صورة أخرى لإيما تشق الحجب ... ففي ١٩٠٨ اشارت الـ «سانت لويز ميرر» بالكلمات التالية الى ثورتها : «الحلم هو الواقع الذي نفذ السير للقائه ... سلام وجمال كوني ، تلك هي ايما غولدمان ، ابنة الحلم» (١) .

صدر كتابها «الفوضوية ومقالات أخرى» في نيويورك سنة ١٩١٠ . وفي العديد من مقالاتها هذه اثارت مشكلة تحرر المرأة . وتلتقي الانتقادات التي وجهتها الى الحركة النسوية مع انتقادات اوليف شراينر . وهي لا تكتفي بالتنديد بضيق أفكار تلك الحركة بصدد التغييرات الضرورية ، بل تأخذ عليها ايضا عدم تفهمها فيما يتعلق بالكفاح العمالي . انها ترفض رفضها للجنس ونزوعها الى الربط بين الانعتاق والعزوبة . ولا تشرئب بناظريها الى مفهوم عن التحرر يقترح على المرأة المنعتقة دور «العذراء» . بل تدعو الى انعتاق «يتيح للمرأة ان تكون انسانية بأصدق معاني الكلمة . فكل ما يصبو في روحها الى توكيد شخصيتها والى النشاط ينبغي

---

١ ــ نقلا عن ريشارد درينون : «ثائرة في الفردوس» ، شيكاغو ١٩٦١ ، ص ٢٩ .

ان يعبر عن نفسه بحرية ، ولا بد من الاطاحة بجميع الحواجز الاصطناعية ومن تنظيف طريق الحرية من مخلفات عصور الذل والعبودية» (١) .

كان هذا الالتزام بقضية تحرر المرأة مرتبطا ، مثلما هو ظاهر للعيان ، بفوضوية ايما غولدمان . كانت ايما قد تعرضت لتأثيرات عديدة ، بما فيها تأثيرات كاربنتر وهافلوك إليس وإبسن ، لكن فكرها النسوي كان يندرج في الخط العام لقناعاتها السياسية . فقد كانت الحركة الفوضوية عصرئذ تنزع حتى اكثر من الحركة الاشتراكية الى التحقيق الفوري للمثل العليا لمجتمع المستقبل . وكان ذلك في غاية المشقة بالنسبة الى امرأة ! تستعرض ايما غولدمان المشكلات التي تصطدم بها امرأة حرة في علاقاتها مع الرجال : «ان الرجل المتوسط ، المليء بالرضى عن نفسه ، الذي يتكلف على نحو مضحك سيماء حامي الجنس المؤنث ، لهو شخصية لا تطاق ... ولا يطاق ايضا الرجل الذي لا يرى في المرأة سوى عقليتها وملكاتها، من غير ان يوقظ طبيعتها المؤنثة» . وقد عرفت ايما غولدمان ، في حياتها ، هذين النمطين من الرجال . والحق ان محاولة المرء ان يعيش من الان كما سيعيش فيما بعد لهي عملية ابداع ثقافي . فبصدد حركة «حقوق النساء» تبدي الملاحظة الانتقادية التالية : «تتخيل اولئك النسوة انه حسبهن ان يتحررن من الطغيان الخارجي . اما الطغاة الباطنيون الذين يغلون الحياة ويعيقون تفتحها اكثر بكثير ـ أقصد بهم المواضعات الاجتماعية ـ ففي اعتقادهن ان كل شيء سيتسوى من تلقاء نفسه . على رسلهن ، لقد تسوى كل شيء فعلا من تلقاء نفسه !» .

بالرغم من ارابة هذه الملاحظة وبالرغم من انها تصحح الفكرة التبسيطية عن تغيير محض دستوري ، يحدث لإيما غولدمان المأخوذة بجوانب التحرر الشخصية والذاتية الصرف أن تسهو عن دور الاصلاحات الجزئية فيه مثل اقتراع النساء والشروط الحالية والمباشرة ويقظة الوعي النسائي . ان التحرر في نظرها **فعل ارادة** . والخط الذي تسير فيه يشبه خط كاربنتر . فعلى المرأة الحرة ان تظهر حريتها وأن تجاهر بها . وتذهب ايما غولدمان الى ابعد من ذلك : فهي تعلن ان المرأة المتحررة ينبغي ان تؤكد ذاتها «كشخصية لا كبضاعة جنسية» . عليها ان ترفض إنجاب الاطفال اذا لم تكن تلك رغبتها . عليها أن ترفض خدمة الله ، الدولة، المجتمع ، الزوج ، الاسرة ، الخ ... عليها ان تزدري بـ «الرأي العام والاستهجان العام» . وكانت مثل هذه المطالب مجاوزة للحد في عام ١٩١٠ ! كانت بعض صاحبات الشكيمة والبسالة من امثالها قادرات على ذلك ، لكن الرهان بالنسبة الى غالبية النساء كان أهم واخطر من ان يجازفن بتحدي المواضعات الاجتماعية .

---

١ ـ ايما غولدمان : «الفوضوية ومقالات اخرى» ، نيويورك ١٩١٠ ، ص ٢٢٠ ، والشواهد التالية من الصفحات ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢١٧ .

كانت ايما غولدمان تؤمن بقدرة جميع النساء على الاندفاع مثلها ، بلا هوادة ، في مواقف محفوفة بالاخطار . وكانت حميتها الطهرانية تحول بينها وبين أن تتصور انه يمكن لبعض الاشخاص ان يتعلقوا بأفكار معينة وان يرفضوا في الوقت نفسه وضعها موضع التطبيق في حياتهم ، ولو كره الكارهون ، كما اعتادت هي ان تفعل. اما في الواقع ، فقد كانت «بنات الحلم» يقفن بحذر موقف الترقب والانتظار . كن يتكلمن عن حق الانتخاب لا عن تحررهن كما تتصوره ايما غولدمان او اوليف شراينر او كارل ماركس .

هذا لا ينفي على كل حال ان الماركسية والحركة الثورية التي تطورت في أواخر القرن التاسع عشر أثرتا بالغ التأثير في اطر المساجلة حول العلاقة بين تحرر المراة والثورة الاشتراكية . وانما ضمن نطاق هذه المساجلة دارت في عام ١٩٢٠ مناقشات عديدة في الاتحاد السوفياتي . والى ذلك الماضي رجعت ولا تزال ترجع الى اليوم النساء المناضلات في اطار الحركات الثورية التي خلفت حركات القرن التاسع عشر ، وان اختلفت الظروف والاماكن اختلافا شديدا . والحق انه لا غنى عن ملازمة الاعتدال بين تبنٍ غير مشروط للتراث وبين نبذه ورفضه بحجة نواقصه . ان شعورا بالأمان والاطمئنان يخالج المرء اذا ما استسلم ليقين ظاهري متدثر بدثار المعتقد الثابت . وهو يتظاهر في هذه الحال بأنه لا يرى الشقوق والصدوع التي لا تتفق مع المجموع ، ولكن التي مثها يأتيه النور : والحال انه لا بديل عن النظر اليها بمجابهة وعن مواجهة النور !

تبقى بعض الاسئلة مطروحة : فبالاستناد الى اي قاعدة والى اي طريقة يمكن للنساء ان يعملن كفئة على خدة لانجاز التغييرات الثورية ؟ هل ينبغي أن يرتكز العمل الى المنطق الداخلي لشرط المراة الاجتماعي ـ التاريخي ؟ الى اي مدى يمكن للنساء ان يؤلفن فئة لها مصالح مشتركة ؟ ما تجارب القمع النوعية التي لحقت بالنساء كنساء ؟ هل هناك وجود لمثل هذه التجارب ؟ اذا كان الجواب بالايجاب ، فما السبيل الى ادراجها في النضال الثوري ؟ بأي معنى يستدعي مفهوم المجتمع الشيوعي تحرر المراة ؟ الى اي حد تجسد المجتمعات الاشتراكية القائمة هذا المفهوم ؟ بأي صورة يمكن للنساء ان يشاركن مشاركة فعالة في الحركة الثورية ؟ واخيرا : هل يمكن ترجمة تجربة الالم الشخصية والانفعالية بمفردات سياسية ، ام ان الرؤية المأساوية للاشياء هي العزاء الوحيد لـ «بنات الحلم» ؟

اكدت ايما غولدمان ان تساوي الرجل والمراة في الحقوق مسالة «عدل واستقامة» ، لكن «الحق الاكثر حيوية هو الحق في أن نحِب ونحَب» . والحال ان المراة الثورية تعلم بحق ان العالم الذي تريد تثويره يكاد يجعل بحكم المتعذر اي حب بين اناس متساوين . ومن سخرية الاقدار الغريبة اننا ما نزال الى اليوم نلفت الانظار الى تناقضاتنا المأساوية . فما يمكن ان يوحد النساء برسم العمل هو ، في المقام الاول ، الشعور بالعار او بالالم الذي يستولي عليهن حين يجدن انفسهن

يعاملن معاملة «الشيء» و«البضاعة» .

ان عملنا ينبع مباشرة من شعورنا بأن الحب الذي نهبه ونتلقاه هو حب مشوه. والمطلوب ان نحدد في الوقت الحاضر الشروط التي ستجعل ممكنا في الغد ما هو متعذر اليوم .

ان ممارستنا للالم ضرب من الجدلية يزدع في النفس البلبلة .

-٥-

الخبز والورود

«تعالوا الي ايها الفتيان الغادرون ، انتم يا من تركتموني هنا أجهش بالبكاء ،
فالعشب المسحوق تحت اقدامنا ، سيعاود النبت في حينه».

« بذور الحب »
موشح انكليزي قديم ترجع صيغته المكتوبة الاولى الى القرن السابع عشر .

«ما أتعس مصير كل امرأة ، دوما مقيدة ، ابدا محبوسة ، اهلها سجانوها حتى زواجها ، وبعد ذلك عبدة زوجها حتى آخر ايامها » .

اغنية شعبية
ترجع صيغتها المكتوبة الاولى الى القرن الثامن عشر

«المراة التي تتربع مكانة الصدارة اليوم هي المراة القوية ، المخلصة ، المأساوية ، التي تعرف كيف تموت كما تحب ، والتي هي من ذلك العرق النقي والكريم الذي ما يزال ، منذ ١٧٨٩ ، ينبض حيا في الاعماق الشعبية . ان رفيقة العمل تريد المشاركة

ايضا في الموت ... انها لا تمسك زوجها ، بل تدفع به على العكس الى القتال ، وتحمل اليه في الخنادق الثياب النظيفة والحساء ؛ مثلما كانت تفعل ذلك في ورشة العمل . الكثيرات لا يردن العودة ، فيحملن البندقية ...» .

ليساغاري

«لجان ماري يدان قويتان
يدان كالحتان دبغهما الصيف

... ...

اصابعهما الشحوب ، يا لروعتهما
تحت الشمس الساطعة المنبأة بالحب» .

رامبو

«ايا تكن معركتك
فلا تعودي الى دور السيدة ...» .

نقابية اميركية ، «الام» جونز .

«يؤكد هذا الرجل انه ينبغي مد يد المساعدة للمرأة كي تصعد الى عربة ، كي تجتاز حفرة ، وانه ينبغي ان تحفظ لها في كل مكان خير الاماكن . لم يساعدني انسان قط على الصعود الى عربة ، على اجتياز بقعة موحلة ، ولم يترك لي انسان قط خير الاماكن ... افلست بعد كل شيء امرأة ؟ انظروا اليّ ! انظروا الى ذراعيّ ! لقد قدت المحراث ، زرعت ، خزنت المحاصيل ، وليس يسع اي رجل ان يبقيني تحت وصايته ... افلست مع ذلك امرأة ؟» .

سوجورنر تروث : خطاب امام جمعية حقوق المرأة ، اوهيو ، الولايات المتحدة ، ١٨٥١ .

«ها نحن نسير في جمال النهار :
مليون مطبخ معتم ، الف قاعة مصنع يلفها الدخان
تضيء فجأة بشعاع شمس منير
اذ يسمعنا الناس ننشد : نريد خبزا ووردا ! خبزا ووردا !

ها نحن نسير مكافحات من اجل الرجال ايضا ،
فهم أبناء نساء ، وسندللهم من جديد .
لا نبالي اذا كانت حياتنا خشنة من اليوم الاول الى الاخير ؛
فالقلوب تجوع كالاجسام؛ اعطونا خبزا، ولكن اعطونا ايضا وروداً !

ها نحن نسير ! الوف من النساء الميتات يطلبن باكيات في اغانينا،
كما في الماضي ، خبزا .
أرواحهن المرهقة لم تعرف لا الفن ولا الحب ولا الجمال ؛
أجل ، نكافح حتى نحصل على خبز ... وكذلك على ورود .

ها نحن نسير آتيات لكم بأيام مجيدات ؛
فصعود النساء صعود للعرق كله .
لا بهائم كادحة بعد اليوم ولا متبطرون ، عشرة كائنات بشريـــة
تكدح حتى يستريح كائن واحد ،
بل لنتشاطر مباهج الحياة : لنتقاسم الخبز والورود !» .

جيمس اوبنهايمر
قصيدة مستوحاة من يافطات كان يحملها موكب عاملات صبايا في ١٩١٢ في لاورنس ، ماساشوسيتس ، اثناء اضراب عمال صناعة النسيج .

لا يتعلم الجميع في الكتب . كثير من السير الذاتية لم تكتب قط . وثمـة عالم كامل من التجارب التي عاشتها نساء لم تتوفر لهن ملكة النبوة ، ولم يعرفن امتياز التربية الحسنة ، وما كن يقرأن روايات ، ولم يسمعن قط بالمدن الفاضلة الطوباوية التي لا يحصى لها عد والتي تعدهن بالحرية ، ولم تعرض على أفهامهن قط النظريات الماركسية او الفوضوية . ذلك العالم هو الاصعب على الاستحضار، والاشق على الإحياء . ومع ذلك فان العديد من الاسئلة بدأت تتلقى بداية جواب بفضل التيارات التي قامت بينه وبين افكار النسوية الثورية . ان الشعب الصامت والغفل ، الجاهل والمجهول ، يأنف من المثول في التاريخ «الرسمي» الذي يستقبل على الاخص أولئك الذين يمسكون بمقاليد السلطة في العالم بصورته التي يتبدى بها لنا . وينبغي ان تكون احدى المهام الاساسيـــة للحركة النسوية الثوريـــة استكشاف ماضي نساء الشعب ، أولئك اللائي لم يكترث لهن احـــد قط بسبب وضعهن الاجتماعي وجنسهن . وهنا نطرق ميدانا لم نتخط الا بعد لأي عتبته : اذ لا تتوفر لنا سوى معرفة سطحية بالاحداث التي تركت بصمتها في أولئك النسوة. الا اننا نشهد مع ذلك تكوّنا تدريجيا لوعي جذري ، وفي نتائجه الاخيرة ، ثوري ،

ونتبين بجلاء الافعال المطلبية والمنظمات التي تدين بوجودها لشرطها النسائي النموذجي . وفي وسعنا كذلك أن نتحسس المشكلات الخاصة التي تواجهها النساء نتيجة لذلك النشاط ، والمقاومة التي أبدتها النساء على الدوام تجاه كل تغيير ، والقدرية الراسخة الجذور التي تعبر عن نفسها في الاغنية الشعبية والتي اجتازت الانقلابات الاقتصادية والسياسية الدرامية لراسمالية القرن التاسع عشر ولبثت من بعدها على قيد الحياة ! وسهل علينا أن نتبين الدورة المأساوية لذلك التسلسل القدري : الحب ، زوال الحب ، اللقاء ، الفراق ، الولادة ، الفرح ، الغم ، الالم . الحياة ، الموت ... وغالبا ما أماطت الحركات السياسية الثورية اللثام عن عجزها عن الاحاطة بهذه الوقائع عن كثب .

تواجه المراة الرجل على الصعيد الفردي . والفارق الجوهري بين الرجل والمراة يتمثل في حرية الاول وعبودية الثانية . وما يجعل المراة في هذه الحال اسيرة ، ويوجه وعيها هو التكرار الخانع لما كان بالامس :

سيقبلونك وسيغازلونك
وسيقصون عليك من الاكاذيب اكثر
مما في راسك من شعر يا عزيزتي
أو مما في كبد السماء من نجوم (١) .

تحذر الفتيات الجميلات من اغواء صب عاطفتهن كلها على «شجرة صفصاف خضراء» ، رمز الحب الرومانسي : فلا ورود بلا أشواك !

«أعطاني عسلا مخلوطا بالحنظل ،
اغرقني بالاقوال والأيمان ،
اعطاني ثوبا هفهافا ،
منسوجا بالهموم وموشى بالخوف» .

وثمن اللذة بالنسبة الى المراة هو الإنجاب :

«طالما كانت حبال مئزري مدلاة ،
كان يتبعني في البرد والثلج ؛
أما وقد صارت حبال مئزري الان قصيرة ،
فانه يمر ببيتي من دون أن يدخل ...»

انها لا تعرف كيف تتخلص من حب بلا أمل . فتسأل :

أعليّ أن ابقى سجينة وهو طليق ؟

تلك هي أغاني فتيات أسلسن لانفسهن القياد ، واستسلمن للذة في عتمة ليل الحب ؛ فتيات سريعات التصديق ، أخذن بوعود المسافر الجميل ، انتظرن جنودا غابوا الى الابد ، نشر احباؤهن القلاع ، ووجدن انفسهن وحيدات في مواجهة

---

١ ـ أ.ل. لويد : «الاغنية الشعبية في انكلترا» ، لندن ١٩٦٧ ، ص ١٩٠-١٩٣ .

حملهن . وطفقت بعضهن يساومن شأن ابنة آيلنتون ، و«أيديهـــن على باب بيت المؤونة» . وفي بعض الاحيان كن يجدن لهن حليفات : فزوجة الطحان والخادمة التي يحاصرها بملاطفاته تتبادلان فراشهما ويجامع الطحان امراته . وفي جامايكا لعبن اللعبة ذاتها على رجل ابيض مالك للعبيد . وفي احيان اخرى يحاولن الافلات ولو لهنيهة من الزمن من إسار انوثتهن : يتنكرن في ثياب غلمان ــ مثل بولـــي اوليفر ــ ويتطوعن في الجيش للقاء رجل من جديد ، او لمضاجعة عشيقهن المجند بالقوة في البحرية :

«ابتسم احيانا ، وانا انزع سروالي ، اذ افكر بانني انام مع مئة رجل ، انـا التي لا تعدو ان تكون فتاة» (١) .

ولكن مقابل كل واحدة من نظيرات بولي (في الواقع كانت تدعى حنة سنيل ، وقد تطوعت كبحارة في جزر الآنتيل) او ماري ديد ، المراة ــ القرصان ، كان هناك الآلاف من النساء اللائي لم يفلتن من إسارهن قط ، ولم يكن لهن اي رغبة في ذلك، بل ما كن يفكرن بتنظيم حياتهن الخاصة ، وبالسيطرة على الاحداث ، وبالخروج على روتين الماضي . كانت محنة النساء كامنة في الطبيعة وحدها . وكانت النساء يعين ذلك ، لكن هذا الوعي ما كان يعبر عن نفسه في تأملات حول المستقبل او كيفية التأثير على العالم . بل كان يتمثل بعلم نسائي دفاعي في الجوهر والاساس. فقبل اتقان وسائل منع الحمل ونشرها على نطاق واسع ، كان يستحيل على النساء التحكم بحياتهن الجنسية .

ولدت تجربة **العمل الجماعي** من دور المراة كمستهلكة : فقد كان سعر الخبز، اساس قوت الفقير ، هو الاهم من كل شيء آخر . ولما كان نظام النقل والمواصلات بدائيا ، فقد كان كل شيء منوطا بالتموين المحلي . كان الحصاد الهزيل يتسبب في ندرة المنتوج وتخزينه وارتفاع الاسعار . وكان النظام الوحيد الذي يمارس الشعب عن طريقه الرقابة على التوزيع هو «الثورة القمحية» وما يتمخض عنها في غالب الاحيان من تثبيت للاسعار . هكذا يروى لنا انه في عام ١٨١٢ في نوتنغهام :

«قامت بضع نساء من تورنكالف آللي بنصب رغيف من الخبز بقيمة نصف فلس على مركب صيد بعد تخضيبه بمغرة حمراء واحاطته بعصابة من النسيـــج الاسود (رمزا ، على ما يقال لنا ، الى «المجاعة الدامية المتشحة بقماش خشن») ؛ وبفضل رفع هذا الشعار ومعه ثلاثة اجراس صغيرة تدق اثنين منها امراة ويدق الثالث غلام ، احتشد جمهور كبير ، غالبيته من النساء » (٢) .

طلب الجمهور ان يحدد سعر الطحين بستة بنسات للستون الواحد (٦ر٣٤٨

---

١ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٢٦ .

٢ ــ يوميات بوتنغهام ، نقلا عن جو اوبريان : «النساء والاطفال في حياة الطبقة العاملة فـــي القرن التاسع عشر» ، وثائق غير منشورة مقدمة من «مؤتمر تحرير النساء» .

كغ) . وصار المثل قدوة : فسرعان ما تجمع السكان في جميع احياء المدينة . وقد حملت احدى الجماعات على كرسي امراة تدعى «الليدي لود» كانت تصدر الاوامر. وكانت هذه التظاهرات طقسية من طرف ، وسياسية من الطرف الآخر . كانت نتيجة منطقية لدور المراة في الاسرة . وكان تنظيمها تشاركيا خالصا . ولم يكن يترتب عليها اي التزام شكلي طويل الامد ، كالتزام الانتماء الى نقابة او الى حزب. كذلك لم تكن «نسوية» سافرة . لكن طبيعة تلك التحركات تبدلت في مجرى القرن التاسع عشر بسبب ظهور اشكال جديدة للعمل السياسي . وفي فرنسا بوجه خاص اغتنى النشاط النسائي التقليدي ، الذي كان غرضه الدائم مشكلات تتعلق بالاستهلاك ، بعناصر وافكار ثورية ، ولكنه تأثر ايضا بالنسوية الشعبية الناشئة التي كانت تنتشر كبقعة الزيت في الشوارع والنوادي .

إبان الشهور السابقة للزحف على فرساي ، نفد صبر النساء وتذمرن وانحين باللائمة على الرجال لقلة نجعهم وفاعليتهم . فقد كانت مشكلة الخبز تعنيهن مباشرة . في ايلول اعترضن سبيل قافلة تموينية وحاصرن دار البلدية . وفي ٥ تشرين الاول اندلعت نار الفتنة في عدد من الاسواق الكبيرة . في ضاحية سان انطوان تزعمت نساء الحركة ـ بائعات ، صاحبات مسامك ، عاملات سرن جنبا الى جنب مع بورجوازيات متأنقات الملبس . وفي ١٧٩٢ و١٧٩٣ هاجمت غسالات ضاحية سان انطوان محال البقالة . وبالرغم من ان النساء شاركن ايضا في بعض العمليات العسكرية كالاستيلاء على الباستيل ، وكذلك في التظاهرات السياسية، كان النشاط الذي دللن عليه أضأل قدرا بكثير . من منظور فردي كانت بعض النساء من أمثال كونستانس إفرار ، وهي طاهية اعتقلت اثناء تظاهرة في شان دي مارس ، يعين اتم الوعي المدلول السياسي للتظاهرات والعرائض . لكن النساء كن ينشطن ، بوجه عام ، لدوافع اقتصادية لها صلة بمسؤوليتهن كربات بيوت . ولم يتبدل هذا الموقف تقريبا إبان فترة القلاقل الثورية اللاحقة . ان تاريخ العمل الشعبي إبان أحداث ١٨٤٨ لما يكتب بعد . لكن النساء ، اثناء عامية باريس في ١٨٧١ ، تظاهرن من جديد مطالبات بتحديد الاسعار وناهبات البقاليات . وليس في ذلك ما يدعو الى الدهشة ، لان النساء هن اللواتي كن يقفن في صفوف طويلة للشراء . وتصف لنا اغنية شعبية هذه المطاردة اليائسة للمنتجات الغذائية :

لا دكان ، ولا مخزن
لديه شيء يقدمه
اينما ذهبت ، واي باب قرعت
فعبثا ،
حتى الحطب لا تجده (١) .

---

١ ـ نقلا عن اديت توماس : «المنفطات» ، باريس . (والمنفطات اسم أطلق اثناء عامية باريس على النساء اللاتي استخدمن النفط لتأجيج الحرائق . «م») .

ينبغي ان نذكر ايضا ان عنصرا اضافيا كان يدفع بالنساء الى العمل في ١٨٧١ : ذكرى اعمال جماعية بادرت اليها نساء أخريات . هكذا وضعت موضع تنفيذ مثلا في آذار ١٨٧١ فكرة زحف جديد للنساء على فرساي للمطالبة بوقف سفك الدماء . بياتريس إكسكون ، ابنة ساعاتي ومحظية عامل طباعة ، قالت لأمها انها راحلة ، وقبلت اطفالها ، وانضمت الى الموكب في ساحة الكونكورد . كان عدد النساء هناك يتراوح بين ٧٠٠ و٨٠٠ امراة . ولم يكن احد على معرفة بالاهداف المحددة للمشروع ، لكن هذه الاهداف كانت اقرب الى السياسة منها الى الاقتصاد بحصر معنى الكلمة :

« قال بعض الاشخاص ان الهدف هو ان يشرح لفرساي ما ترغب فيه باريس. واستذكر آخرون ما كان جرى قبل مئة عام حين ذهبت نساء باريس الى فرساي لخطف الخباز وابن الخباز ، كما كان يقال يومئذ » (١) .

هكذا انطرحت مسألة دور المراة . وقد قامت مشادة بين أولئك الذين يعتقدون ان اقصى ما بوسع النساء هو المطالبة بالسلم وبين أولئك الذين يعتقدون بأن من واجبهن ، نظير الرجال ، الدفاع عن وطنهن . ولئن صح أن النساء اندفعن في العمل ، فلقد فعلن ذلك بدافع اهتماماتهن التقليدية بالاحرى . وقد استوحين اعتبارات مماثلة حين تقدمن ، اثناء عامية باريس ، على راس رجالهن للقاء العساكر وهن يصحن : «أتجرؤون على اطلاق النار على نساء ؟ على اشقائكم ، ازواجنا ؟ على اطفالنا ؟ » .

كانت جميع تلك النشاطات تخضع للتعريف التقليدي لـ «الانوثة» . صحيح ان الافكار السياسية الثورية طالت ايضا أولئك النسوة اللائي بادرن الى العمل مستلهمات عن وعي السوابق التاريخية ، لكن ما كان يدور في خلدهن أن يخرجن عن دورهن كنساء . هذا مع انه في أمثال تلك اللحظات على وجه التحديد كان يمكن لمفهوم **الالتزام** الجديد أن يطوح بسهولة بالفكرة الموروثة عن القطاع النسائي . كان الصدام العنيف قمينا ، فيما لو حدث ، بأن يحسم ويفصل بين ما كانت النساء يعتبرنه واجبهن وما كان الرجال ينتظرونه من زوجاتهم وبناتهم وأمهاتهم . ومن قبيل ذلك انه حين انشئت في عام ١٧٩٢ ، اثناء الثورة الفرنسية ، كتائب نسائية ، وقف الرجال منها موقف المعارضة . فالنساء ، بوضعهن علامة استفهام حول الحق المحفوظ للرجل وحده في الدفاع عن الوطن ومجد الثورة ، **قد حركن** ضربا من «النسوية» . وكان التطور في عام ١٨٧١ مشابها . فقد كان احد مصادر يقظة الوعي النسوي محاولة فرض الكفاح الثوري على الجميع بلا تمييز . والحق انه لم يصدر اذن بتشكيل كتيبة نسائية ، لكن نساء العامية كن يرافقن ازواجهن او عشاقهن ، وغالبا ما كن يقاتلن الى جانبهم . تروي صحيفة «لا سوسيال» في

---

١ ـ المصدر نفسه .

٥ نيسان ان :

«مجموعة من النساء المسلحات بالبنادق اجتازت اليوم ساحة الكونكورد . وسوف تنضم الى مقاتلي العامية» .

كان من الصعب غالبا التمييز تمييزا جليا بين نشاط الممرضة في مركز اسعاف او صاحبة المقصف او المقاتلة . فاحدى المعلمات ، وتدعى لويزا ميشيل ، شاركت مشاركة فعالة في العامية، فاعتنت بالجرحى وقاتلت بالسلاح . والنصوص التي تركتها اولئك النسوة لا تدع مجالا للشك في التزامهن التام بقضية العامية. لقد نذرن انفسهن للثورة بحمية لا نلقى مثيلا لها الا في ايام الازمات الحادة . لكن نظرة الضباط اليهن لم تكن على الدوام نظرة استحسان . اندريه ليو ، النسوية الثورية والصحفية ، تكلمنا عن العراقيل التي كان الضباط والاطباء العسكريون ينصبونها في طريقهن ، بالرغم من حسن استقبال العساكر لهن . وتفسر هذا الاختلاف في الموقف بكون الضباط ما زالوا يتمسكون بالمفهوم الضيق عن الرجل المقاتل ، بينما كان الجنود يعون انهم مواطنون ثوريون مسلحون . وتقدر ان ذلك الراي المسبق قد ترتبت عليه عواقب سياسية خطيرة . فإبان الثورة الاولى استبعدت النساء من مغنم المساواة والحرية ، فاستدرن من جديد نحو الكاثوليكية والرجعية . وتزعم اندريه ليو ان الجمهوريين ينقصهم تماسك المنطق : فهم يريدون تحرير النساء من وصاية الكهنة ، وتثور ثائرتهم حين يتبنين قضية المفكرين ــ الاحرار (١) ويزعمن انهن يتصرفن ككائنات حرة . كان الجمهوريون يفكرون فقط باستبدال السلطة الملكية والإلهية بسلطتهم هم . وكانوا بحاجة الى «رعايا» او على الاقل الى نساء مسترقات. وما كانوا اكثر استعدادا من ثوريي ١٧٩٠ لمنح المراة حق تقرير مصيرها بنفسها . كانوا يريدونها حيادية وسلبية تحت سيطرة الرجل . وكأنها في زعمهم لم تفعل شيئا حتى تغير معرّفها .

كان ذلك كله يتناقض صارخ التناقض مع الافكار التي يجاهر بها الثوريون . فالثورة كانت بالفعل حرية كل كائن انساني ومسؤوليته ، محدودتين فقط بحقوق الجميع ، بدون تمييز على اساس العرق او الجنس . هكذا وجدت نساء العامية، اللواتي حملن الثورة على محمل الجد ، انفسهن مكرهات على الدفاع عن مواقفهن النسوية والذود عنها ، اي على النضال لا ضد العدو المقيم في فرساي فحسب ، بل ايضا ضد الاحكام المسبقة والريبة لدى الرجال الذين يجمعهم واياهن معسكر واحد . وقد تكررت الظاهرة عينها فيما بعد في حركات ثورية اخرى . فحين تشرع الثورة بإيقاظ النساء من سلبيتهن وتوعيتهن بدورهن كمناضلات ، تظهر السخرية والصور الكاريكاتورية والتهكمات المزوجة بجرعة كبيرة من الجنس . فتلكم هي انجع الاسلحة ضد انعتاق المراة . ان ثمة فارقا بين أن يتعرض المرء

---

١ ــ صفة كانت تطلق على المفكرين المتحررين من تأثير العقائد الدينية . «م»

للكراهية وللاهانات ، وبين أن يتحمل فضلا عن ذلك الازدراء والهزء : فغالبا ما يكون الرد في هذه الحال سخرية من الذات ذات تأثيرات شالة .

اذا كان موقف الرجال اليساريين يحوطه الالتباس احيانا ، فان موقف الرجال اليمينيين لهو على العكس في غاية الوضوح . فالحقد الطبقي وروح الطائفية السياسية والنزعة الاستبدادية الجنسية تتترجم لديهم في اتهامات هستيرية وفي كلمات جارحة . لنصغ الى مكسيم دي كام :

«لم يكن لأولئك اللواتي وهبن انفسهن للعامية ـ وعددهن ليس بالقليل ـ سوى مطمح واحد : ان يرتفعن فوق الرجل من خلال مبالغتهن في رذائله . كان ذلك مثلا اعلى عرفن كيف يصلن اليه . كن شريرات وجبانات ... كن مجتمعات كلهن هناك ، لا ينقطع لهن جلبة ولا زعيق : نزيلات سان لازار الآخذات اجازة ، بائعات الكرشة ، الخياطات للسادة ، صانعات القمصان للرجال ، معلمات الطلبة الراشدين . واهزل ما في الامر ان اولئك الهاربات من المصحات كان يحلو لهن الكلام عن جان دارك ولا يأنفن من تشبيه انفسهن بها ... وفي الايام الاخيرة صمدت اولئك المسترجلات المحاربات خلف المتاريس مدة اطول مما صمد الرجال ... وقد اعتقلت كثيرات منهن ، وقد اسودت ايديهن من البارود، وازرقت اكتافهن من ردة البندقية ، ونفوسهن تطفح انفعالا بهياج المعارك» (١) .

جاء القمع وحشيا : فقد كابدت نساء لا يقعن تحت حصر من مصير لويزا لايمه ذاته ؛ طاهية باسم اوجيني ليلي ، خياطة باسم اولالي بابافوان ، بائعة كرتون باسم اليزابيت ريتيف ؛ جامعة خرق باسم ماري وولف ـ جميعهن حكم عليهن بالنفي ، بالاشغال الشاقة ، بالاعدام . كن قد انضممن الى احبائهن خلف المتاريس وواسين الجرحى . كن يحببن **الجمهورية** ، يبغضن الاغنياء ، فانتقمن لهوان ذقن منه الامرّين طيلة سنوات وسنوات لمجرد انهن عاملات ونساء . عند محاكمتهن بدأ الكابتن جوين مرافعته واصفا اياهن بأنهن :

«مخلوقات سافلات قطعن عهدا على انفسهن بأن يصرن وصمة عار في جبين جنسهن ، بأن يعزفن عن الدور الهام والعظيم الذي يعزوه المجتمع الى المرأة ... الى الزوجة الشرعية ، موضوع عطفنا واحترامنا ، المتفانية في سبيل اسرتها ... لكن حين تتملص المرأة من تلك الرسالة المقدسة ، فتتغير طبيعة تأثيرها ولا يعود يخدم سوى روح الشر ، تغدو مسخا لااخلاقيا ؛ آنئذ تصبح اخطر من اخطر الرجال قاطبة» (٢) .

لكن سرعان ما يبدل اولئك «السادة» من الطبقة السائدة أساليبهم . ترك لنا الجغرافي إليزيه رولكو ، الواقع في الاسر هو الاخر ، الوصف التالي لواحدة من

---

١ ـ نقلا عن «المنفطات» ، المصدر الانف الذكر .

٢ ـ المصدر نفسه .

صاحبات المقاصف :

«كانت المرأة المسكينة تسير امامي في الصف ، بجانب زوجها . لم تكن جميلة البتة ، ولا صبية : وانما بروليتارية فقيرة متوسطة العمر ، قصيرة القامة ، تنقل خطواتها بمشقة كبيرة . كانت الشتائم تنهال عليها ، يرسلها ضباط يتبخترون على الخيل ، على طول الطريق . وقال ضابط شاب من الخيالة : «اتعرفون ما سنفعله بها ؟ سنكويها بالحديد الاحمر !» . وخيم على الجنود صمت من الهول » (١) .

لدينا هنا مثال بالغ الفصاحة ومنفر عن ذلك الرياء الذي شهر به ماركس ايما تشهير . فهو يكشف لنا عن الطبيعة الحقيقية لحساسية رجال الطبقات العليا تجاه النساء ومراعاتهم لهن . وفي الامكان استخلاص الاستنتاجات ذاتها من حركات اخرى لم تكن بالقدر نفسه من الثورية . هكذا وعت سارة وانجلينا غريمكه، على سبيل المثال ، الدوافع الاخلاقية السامية التي كانت وراء حملة مناهضة الرق في الولايات المتحدة ، وشاركتا بالكلام والكتابة في الحركة . وقد هوجمتا في سنة ١٨٣٧ في رسالة رعوية قرئت من على منبر الكنيسة ووزعت بجهود «الجمعية العامة للابرشية الاكليركية» . وقد اعادت تلك الرسالة الى الاذهان ان «الواجبات ووسائل العمل المناسبة للنساء» محددة بوضوح في «العهد الجديد» :

«تكمن قوة المرأة في تبعيتها ، وتنبع من حسها الحي بضعفها الذي حباها الله به لحمايتها، والذي يحصرها في ميادين الحياة التي تكوّن طبائع الافراد والامة... لكن حين تأخذ مكان الرجل ولهجته ، دافعة بنفسها الى الحياة العامة ، لا تعود هناك من ضرورة لاحاطتها برعايتنا وحمايتنا ، بل نقف منها موقفا دفاعيا ؛ فهي قد تخلت عن تأثيرها الذي وهبها اياه الله لحمايتها ، وتفقد طبيعتها صفاتها الطبيعية » (٢) .

وحين قررت الاختان غريمكه ان تردا بالذود عن حقوق المرأة ، اصطدمتا بعداء الرجال في داخل الحركة بالذات . فقد احتج هؤلاء بأن النضال ضد الرق يمكن ان يعاني من التأثيرات السلبية لصلاته بالنسوية . وكانت الحجة نفسها قد شهرت مرارا وتكرارا بقدر او بآخر من التباين ابان النضالات العمالية والثورية . وكانت العاقبة الاخيرة لذلك الموقف ان هجرت النساء تلك الحركات ، وقطعن صلتهن بتنظيمها وسياستها على حد سواء . في ١٨٨١ ، بعد شهور من الصراعات في سبيل حق النساء في الانتخاب ــ وهو نضال كان مآله الاخفاق الجزئي لان دعاة الغاء الرق الذكور رفضوا مساندة المستنخبات ــ وجهت النسويتان اليزابيت

---

١ ــ المصدر نفسه .

٢ ــ نقلا عن ايلين. س. كراديتور (الناشرة) : «من فوق قاعدة التمثال» ، شيكاغو ١٩٦٨ ، ص ٥٠ ــ ٥٢ .

كادي ستانتون وسوزان. ب. انتوني «رسالتهما الى الاجيال المقبلة» :

«نصحنا رجالنا من ذوي الافق الواسع بالتزام الصمت اثناء الحرب ، فلزمنا الصمت وفي أعماقنا يمور حس بالظلم ؛ نصحونا بالصمت في نيويورك وكنساس حتى لا نلحق الاذى بـ «تصويت الزنوج» ؛ هددونا ، في حال عدم امتثالنا لتلك النصيحة ، بأن يدعونا نخوض وحدنا معركتنا. وقد ناضلنا وحدنا ، ومنينا بفشل. ولكن أمكن لنا ، ونحن وحدنا ، أن نقيس مدى قوتنا ؛ فعزفنا الى الابد عن نصائح الرجال ؛ وعاهدنا أنفسنا علنا على اننا لن نسكت بعد اليوم او توهب لنا على هذه الارض الخضراء نفس الحقوق التي للرجال» (١) .

حذرتا الصبايا من النساء من نصائح الرجـــال . فطوال الفترة الانتقالية ، وحتى منحهن الحقوق ذاتها ، ينبغي لهن الا يعتمدن على احد غير انفسهن . «ما داموا ينظرون الينا وكأننا رعاياهم ، تابعاتهم ، عبيداتهم ، فستكون مصالحهـــم معاكسة بالحتم لمصالحنا» .

ان تكون للنساء حركتهن الخاصة بهن شيء ، وشيء آخر أن يقطعن جميـع صلاتهن السياسية بسائر الحركات القائمة . ولعل هذا الشكل الاخير من الانعزالية النسوية يغري ببساطته . فهو يبدو وكأنه يتيح امكانيـــة تركيز جهودهن على معركتهن الخاصة ، وانتظار مستقبل اكيد يشهد تلاقي الرجل والمرأة تحت علم المساواة . وهذه ، في الحق ، نظرة طوباوية في غاية السخاء والكرم : ف «التقدم» يعتبر هنا مسيرة طويلة واحادية الخط نحو هدف بعينه . ومثل هذه النظـــرة تستبعد فكرة حركة حية ، فاعلة في التاريخ ، تكتسب الخبرة والعلم من التفاعل الجدلي لجهودها في ظروف عينية . انها تنسى أن يقظة الوعي لدى بعض الفئات المحددة من جمهرة المضطهَدين تكون جزئية ليس الا . صحيح ان يقظة الوعي تلك يجب ان تتم وأن تتجلى في داخل الحركة ، لكن لا يمكن «تسييسها» بالمعنى الثوري اذا لم تسع الى عقد الاتصال مع تجارب فئات مضطهَدة اخـــرى . انها تجازف بحبس نفسها في خصوصيتها وانعزاليتها . وهذه القاعدة تسري على النســـاء سريانها على السود او على الشغيلة . ولا يمكن ارجاء محاولة الاتصال والتوسع تلك الى مستقبل سكوني وطوباوي ، بل ينبغي على العكس ان تندرج في السيرورة التاريخية الجدلية المتواصلة التي يساهم فيها الجميع مساهمة واعية . ان وعيا سياسيا ثوريا لا يمكن أن ينمو ويتطور الا اذا عرفت نصيرة المرأة (مثلها مثل الاسود او المناضل العمالي) نفسها وشعرت بأنها مناقضة في ذاتها لنظام بأسره مـــن الاضطهاد : وبالفعل ، لا يكفي أن تتمرد على الظلم الذي هي ضحية له .

ان تلك الارتباطات قد وجدت في الممارسة تفهما حسنا لدى بعض النساء

---

(١) ـ نقلا من «النساء في التاريخ : إحياء لماضينا» ، مقتطف من «النساء : مجلة للتحرر» ، ربيع ١٩٧٠ ، ص ١٦ .

اللواتي عهدت اليهن الظروف الاجتماعية والسياسية بـــدور لا ينحصر بالدائرة النسائية وحدها . وما كان الامر ليكون الا ضربا من العبث واللامعقول لو حدت امراة سوداء اثناء حرب الانفصال الاميركية ، او فرنسية إبان ازمة من الازمـات الثورية ، او ميثاقية انكليزية ، او نقابية من النقابيات الأوَل ، تصورها للاضطهاد بذاك الذي تعاني منه هي نفسها . وقد انكشف بسرعة امر انعزالية اليزابيت كادي ستانتون وسوزان. ب. انتوني باعتبارها حلا سيئا ، اذ ان تلك الانعزالية لم تكن تمت بصلة الى حياتهما اليومية وممارستهما السياسية . وقد تلبست هذه الانعزالية احيانا شكل افعال متناقضة تناقضا صارخا مع اطروحاتهما . وقد اوضحت إيما غولدمان ان النزعة النسوية لدى إ. ستانتون و س. انتوني كانت تضرب صفحا عن عمد عن صراعات الحركة العمالية الى حد القبول بقيام النساء بدور محطمـــات الاضراب . وقد عاد هذا الموقف عليهما بعداء العاملات والعمال على حد سواء .

لقد ترتبت نتائج فادحة الخطورة على غياب اي نظرية عملية للنشاط والتنظيم النسوي الثوري تبرز ضرورة النضال على عدة جبهات في آن واحد بدلا مـــن مكافحة جانب واحد من الاضطهاد . وبالفعل ، حملت الانعزالية النسوية بعض النساء الثوريات وبعض المناضلات في الحركات العمالية على تجاهل او التقليل من اهمية الاضطهاد الخاص الذي هو من قسمة النساء ، اما لانهن كن يخشين تعريض نجاح بعض الحركات او بعض القضايا للخطر ، وإما لانهن كن يرتئين ان المسألة النسائية لا حل لها في مستقبل منظور . وكان التوتر الذي نجم عن ذلك الحبس الارادي للطاقة والنشاط ضارا وحاتا . فقد وجدت النساء انفسهن عرضة للضغط المتواصل من جانب اولئك الذين يقترحون عليهن تسوية وحلا وسطا . ورايـــن انفسهن في وضع يحتم عليهن القيام باختيار بالاعتماد على عواطفهن ومشاعرهـــن وحدها . وكان كل اختيار يأخذ شكل قضية شخصية ، اذ لم يكن هناك وجود لنظرية شاملة يسعهن الرجوع اليها .

في ١٨٤٠ ، على سبيل المثال ، وجدت جان دوروان نفسها تواجه الإحراج التالي في السجن . كانت قد وضعت مع نقابيين رجال خطة اتحاد فيدرالي لجميع النقابات العمالية ــ صيغة اكثر تواضعا من مشاريع فلورا تريستان . وكانت قد دافعت بشراسة عن خطتها في مجلتها النسوية الاشتراكيـــة «راي النساء» . وحظرت الشرطة الاجتماعات النقابية واعتقلت جان دوروان بتهمة التآمر الجنائي. وقبل تقديمها للمحاكمة زارها محامي زملائها الذكور وقدم اليها التماسا باسمهم: انهم يرجونها الا تبوح بمساهمتها في خطة «الاتحاد» ، لانه لو علم الناس بأن امراة ومناضلة نسوية هي التي صممت المشروع فمن المرجح انه لن يرى النور ابدا . وتخبطت جان دوروان في حيرة قاسية : فهم يسألونها التراجـــع القهقرى ، وتوصية المراة بالسلبية وبتقديم البرهان على عجزها عن التعاون في مبادرة الغرض منها تحسين مصير العمال والعاملات على حد سواء . وامضت جان دوروان ليلة مضطربة قبل ان تأخذ قرارها بالتظاهر بجهل مشروع الاتحاد . ولكنهـــا ، وان

تراجعت بصدد تلك النقطة التفصيلية ، ما انفكت تناضل في سبيل نسوية اشتراكية .

ارتأت نساء أخَر أن النضال على عدة جبهات معا امر منهك ومضنٍ . وآثرن ان يتخلين عن المشروع الشاق والشال للقوى ، مشروع مقاتلة العدو الخارجي والداخلي معا ، وتبنين الموقف الذي ينفي وجود قمع خاص تتلوى تحت سياطه النساء وحدهن . لقد انتزعت الخدمات التي اسدينها للحركات الثورية احترام الرجال . لكن مساهمتهن في ممارسة النسوية الثورية ونظريتها كانت صفرا . كذلك لم يحالفهن التوفيق في جر عدد كبير من النساء الى المعترك الثوري ، اذ ان النساء ما كن ليمحضن ثقتهن لمناضلات يكللهن الرجال بأكاليل الغار مع ازدرائهم في الوقت نفسه النساء كفئة وجماعة .

بالرغم من الصعاب التي تنبع من هذا التطاحن ، لا غناء عن خوض النضالين معا في الحركة العمالية والحركة الثورية ، وإلا فان نبذهما الجمهرة الكبرى من النساء يهددهما كليهما بالفشل . وقد احسنت وصف الظاهرة اليزابيت غورلي فلين ، المعروفة باسم «الفتاة الثائرة» ، واحدى منظمات روابط «عمال العالم الصناعيين» (وهي الروابط المعروفة ايضا باسم Wobblies) ، وذلك حين تتكلم عن اضراب عمال الصناعات النسيجية في لاورنس ، ولاية ماساشوسيتس ، عام ١٩١٢ . فقد شاركت نساء من اصل ايطالي وبولوني وروسي وليتواني مشاركة نشيطة في الاضراب ، وشكلن فرقا للسهر على حسن تنفيذ الاضراب بالرغم من البرد القارس ، وحملت نساء حبالى وأمهات شابات ـ وأطفالهن بين اذرعهن ـ يافطات تطالب بـ «الخبز والورود» . الا انهن اصطدمن ، بالرغم من حماستهن ، بمقاومة الرجال الذين كانوا يرون ان واجب النساء البقاء في البيت :

«نظمنا مهرجانات خطابية للنساء ... وكانت النساء يعملن في المصانع مقابل اجر حقير ، وكن مكرهات فوق ذلك على تدبير شؤون البيت ورعاية الاطفال . كان الرجال ، بعد انتهاء عمل اليوم ـ او بعد المشاغل الكثيرة التي يقتضيها منهم الان الاضراب ـ يعودون الى سيمائهم المعتادة كـ «سادة» بينما تقوم المراة بإعداد الطعام وتنظيف البيت الخ . وكان الرجال يعارضون بشدة مهرجانات النساء او استخدامهن في فرق الاضراب . وقد رددنا ردا عنيفا على ذلك الموقف . كنا نعلم اكيد العلم ان الاضراب مهدد بالفشل اذا تركناهن وحيدات في المنازل ، بدون احتكاك بنشاطات الاضراب ، وعرضة لتقريع التجار والملاك والكهنة والقساوسة» .

اذا كان يراد للعمل النسائي ان يتحقق والا يعود مجرد توصية ورعة ، فلا بد من دراسة وفهم المشكلات والتجارب النوعية للمراة العاملة ولامراة الطبقات المتوسطة وللمناضلة المنخرطة في الكفاح الثوري . والحال ان الطريقة القويمة الوحيدة لاجراء هذه الدراسة هي استنطاق النساء انفسهن . فحين يدور الكلام عن «الطبقة العاملة» و«النشاط الثوري» يذهب الفكر الى الرجال بوجه خاص. بيد ان النساء ، وان شاطرن ازواجهن غددا معينا من التجارب ، يواجهن مواقف

جديدة مقصورة على بنات جنسهن . فما يربطهن بالرجال وما يفصلهن عنهم هو في غالب الاحيان مزيج صميمي للغاية لا يكاد يترك لهن من مجال لوعي النزاع الذي لا ينطاقه في اتساع مستمر. كانت النسوة عرضة ، في الولايات المتحدة كما في اوروبا ، لاشكال جديدة من الاستلاب والاستغلال تعود العلة فيها الى التصنيع والى الاستخدام المكثف للآلات . وكان رد فعلهن على ذلك ـ نظير الرجال ـ كره المصانع والحنين الى «العصر الذهبي» ، عصر النشاط المنزلي والاقتصاد الزراعي. في ١٨٣٠ ، سارت فتيات صبايا قدمن من الريف بخطى واثقة في شوارع لويل، ولاية ماساشوسيتس ، وهن ينشدن :

اليس حراما ان ترغم فتاة جميلة مثلي
على التسكع وعلى الذبول في المصانع ؟
انا لم أخلق للعبودية !
حبي للحرية كبير ،
انا لم أخلق للعبودية.(١) !

الفكرة نفسها تتكرر بنبرة شاكية في أغنية شعبية انكليزية من بداية القرن التاسع عشر :

اين الصبايا ، سأقولها لكم بصراحة ،
لقد ذهبن للنسيج على البخار
اذا اردتم لقياهن فعليكم الاستيقاظ فجرا
والذهاب الى المنسج باكرا .

لم تكتف النساء ، شأنهن شأن الرجال ، بالاحتجاجات المعنوية ، بل نظمن اضرابات ونقابات عمالية . وقد انهارت هذه النقابات في مطلع القرن التاسع عشر لتولد من جديد بعد بضع سنوات . كان التنظيم الاقتصادي للاسرة يقوم على عمل المرأة قدر قيامه على عمل الرجل . وحين كانت البطالة تضرب أطنابها ، كانت مرابح النساء والاولاد تتكفل وحدها احيانا بإبقاء الاسرة على قيد الحياة . وفيما كانت الفرنسيات يتجمعن في روابط ويضعن مشروعا للاتحاد ، كانت النساء الانكليزيات يؤسسن جمعيات وروابط ودية مثل «البستانيات الاناث» و«العذارى القديمات» و«الاتحاد السياسي النسائي» ، او يناضلن في صفوف «الاتحاد القومي المعزز الكبير» الذي تجسدت فيه محاولة عارضة وعاثرة للم شمل الطبقة الكادحة بأسرها تحت راية واحدة . ولم يكن دورهن سلبيا بالمرة . هكذا تشير صحيفة «الاتحاد» (١٨٤٢) الى تدخل النساء اثناء اضرابات ذلك العام في مقاطعات لانكشاير وستافوردشاير ويوركشاير :

«الامر الذي يثير الفضول هو ان النساء كن في كثير من الاحيان المحرضات

---

١ ـ آليس هنري : «نقابة المرأة» ، نيويورك ١٩٣٥ ، ص ٥ .

على الاضراب ـ ينظمن المهرجانات الخطابية ويرسلن مندوبيهن ويطرحن شروطهن ـ ويرافقن بأعداد كبيرة المضربين في مسيراتهم ومسيراتهم المضادة عبر المناطق الصناعية ... في هاليفاكس كانت اولئك النسوة عينهن يتولين قيادة الجمهور؛ بل انهن امسكن مرة بحراب الجنود وابعدنهم قائلات : «لسنا بحاجة الى حراب، وانما الى خبز !» (١) .

اندفعت النساء في نشاطات تقتضي تنظيما متراصا ؛ وبذلك اكتشفن قوتهن الذاتية ، وهذه تجربة سياسية اساسية لدى المضطهَدين كافة . ولم يعد حسهن التنظيمي مقصورا على البيت وحده : فقد كان انشاء تنظيمات متينة في مكان العمل ومكان الانتاج اسلوبا كفاحيا جديدا يتخطى من بعيد اطار «الثورات القمحية». هكذا تعلمت النساء شيئا فشيئا كيف يطرحن قضيتهن . في ١٨٤١ ، في اميركا ، اصدرت عاملات احد المصانع بلويل نشرتهن الخاصة بهن ، «البوم بنات المعمل» ، ونددن فيها بمدة العمل الطويلة ، والاجور غير الكافية ، ووتائر العمل الفائقة السرعة ، والمدفوعات العينية . من تلك الجهود ولدت «جمعية اصلاح العمل النسائي» . ولئن صح أن تأمين تلاحم تلك النقابات العمالية الاولى كان مهمة تتجاوز في غالب الاحيان قوى الرجال مثلما تتجاوز قوى النساء ، الا أن انشاء تلك المنظمات يبقى يمثل مرحلة هامة على الطريق الى الاجهزة الدفاعية الاقوى بما لا يقاس التي أسسها الرجال في أواخر القرن .

بالرغم من وقوع النساء ، نظير الرجال ، تحت استغلال الطبقة السائدة وتكومهن ، مثلهم ، في المصانع الجديدة ، فقد كن يرزحن ايضا تحت وطأة أوضاع لا تحفزهن على تنظيم أنفسهن . كانت الامومة وما يستتبعها من انقطاع طويل الامد عن روتين المصنع ، والاتجاه الانثوي لحياتهن في الاسرة ، وما ينضاف الى ذلك من دعاية الطبقات المتوسطة المحبذة للاقتصاد والصبر والمجهود الشخصي ، كان كل ذلك يعيق بلترة المرأة الكادحة . وكان دور المرأة الخاص في الاسرة في مجال الاستهلاك والانجاب يحدد ايضا موقفها حيال انتاج السلع . فقد استمرت النساء في العمل في المنزل ، سدا لحاجات الاسرة ، لكن العمل مقابل أجر كان يتم اساسا خارج نطاق الانتاج العائلي . وعليه ، كان عمل المرأة في الخارج يفيد اولا واخيرا في توسيع الميزانية العائلية. وقد حافظت النساء على بعض سمات الشغيل ما قبل الراسمالي . ولم يتمثلن تمام التمثل قواعد «اللعبة الاقتصادية» الجديدة. هيأهن هذا الوضع للقبول بأجور متدنية . فغالبا ما كان ارباب العمل يلجؤون الى النساء حين يريدون قهر الشغيلة وحين يكون استخدام اليد العاملة غير المختصة اقل كلفة من شراء آلات . هكذا كانت الدونية العامة للمرأة قرينة مركزها الضعيف في سوق العمل ، وقرينة التحديد الاجتماعي لـ «عمل المرأة» بصفته عملا متدني

---

١ ـ نقلا عن جو اوبريان : «النساء والاولاد في حياة الطبقة العاملة في القرن التاسع عشر».

الاجر وغير مختص .

كان للنقابيين الذكور الخيار بين واحد من موقفين : اما محاولة دمج النساء في نقاباتهم وإما محاولة اقصائهن عن كل عمل مختص . وعلى امتداد القرن التاسع عشر بأكمله ، ما كان الشغيلة يحبذون العمل النسائي ؛ بل كانوا يقدرون ان مكان المراة هو البيت ، وأن دور النساء ليس انتزاع العمل من الرجال . لكن سخرية القدر الغريبة شاءت ان يكون اساس الراسمالية عمل النساء والاولاد . وقد اخذ النزاع مظاهر متباينة : ففي ١٨٤٥ اشتكى الرجال الذين كانوا يؤمّنون العمل تقليديا في معامل التجليد من استخدام النساء بأجور هزيلة : «ليس للنساء في غالب الاحيان المقدرة على الدفاع عن مصالحهن في هذا المجال ، ونظرا الى تجردهن من كل سلاح عند تقلب الاجور ، فمن السهل سحقهن» (١) .

انفجرت المنازعات بوجه خاص في المهن القديمة التي تمت مكننتها ابان القرن التاسع عشر . ففي المطابع برزت الصعاب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا حين حاول الرجال تأمين القطاعات المتميزة على الاقل لانفسهم ـ مثل قطاع تنضيد الحروف . ولقد انتبه النقابيون الاميركان في حوالي عام ١٨٦٠ الى ان تفاقم النزاع بين اليد العاملة المذكرة والمؤنثة لا يعود بالفائدة في خاتمة المطاف على احد سوى على ارباب العمل ، وطالبوا بأجور متساوية للرجال والنساء . ومر عمال التعدين الروس بتجربة مماثلة في مطلع القرن العشرين : فقد كانوا استبعدوا النساء من نقاباتهم ، ثم وجدوا انفسهم في احدى الازمات الاقتصادية وقد صرفوا من العمل بينما جرى استخدام زوجاتهم بنصف التعريفة . وعلى اثر هذه الحادثة قبلت النساء في النقابة حيث شكلن « مجلسا » .

ان ما كان ينصب العراقيل الكأداء في ذلك الزمن ـ وفي زمننا نحن ايضا ـ امام مهمة اقناع النقابيين الذكور بأنهم والنساء يقاتلون في طرف واحد من المتراس هو ان ريبة الرجال تجاه النساء كانت تبدو مبررة عندما تؤخذ بعين الاعتبار الجهود لا الاسباب والعلل . فقد كان مركز المراة الدوني ، ودورها في الاسرة ، ووضعها الجنسي يهدد وما يزال يهدد بأن يلقي بها ، في مضمار العمل ، في موقف سلبي ورجعي . والحال ان ريبة الرجال وعداءهم يعززان هذا الميل . ولا جدوى البتة من المحافظة عليه وتغذيته عن طريق منع النساء من المشاركة في النشاط النقابي ، والابقاء على التمييز في الاجور وغيرها . الحل الوحيد للمشكلة انما يكمن في فضح استرقاق المراة في ظل النظام الراسمالي . ومن المتعذر عزل مشكلة العمل النسائي على حدة . فلو ركزنا انتباهنا على مظهر واحد لما وجدنا العلاج : وبهذا المعنى تجد المراة نفسها مرغمة على النضال في سبيل

---

١ ـ نقلا عن ج. رامسي مكدونالد : «النساء في حرف الطباعة» ، لندن ١٩٠٤ ، ص ٣٣ .

الخبز والورود ، لان المظهر المادي للاستغلال الذي ترزح تحت وطأته يرتبط بوثيق العرى بالفكرة التي تكوّنها لنفسها عن نفسها . فما دامت تحس على الدوام بأن الرجل يتقدم عليها ويقودها ، فانها ستتبنى الموقف نفسه في مضمار العمل ايضا ولن تكون مستعدة الاستعداد الكافي لمقاومة ضغط رب العمل . وما لم يتغير وضع المرأة في داخل الاسرة ، فسوف تظل تعطي الاولوية «لدورها كامرأة» .

لقد سلطت المشكلة الشائكة المتعلقة بقوانين الحماية الضوء على خطورة الإحراج . فقد وقفت رائدات النسوية البورجوازية في أواخر القرن التاسع عشر باستمرار موقف المعارضة من اي تشريع يرمي الى حماية العمل النسائي ، محتجات بأن أثره العام هو الحد من حقل عمل النساء . وكانت «الشغيلات الاناث» في تودموردن قد كتبن قبل ذلك بمدة طويلة ، بالضبط في ١٨٣٣ ، الى «اكزامايتر» بصدد التشريع الذي يحد عمل النساء بأن شروط عملهن ، وان لم تكن مثالية ، أحسن من شروط عمل الخادمات ، وانه اذا منعن من العمل فان غير المتزوجات منهن ليس لهن اي شخص يعيلهن . ولن يبقى امامهن في تلك الحال سوى السعي الى اصطياد زوج (١) !.

لا مراء في ان المساعي التشريعية الرامية الى الحد من زمن العمل النسائي وطبيعته كانت على الدوام ذات حدين . فقد ساعدت على انشاء مفهوم «العمل النسائي» ، وحياها الرجال لا لانها تحد من استغلال المرأة فحسب ، بل لانها تقلص التنافس بين الشغيلة الذكور والآناث . وللاقتناع بذلك حسبنا ان نقرأ بيان ١٨٧٩ لعمال صناعة السيجار في الولايات المتحدة :

«لا يسعنا طرد النساء من المهنة ، لكن في مقدورنا الحد من مدة العمل بتشريع مناسب . فلا يجوز لاي فتاة دون الثامنة عشرة ان تشتغل اكثر من ثماني ساعات في اليوم ؛ وينبغي حظر الساعات الاضافية ، ولا يجوز لاي امرأة متزوجة ان تضع قدميها في مصنع ما خلال الاسابيع الستة التي تعقب الانجاب» (٢) .

كانت هذه التدابير ، بالرغم من بواعثها المغرضة ، تستجيب للوضع الفعلي للمرأة العاملة . والشيء الذي غاب عن فطنة نصيرات المرأة هو ان هذه الاخيرة اذا كانت عرضة للتمييز الصناعي فانها تقوم ايضا بأعباء دورها المزدوج كزوجة وأم وشغيلة . والمطالبة في هذه الحال بالحق النظري للعمال من كلا الجنسين في مكابدة استغلال متساوٍ ، من غير ان يؤخذ بعين الاعتبار كون النساء يشتغلن في البيت ايضا ، كانت تعني تعريضهن لاضطهاد لا يحتمل ولا يطاق . وكان الحل الوحيد بالمقابل هو ربط الانتقادات النسوية لامتيازات العمال في قطاعات معينة

---

١ ــ نقلا عن ايفي بنشبك «النساء العاملات والثورة الصناعية ، ١٧٥٠ ــ ١٨٥٠» ، لندن ١٩٣٠ ، ص ١٩٩ .

٢ ــ نقلا عن آليس هنري : «نقابة المرأة» ، ص ٢٤ .

بمحاولة تغيير شروط عمل الشغيلة قاطبة . وبذلك كان يمكن لتدابير الحماية التي قد تفوز بها النساء أن يسري مفعولها على الشغيلة قاطبة ، الامر الذي كان يمكن ان يقلل من اخطار الصدام بين الشغيلة من كلا الجنسين .

ان تحليل شروط عمل المراة كان يمكن ان يظهر للعيان انه من المستحيل الفصل بين نوعي النشاط النسائي : العمل بأجر في المصنع والعمل بلا أجر في البيت . وقد كانت هناك بالفعل صلة وثيقة بين الدائرتين اللتين تقاسي فيهما المراة من الاسترقاق والاستغلال . من قبيل ذلك ان العاملة كانت تحتل مركزا ادنى من ذاك الذي يحتله العامل ، بالرغم من انهما ينتميان كلاهما الى طبقة واحدة . وكان وضع المراة في الاسرة يسهم في الابقاء على تلك الدونية . وكان القمع الثقافي الذي تتعرض له المراة على جميع المستويات «يشرطها» على نحو تذعن معه لدونيتها الاقتصادية والاجتماعية . كان الوضع اشبه ما يكون بحلقة مفرغة لا مخرج منها الا بنظرية اجتماعية جديدة تقيم وزنا لجميع مظاهر استرقاق المراة . وما كان يمكن لمثل تلك النظرية ان تبزغ لا من الفكر النسائي ولا من النقابية العمالية: فهي تفترض فكرا قادرا على تجاوز كل موقف خاص وعلى سحب تحليله على المجتمع بأسره . كانت الشغيلات ، بمطالبتهن بـ «خبز وورود» ، وبتفكيرهن بتغيير للمجتمع تكون نتيجته لا تحسين الشروط المادية فحسب بل تبدل علاقات الانسان بالانسان ، يرسمن في الافق البعيد معالم مجتمع جديد كل الجدة . لكن هذه الرؤيا كانت رؤيا هروبية في الجوهر . فالنساء لم يعمدن قط ، انطلاقا من وضعهن الخاص، الى انشاء نظرية قادرة على تفسير تلك العلاقات وعلى جعلها منظورة . كذلك لم يكن يتوفر لهن القدر الكافي من القوة لانشاء اشكال تنظيمية دائمة مؤهلة لان تكون الناطقة بلسان مثل تلك النظرية .

غني عن البيان ان تلك المشكلات لم تكن خاصة بالقرن التاسع عشر وببداية القرن العشرين . فقد حافظت على راهنيتها حتى يومنا هذا ، ولا يبدو ان هناك احتمالا لحلها في اطار مجتمع رأسمالي .

مثلما كانت النساء الثوريات يصطدمن بريبة الرجال حين يبدو للانظار وكأنهن يتطاولن على امتيازات الذكور ، كذلك كانت العاملات يصطدمن بمقاومة اشرس ايضا من جانب العمال . وكان منبع هذه المقاومة لا يتمثل فقط في ادعاء الرجل وتطلعه الى الحفاظ بكل غيرة على تفوقه التقليدي ، بل ايضا في واقع ان العامل كان يستفيد من الزاوية الاقتصادية من وضع متميز داخل الطبقة العاملة . ومثلما كان تمرد النساء يعبر بمفردات السياسة عن مطامح «صامتات» الحركة الثورية ، كذلك كان انشاء هيئة اقتصادية نسائية (يقدم لنا اضراب عاملات الثقاب في مصانع براينت وماي مثالا فصيحا على ذلك) يشجع اولئك الشغيلة الذين يحتلون في داخل الطبقة العاملة مركزا دونيا على تنظيم انفسهم . ومأثرة المبادرتين كلتيهما انهما ابانتا أن في الامكان فتح ثغرة في المراتبيات الفئوية التي لا تني تتطور باطراد في داخل نفس الحركات التي تحاول مقاومة المراتبية الرأسمالية الطبقية ـ

والاطاحة بها اذا كان ذلك ممكنا .

ان اكتشاف الوسيلة القمينة بوضع حد لتلك الحالة يتطلب زمنا . ولقد كانت النسوية الثورية اضعف على الدوام ، سواء أعلى الصعيد النظري ام على الصعيد العملي ، من تيار اليسار الكبير . وبوجه عام ، قاد الحركات الثورية على الدوام رجال نظروا الى العالم من منظورهم كرجال . وانما في القرن التاسع عشر تحديدا صيغت اولى النظريات وبذلت اولى المحاولات لتدارك ذلك الموقف . وقد تعززت تلك المحاولة في شتى الحركات الثورية في القرن العشرين . ولنحاول ، حتى نفهم فهما أفضل القمع الخاص الذي وقعت النساء ضحايا له، ان نتلمس مطامحهن وصبواتهن وأن نحدد الاشكال التنظيمية التي ارتأين انها ناجعة وفعالة اكثر من غيرها .

ابان ثورة ١٨٤٨ طرحت عاملات ورشات الدولة فكرة اشتراكية تقوم على مبدأ «التسيير الذاتي» . وقد احتججن على اجور الناظرات الاعلى من أجورهن ، ونددن بعدم نجع تلك الفئة من المستخدمات . وقد جابهن بمقاومة حادة ادعاء نساء الطبقة الوسطى اللائي تصدين لـ «اصلاح احوالهن» على اساس من البر والاحسان . كانت شروط العمل في ورشات الدولة في منتهى الصعوبة والقسوة . كانت النساء يعملن احدى عشرة ساعة في اليوم ، بأجور لا تغني ولا تسمن من جوع ، وفي شروط فظيعة . وكن مرغمات على الدخول في مزاحمة مع السجينات ومع الرهبانيات التي كانت تتلقى أجورا أزهد . وكان يجري توزيع العاملات في مجموعات تضم كل مجموعة منها مئة عاملة ، تحت امرة مندوبة عن الحكومة المؤقتة . وكانت ديزيره غاي ، خياطة القمصان ، مندوبة عن الدائرة الثانية (١) ، وقد استغلت منصبها هذا كيما تحاول تحسين تنظيم العمل . وكانت تشارك ايضا في تحرير «صوت النساء» الناطقة بلسان النسوية الاشتراكية ، وتنتقد فيها شروط العمل في ورشات الدولة .

بفضل الروابط التي انشأتها بعض فئات النساء ـ الغسالات ، صانعات القفافيز ـ انطرح مطلب زيادة الاجور . لكن عمل تلك الروابط لم يكن يقتصر على المطالبات الاقتصادية .

كانت القابلات يؤكدن ان تشريك الطب هو الرد على شروط عملهن السيئة وعلى اجورهن المتدنية . وفيما كانت بعض نصيرات المرأة من الطبقة الوسطى يرين ان أمثل علاج للصعاب الاقتصادية التي تواجهها النساء هو تحسين تأهيلهن العام، كانت العاملات المنتميات الى الحركة النسوية يملن ـ حين يعين ضرورة تغيير ما ـ الى اختيار الحلول ذات الصفة الجماعية .

لم تحد النساء افقهن بمشكلات العمل وحدها . وهنا يبرز من جديد الطابع

---

١ ـ معلوم ان باريس كانت وما تزال مقسمة اداريا الى دوائر . «م»

المعقد للعبودية النسائية . ان «صوت النساء» مليء بالمشاريع التي تمس مختلف مظاهر حياة المراة . ففي آذار ١٨٤٨ رفعت العاملات الى الحكومة المؤقتة عريضة تطالب بمزاود . وفي عدد نيسان ١٨٤٨ من «صوت النساء» مقال يعرض خطة لتنظيم المزاود . وقد نصحت النساء ببناء دور واسعة وسط حدائق شاسعة للسكان الكادحين . وكان ينبغي أن تضم الدور قاعة مطالعة ، وحمامات ، ومطعما جماعيا ، ومزودا تقدم فيه للاطفال «العناية المستنيرة» . وتضمن المشروع مدرسة ايضا . ودعت النساء الى تأهيل الفتيات مهنيا والى انشاء خدمات طبية . وغني عن البيان ان نساء مدينة ليون كن مهتمات بدورهن بانشاء مزاود . وقد سألن في رسالة لهن الى نساء باريس عن اخبار تقدم تنفيذ خططهن في العمل ، وقدمن تفاصيل عن سير عمل المزاود في ليون .

لقد استوحيث فكرة انشاء المزاود ، التي كانت بمثابة ظاهرة جديدة كل الجدة في الاربعينات من القرن الماضي ، استيحاء مباشرا من حاجات المراة الى العمل . وكانت بمثابة شاهد ايضا على الثقة اللامحدودة في قابلية الكائنات الانسانية للتربية ، وكان ذلك واحدا من المعتقدات الثابتة للحركات النسوية الاشتراكية . وقد تضافرت الحاجات العملية للنساء الشغيلات مع النظريات في تربية الاطفال لتتفتق عنها مخططات تدعو الى اقامة بنى اجتماعية جديدة مطلق الجدة . وقد عاودت هذه الاهتمامات التربوية ظهورها اثناء **العامية** . ففي ١٨٧١ وضع منذوبو «جمعية التربية الجديدة» خطة تستلهم المخطط الذي كانت قد وضعته في ١٨٤٩ النسوية الاشتراكية بولين رولان . وكانت فكرتها الاساسية «تهيئة الفتيات للتسيير الذاتي عن طريق تربية جمهورية» . واشارت الخطة الى انه لا يكفي تأمين تربية علمانية للاولاد بدون حشو وطني للدماغ «على الطريقة القديمة» ؛ بل ينبغي وضع مناهج تعليمية جديدة مطلق الجدة . وقد اولي المزيد من الاهتمام لتربية النساء مهنيا، وانشئت ورشات ــ مدارس. وقدمت بعض المراكز للفتيات اللواتي بلا اسرة المأوى والتعليم معا . وقد وضع كل من ماريا فيردور وفيليكس وايلي ديكودري ، ممثلي «جمعية اصدقاء التعليم» ، خطة لاعادة تنظيم المزاود النهارية. فهذه المزاود لا ينبغي ان تكون مجرد دور للحضانة ، وانما ايضا اماكن للتربية واللعب . وينبغي ان تشتمل على حدائق كثيرة ، وان تجهز بالدمى المصورة او المنحوتة التي تمثل حيوانات واشجارا وازهارا . ويجب ان تطلى المزاود بالوان فاقعة ، وان يعهد بها الى نساء في مقتبل العمر تتولى كل واحدة منهن الاشراف على مئة طفل . وقد نص المشروع اضافة الى ذلك على رعاية طبية . وكانت جميع تلك المشاريع التربوية التي قدمت في ١٨٤٨ او اثناء **العامية** تخص النساء بدور رئيسي : وهو اتجاه نلفاه ايضا في الحركات الثورية اللاحقة ، وكان بنوع ما توسيعا لوظيفة المراة داخل الاسرة وسحبها على الميدان العام . ولا يبدو ان ذلك الاتجاه استفز المعارضة التي كانت تصطدم بها الخطط التي توجه اصبع الاتهام الى اسس الاسرة او تتخطى اطار ما درجت العادة على تسميته بـ «المضمار النسائي» .

كان الجنس بلا ريب هو الموضوع الذي يثير القدر الاكبر من العواصف . والهزء الذي ذهب ضحيته فرانسيس رايت والسانسيمونيون بين ١٨٢٠ و١٨٣٠ حث نساء ١٨٤٠ على لزوم جانب الفطنة والحذر عند الاشارة الى الوشائج بين الاشتراكية والنسوية والحب الحر . ف «صوت النساء» لم تتطرق الا فيما ندر الى موضوع الاتحاد الحر . وحين كانت تدعو الى اقرار حق الطلاق ، كانت تفعل ذلك باسم الاخلاق العامة . وبالمقابل ، كانت تتهجم على التصور القائل بسيادة الرجل في الزواج . طلبت رسالة موجهة من هنريت د ، وهي عاملة ، «الا ترزح المرأة بعد اليوم تحت سلطان زوجها ، وان تتاح لها مثله امكانية العمل والبيع والشراء والمساومة» . وطالبت بتعديل قانون الاحوال المدنية الذي يجعل المرأة تابعة لبعلها ؛ وكان ذلك في رأيها سوء استغلال لا يطاق : «لا عبودية بعد اليوم ولا سادة ، وانما المساواة بين الزوجين ؛ فلننضع حدا للعسف ، وقد آن الاوان لكي نحامي عن حقوقنا» (١) .

اتخذت **العامية** عددا معينا من الاجراءات استفادت منه النساء على صعيد الاسرة . هكذا تم ، مثلا ، تعيين نفقة لزوجات رجال الحرس القومي (الشرعيات او المحظيات) الذين سقطوا قتلى امام العدو . وكان ذلك بمثابة اقرار ضمني ببنية الاسرة العمالية ، وضربة موجهة الى هيبة قانون الاحوال المدنية . وفي النوادي الشعبية كانت النساء يفصحن عن مطالب مماثلة . وقد أيدها رجال **العامية** لانها تنصف النساء ، وتضعف بنتائجها مؤسسة الزواج الدينية والملكية ، وتضفي طابعا شرعيا على الاخلاق العينية كما تنعكس في حياة الشغيلة .

كانت فكرة سن قانون خلقي انبل واشرف واصدق ، ومنزه عن الحاجة الى هيبة الطبقات العليا وسلطان الدولة ، قد حظيت على الدوام بموافقة المضطهَدين في فترات التفاؤل الثوري . كان معدمو ١٧٨٩ (اللامتسرولون) فخورين بـ «طهرهم» . أما من جانب النساء ، فان مفهوم «الاتحاد الحر» الذي أطلقته الحركة الاشتراكية النسوية كان يتجاوب مع واقع مغاير جدا للزواج كما تمارسه الطبقة العاملة . ومن منظور العالم الخارجي ، وعلى الاخص منظور البورجوازي المعادي، كان الاتحاد الحر وزواج البروليتاريين يبدوان متساويين من حيث الدنس واللااخلاقية . وكانت فكرة «الاتحاد الحر» ، التي ترمي في ما ترمي الى اعادة الاعتبار الى الجسد ، غريبة بالنسبة الى الطبقة العاملة التي كانت تميز بين «اخلاقهم واخلاقنا» وتفكر بأمنها وحمايتها اكثر مما تفكر بالتحرر الجنسي . وما امكن قط ازالة سوء التفاهم هذا .

مع ذلك ، كانت سنة ١٨٤٨ سنة فاصلة لانها شهدت بداية تأثير نظريات النسوية الاشتراكية على التظاهرات الثقافية والمؤسسية الاولى للطبقة العاملة

---

١ ـ «صوت النساء» ١ نيسان ١٨٤٨ .

الفرنسية . فقد أتاحت صحف مثل «صوت النساء» الفرصة للنساء للتعبير عن افكارهن بصدد قدر وافر من المواضيع . وقد أعلن العدد الاول بزهو وافتخار عن لونها كصحيفة اشتراكية : «لن نصدر صحيفة فحسب ، بل سنكوّن ايضا للنساء مكتبة للارشاد العملي» . ان اوجيني نيبوابيه هي التي تولت اصدار «صوت النساء» ، بعد ان أحاطت نفسها بفريق من النساء . ومنذ البداية تولت الاشتراكيات توجيه سياسة الصحيفة على نحو حي وفاصل . لنذكر منهن : ديزيريه فيريه ، الخياطة المناصرة لافكار اوين ؛ رين ماري غاندورف ، السانسيمونية ؛ ديزيريه غاي ، مندوبة النساء العاملات في ورشات الدولة ، سوزان فوالكان ، من نصيرات فورييه وخياطة اختارت ان تصير قابلة ؛ جان ماري ، سانسيمونية ؛ إليزا غريماي ، سانسيمونية نذرت نفسها بتفانٍ لقضية التربية النسائية ؛ واخيرا جان دوروان . لم تحمل هؤلاء النساء معهن أفكارا اشتراكية فحسب ، بل ايضا معرفة عملية واسعة في مضمار التنظيم الصناعي. وكانت هناك ايضا مجموعة من النساء الجمهوريات المنتميات الى الطبقة الوسطى، انصب اهتمامها الاول على الادب والمشكلات الفنية . وقد صدرت الصحيفة بشكل يومي من ٢٠ آذار الى ١٠ حزيران ، وان بغير انتظام احيانا . وكانت توزع في كبريات مدن الاقاليم ، بالاضافة الى باريس .. وكانت تبشر بعدد من الافكار المحورية : القناعة بأن العمل المنظم جماعيا قمين بتحرير المرأة ، النزعة الاممية ، مناهضة العنصرية ، مكافحة العبودية في شتى أشكالها . لكن المشاركات الكثيرات في تحرير الصحيفة كن يمثلن ايضا عددا كبيرا من الميول والاتجاهات . ويوم اصدرت جان دوروان وهورتانس ويلد في ١٨٤٩ «راي النساء» ، لم تعد اوجيني من اعضاء هيئة التحرير : فقد كانت بدأت بانعطافها الى اليمين . فبعد ١٨٤٨ ارتسم خط فاصل شديد الوضوح بين النسوية الاشتراكية والنسوية الليبيرالية. وتشهد على ذلك الصحف النسوية التي صدرت فيما بعد ، والتي كان عدد منها يعتنق أفكارا يمينية .

ليست مأثرة «صوت النساء» الوحيدة انها لمت شمل مجموعة من النساء واتاحت لهن امكانية التعبير عن آرائهن ، بل انها افادت ايضا كمركز تنظيمي ، على نحو ما فعلت تقريبا سيلفيا بانكهورست حين وضعت الـ «Women's Dreadnought»(فيما بعد Worker's Dreadnought) في خدمة الـ «East London Federation of The Suffragettes» (١) . كانت «النوادي» تقوم بمهام مماثلة . وكانت اولى نوادي النساء قد أنشئت ابان الثورة لان النساء لم يؤذن لهن بدخول بعض النوادي الثورية . فلم تكن مقبولة بعد فكرة اجتماع الرجال

---

١ ـ «فيدرالية مستنخبات الحي الشرقي من لندن» ، والحي الشرقي من لندن هو الحي البروليتاري . «م»

والنساء معا في جو نادٍ سياسي . وكذلك كانت الحال في ١٨٤٨ . تورد «صوت النساء» اسم **نادي كابيه** بوصفه احد الاندية النادرة التي يباح للنساء دخولها . ولم تكن نوادي النساء مجرد مراكز للنشاط السياسي ، بل ايضا اجهزة للتربية الشعبية . وقد عادت الى الظهور اثناء **العامية** : كانت الصحافة الثورية تعيد نشر المناقشات ، وبذلك كانت هذه الاخيرة تصل الى جمهور اوسع . في احد اجتماعات «جمعية صوت النساء» ، في نيسان ١٨٤٨ ، انصبت المناقشة على تنظيم العمل . وكان من مواضيع الدراسة الاخرى الاجور ، دور نساء الطبقة الوسطى في الروابط ، طلب مجموعة من الشغيلات الغاء الناظرات في ورشات الدولة ، تقرير لديزيريه غاي عن تنظيم ورشات العمل التعاونية في بريطانيا .

استثارت النوادي ردود فعل عنيفة . ولم يكن رجال اليمين يعرفون ما ينبغي شجبه واستنكاره اكثر من غيره : النوادي المختلطة ، «مصدر شتى ضروب الفحش» ، حيث تدخن النساء ويناقشن مسألة تحررهن ، ام نوادي النساء المتآمرات على الملكية وربما حتى على سؤدد الذكور !

اثناء **العامية** ، افلح مراسل لصحيفة «التايمز» في التسلل الى نادٍ للنساء . كانت القاعة تغص بالنساء والاطفال «من ادنى طبقات المجتمع» . وكانت النساء يرتدين «سترات فضفاضة وغير معتنى بها» و«قبعات مدعوكة» . وفي آخر القاعة نصبت طاولة مغطاة بالصحف والكتب ، وتقف خلفها مواطنات شابات متزنرات بأوشحة حمر . كانت امرأة في مقتبل العمر تتكلم عن ضرورة حماية الثورة . ولم ير مراسل «التايمز» من ضرورة لنقل كلماتها ، لكنه لاحظ انها «شابة وجميلة» ؛ وهي احالة ضرورية الى الجنس . بيد انه نسب اليها «نظرة» جردته من «كل رغبة في ان يكون زوجها» . اما الخطيبة التي اعقبتها فكانت ذات هيئة «محترمة» ، لكن كلماتها «متهافتة ومتناقضة» . تحدثت عن دور المرأة في **العامية** وفي ثورة ١٧٨٩ . وتهجمت ايضا على رجال الدين ؛ ونددت امرأة اخرى باستغلال المجتمع للفقراء . وحكم مراسل «التايمز» على خطابها بأنه «مبهم ومحشو بالتكرار اللاغي» .

كانت رسوم هزلية لا تقع تحت حصر تسخر من النساء في النوادي . وفيما كانت الدعوة الى وجوب نضال النساء في سبيل الثورة تقابل بردود فعل الاستنكار والاستهجان لتناقضها الظاهر مع دور المرأة التقليدي السلبي ، كان المحافظون لا يطيقون فكرة احتمال مشاركتهن النشيطة في المناقشات الفكرية . وغني عن القول انه ما كان الرجال جميعهم يوافقون على هذا الشجب . وقد نشرت في « صوت النساء» رسالة بلا توقيع تحث النساء على عدم تأسيس نوادٍ منفصلة مقصى عنها الرجال ، بل على فتح ابوابها على الاقل امام اولئك الذين يناضلون من بين الرجال بحمية في سبيل انعتاق النساء . وأعربت كاتبة الرسالة عن اعتقادها بأن تبادل الافكار بين الجنسين ضروري كل الضرورة للوصول الى القبول بحل وسط : فأثناء فترة تربية النساء على يد النساء ، وهي الفترة التي عزيت اليها اهمية فائقة ، تبقى النساء فيما بينهن ، ثم يجري بعد ذلك قبول الرجال بموجب بطاقة دعوة .

وقد احتجت النساء ، بالفعل ، بأن المناقشة الحرة للافكار في حلقة نسائية تبعث فيهن الثقة بأنفسهن ، وبأن آباءهن وأزواجهن ، من جهة اخرى ، قد يستاؤون من ترددهن على نوادٍ مختلطة . وكان لديهن ، فوق ذلك ، خوف من أن يحول موقف الرجال العدائي بينهن وبين التعبير بحرية عن افكارهن . وفي آخر المطاف تفجر الخلاف في «جمعية صوت النساء» ، وتدخل البوليس لان الرجال المأذون لهم بحضور الاجتماعات اثاروا من الضجيج ما جعل صوت المتكلمات غير مسموع . وفي نهاية الامر افلح صوت اوجيني نيبوابيه الهادىء في فرض الصمت . وصرحت بأنه لا يمكن لاي امراة تحترم نفسها ان تقبل بأن تنهال عليها الاهانات :

«لا نريد ان نكون العوبة ولا منظرا للفرجة ... خلف زعيقكم يكشر الاستبداد عن انيابه ، فأنتم تعلمون اننا لا نريد انزالكم ، لكنكم تخشون أن ترونا نصعد» (١).

لقد انطرحت مشكلة نوادي النساء في أشد الاوضاع تباينا . كانت الحركة الثورية الروسية تناضل بحمية ، في أواخر القرن التاسع عشر ، من اجل انعتاق المراة . ومما ساعد على خلق مناخ مذهبي قمين بالاعلاء من شأن الفكرة القائلة ان تحرر النساء هو احد المظاهر الاساسية للحركة الثورية ، الدعوة الثابتة والمتواصلة الى التحرر الشخصي التي واكبت الحركات المناضلة في سبيل تغيير اقتصادي وسياسي ، وانضمام العديد من النساء الى التجمعات الثورية ومشاركتهن النشطة فيها . كانت النساء المتحدرات من اسر ميسورة يرغبن في تحصيل تأهيل جامعي حتى يستطعن العمل في القرى كأستاذات وطبيبات وممرضات . كن يتطلعن الى حياة اكثر امتلاء واكثر نفعا . في حوالي ١٨٧٠ كان العديد من أولئك النسوة يدرسن في جامعة زوريخ . يصف ستبنياك في «روسيا الاقبية» كيف شقت الافكار السياسية طريقها اليهن : «عند وصولهن الى موطن احلامهن ما كن يجدن مدارس طبية فحسب ، بل ايضا حركة اجتماعية كبيرة لم يكن لاكثرهن ادنى فكرة عنها » .

كانت التجمعات التي تشكلت في زوريخ تقدم لنشاطهن الثوري اللاحق اساسا نظريا واحتكاكات شخصية . لكن حتى في ذلك الجو الموائم لانعتاق المراة ، والذي اتاح للعديد من النساء تحصيل تأهيل جامعي ، كانت النساء يواجهن مشكلات خاصة داخل الحركة الثورية . لهذا قر قرار بعض النساء على تأسيس نادٍ نسائي يقصى عنه الرجال : اما الحجة التي جرى التذرع بها لتبرير ذلك القرار فكانت ان النساء لا تعطى لهن الكلمة الا فيما ندر اثناء الاجتماعات المختلطة ، لا لان ما لديهن للقول اقل مما لدى الرجال ، وانما لانهن لم يتعلمن كيف يصغن افكارهن ويعبرن عنها برسم الخارج . وعليه ، ستتيح لهن النوادي النسائية الوثوق بانفسهن

---

١ ــ نقلا عن ايفلين سوليرو : «الصحف النسائية والنضال العمالي» ، في «الصحافة العمالية»، منشورات جاك غودشو ، باريس ١٩٦٦ ، ص ١٠٦ .

والشجاعة على تبادل الآراء والتواصل بحضور الرجال . وقد عارضت النساء المتقدمات على غيرهن في السن وجهة النظر تلك ، واكدن ان المناقشة في غياب الرجال مهددة بأن تكون ضيقة ومختلة التوازن وغير مثيرة للاهتمام . وبعد ستة اسابيع من تأسيس النادي المذكور حدث انشقاق بصدد هذا الموضوع . واسست نسوة يحيين تحت سقف واحد جماعة اخرى . ونظمن حلقة لـ «التربية الذاتية» وللمناقشة يجري فيها تبادل الافكار الاجتماعية والفلسفية وتعميقها ، واستعراض احداث **العامية** . وانضمت الى عضوية الحلقة فيرا فغنر ، التي ستلعب فيما بعد دورا هاما في جماعة «نارودنايا فوليا» ، بالرغم من انه لم يطلب منها الانضمام اليها في بادىء الامر : فقد كان معلوما ان زوجها يزدري بتعال جميع المشاريع التي من ذلك القبيل ، وكان يسود الاعتقاد خطأ بانها تشاطره آراءه . وفي الفترة نفسها جرى تأسيس «ناد» او «حلقة» نسائية اخرى في سان بطرسبورغ ضمت في عداد اعضائها صوفيا بيروفسكايا والاختين كورنيلوفا . وقد درست كلتا الحلقتين الجوانب الاجتماعية والشخصية لتحرر المراة . وحين انضمت صوفيا بيروفسكايا والشقيقتان كورنيلوفا فيما بعد الى حلقة اخرى كانت تستقبل الرجال كذلك ، قوبل انضمامهن هذا بالسخط والاستهجان من قبل سائر النساء . لكن الحلقة النسائية اندمجت ، في نهاية المطاف ، بالحلقة المختلطة التي كانت من اولى الحلقات التي بادرت بالدعوة الى الاحتكاك بالشعب .

تخطت وظائف النوادي النسائية في خاتمة المطاف اطار المناقشة والتنظيم : فأقام بعض النوادي بيوتا مشتركة على اساس تعاوني . ففي آذار ١٨٤٨ اوردت «صوت النساء» نبأ تظاهرة نساء صبايا بين الخامسة عشرة والثلاثين ، نظيفات الملبس ، انيقات المظهر ، يحملن لافتة كتب عليها : «الفيزوفيات» . وما كانت «الفيزوفيات» عضوات في ناد فحسب ، ليس لهن من يقيم اودهن ، بل عضوات ايضا في «متحد» او «مشاع» . كانت الانظمة في منتهى الدقة : فالاملاك كافة مشتركة ، والمأكل والملبس مضمونان لكل امراة ، علاوة على عشرة فرنكات تقبضها شهريا . وقد رأى هذا المشاع الاول النور في بلفيل . وقد شكلت عضواته موكبا منضبطا وتوجهن الى دار البلدية لطلب مساعدة الحكومة . وكان من رأي الفيزوفيات ان من واجب النساء حمل السلاح في«الحرس الاهلي» وتشكيل قوات احتياطية للجيش .

ظهرت «المشاعات» ايضا في داخل الحركة الثورية الروسية . فقد كان لرواية تشيرنيشفسكي « ما العمل ؟ » اشعاع عظيم ابتداء من ١٨٦٠ . وبطلة الرواية تقوم بتنظيم ورشات عمل تعاونية وتلقي بنفسها بكل تصميم في اتحادات حرة افلاطونية . وقد راجت الفكرة في سان بطرسبورغ ووجدت من يقلدها ، وانشئت ورشات عمل ومشاعات وفق نموذج تشيرنيشفسكي . وتكمن اهميتها في انها قدمت بيتا وعملا للعاملات والطالبات اللائي قطعن صلاتهن باهاليهن او ازواجهن . وكان الراي يذهب ، فضلا عن ذلك ، الى ان **الثورة** بحاجة ايضا الى

روابط ثقافية . وقد وصفت احدى الشقيقتين كورنيلوفا واحدة من تلك المشاعات على النحو التالي : «كان الوضع المادي يختلف من عضوة الى أخرى ، لكن جميع الموارد كانت تعد ملكية مشتركة . وكانت المساعفة المتبادلة القاعدة الاسمى للحياة المشتركة» . لم تكن المشاعات تتيح للنساء أن يحيين بإنفاق قليل وأن يستفدن من حياة اجتماعية ومن أمان اكبر فحسب ، بل كانت تساهم ايضا مساهمة واسعة في تربيتهن ، على اعتبار ان تربية قسم منهن تعود بالنفع على القسم الآخر . وكانت المشاعات تتيح ايضا امكانية «وضع الافكار الاشتراكية موضع تطبيق في الحياة الخاصة لكل واحدة منا ؛ فنظرا الى اننا لم نكن احسن مسكنا ـ بل أسوأ مسكنا بكثير من عاملات المصانع ، لم نكن مرغمات كرفيقات فيما بيننا على التمييز بين ما لي وما لك . كانت المشاعة تقدم مساعدة ثمينة للغاية للنساء والفتيات القادمات من الاقاليم. وكان بينهن من بترن كل صلة لهن بأسرهن الموسرة والنافذة، ووصلن وليس معهن شروى نقير للدراسة . كن جميعا يأملن في أن يجدن عملا. ولكن لم يكن ذلك ميسورا على الدوام بلا اصدقاء وبلا علاقات . ولقد كان العديد من النساء سيقضين نحبهن جوعا لولا مساعدة المشاعة ، لولا المؤازرة الفتوية من جانب زميلاتهن الفتيات . كانت علاقاتنا المتبادلة تجهل الكلفة والرياء ، وما كنا نكترث للمظاهر البتة ، وكنا نعيش عيشة الصداقة ، كما لو اننا أسرة آمنة مطمئنة » (١) .

هكذا ولدت المشاعات لتلبي حاجات النساء العملية ، ولتقيم ايضا اشكالا جديدة للحياة العائلية في قلب الحركة الثورية . وقد ساعدت على ايجاد روابط شخصية وسياسية بين الثوريين ، وعلى تنمية بذور حضارة جديدة ولو ضمن نطاق عالم صغير . والحق أن ما ميز الحركات الثورية في روسيا في ١٨٧٠ وفي فرنسا في ١٨٤٨ هو الاهمية التي كانت تعلق على التحرر الشخصي . واحطار مثل هذا الاتجاه واضحة للعيان . فهناك خطر من محاولة خلق العالم الجديد بفعل ارادي شخصي والتغاضي عن التغييرات الثقافية وإسقاطها من الحساب بقدر ما تكون مرتهنة بالظروف المادية . وغالبا ما يكون مآل الطاقة والعزيمة والبطولة التي يستلزمها اتجاه كذاك هو الخيبة والاندحار . الا انه لا مراء ، من جهة اخرى ، في انه يتحتم على الافراد أن يتوصلوا الى نوع من التفهم الحميم والصميم للوعي وللنشاط السياسي الثوريين على الصعيد الشخصي والخاص مثلما يتحتم عليهم الوصول اليه على صعيد الحياة العامة والعلاقات الخارجية ، وذلك للحؤول دون انقسام الحركات الثورية الى جماعات متطاحنة تحت ضغط الهجمات واعمال التنكيل . ولما كانت النساء في حالة مواجهة دائمة لمشكلاتهن الخاصة الواجب عليهن حلها ، فقد ادركن تلك الضرورة منذ اليوم الذي انضممن فيه بأعداد غفيرة

---

١ ـ نقلا عن فانينا هال : «النساء في روسيا السوفياتية» ، لندن ١٩٣٣ ، ص ٤٢-٤٣ .

الى الحركات الثورية . وقد لعب التركيز على «التحرر الشخصي» دورا هاما على الدوام في الحركات التي كانت المشاركة النسائية فيها مرموقة ؛ بل يمكننا ان نؤكد بأنه كان شرطا مسبقا للتعبئة الجماعية للنساء .

ربما كان خير تمثيل على ما نقوله وصف سجن للنساء كما ورد في السيرة الذاتية للثورية الاشتراكية ماريا سبيريدونوفا . فقد كانت النساء مكرهات على تأسيس مشاعة خاصة بهن حتى يمكنهن ممارسة عمل ثوري نافع بعد اطلاق سراحهن . هكذا طفقن يدرسن بمثابرة بالتشريح ، النصوص التوراتية ، داروين، الطب ، الرياضيات ، نيتشه ، دوستويفسكي ، الفلسفة الهندية ، باسكال ، تولستوي ، ماركس ، هرزن . ونظرا الى تعذر الاختلاء ، كان من المحظور التحادث اثناء الساعات المخصصة للدراسة . كانت النسوة يقران بعناية خاصة المفكرين المناهضين للثورة . وتلاحظ السيدة كاخوفسكابا ، وهي من السجينات الشابات، بهذا الصدد :

«كنا مرغمات على التحقق من صلاحية ترساتنا الفكرية بكاملها ، على اعادة التفكير في مبادئنا جميعا ، على صياغة أسس فلسفتنا في الحياة بمنتهى العناية . وعلة ذلك اننا اندفعنا الى خضم الثورة في سن مبكرة جدا ، محمولات على أمواج الانفعال ... وفي التماسنا التوضيحات الاخلاقية والفكرية تآلفنا مع حجج خصومنا الايديولوجيين» (١) .

كن يقدرن انه لا يحق لهن ان يزعمن انهن اشتراكيات وملحدات راسخات ما دام هناك نسق ميتافيزيقي واحد قادر على دحض أفكارهن ، وما دامت مبادئهن لم تتجسد عينيا ، على المستويات كافة ، في ممارسة حياتهن .

لقد حاولنا تذليل صعاب السجن بفرضهن على انفسهن انضباطا داخليا وخارجيا شديد الصرامة . كانت أدنى بادرة تحلل بانتباه شديد . ولم تكن القوانين تحترم فحسب ، بل كان ينبغي التقيد بها بلا أدنى منافقة . وكان عالم كاتورغا المغلق يوائم الاستبطان والانكفاء على الذات كل المواءمة . وكان هذا الميل يلقى التحبيذ والتشجيع ، نظرا الى ان الغلبة بين السجينات كانت لثوريات اشتراكيات وفوضويات تعودن على التفكير بمفردات الاخلاق والايديولوجيا اكثر مما تعودن عليه بدالة الوضع الاستراتيجي الفعلي .

كان ذلك الموقف يمحضهن قوة روحية كبرى ، لكنه كان يشتمل على أخطار على الصعيد السياسي . وتلح على هذه النقطة احدى السجينات ، وتدعى السيدة بتزنكو ، وقد التحقت فيما بعد بصفوف البلاشفة :

«كان الغاء القيم كافة مستمرا ويهدد كل شيء بالدمار الشامل ... كنا نطرح كل شيء على بساط البحث ، بما فيه دوافع النضال وحوافزه الاساسية ،

---

١ ـ نقلا عن إ. شتينبرغ : «سبيريدونوفا : ارهابية ثورية» ، لندن ١٩٣٥ ، ص ٩٥ .

وهكذا كنا نقترب تدريجيا من عتبة جميع اسرار الحياة . وكنا نجد انفسنا ، في نهاية المطاف ، في مواجهة العدم والخلاء . هكذا انطرحت مسألة معنى الحياة وتبريرها . من او ماذا يمكن ان يكون معيارا للخير والشر ، للعدالة والاخلاقية ؟ ما المعنى الحقيقي للتقدم ؟ هل الاشتراكية ضرورية فعلا ؟ ما الطريق الذي يفضي الى خلاص العالم ؟ هل يبرر كفاحنا اللجوء الى السلاح ؟ اليس هناك من سبيل لبلوغ اهدافنا بطريقة اخرى ، وعلى سبيل المثال ، بواسطة حياة خاصة لا تشوبها شائبة ؟ وما كانت النسوة يكتفين بأجوبة تعكس أفق طبقتهن التي وطدن العزم على الدفاع عن مصالحها . لم يكن ليرضيهن شيء غير المطلق ...» (١) .

لقد تجلى التنازع بين تينك الطريقتين في تصور الحياة في مظاهر شتى واسماء مختلفة في الكثير من التظاهرات الثورية ، وقد اتضح على المدى القريب ان وجهات نظر بتزنكو هي الاصوب . لكن لم يتم قط العثور على جواب مقنع للمسألة المتعلقة بمعرفة الكيفية التي يدلف بها العالم الخارجي للممارسة الثورية الى عالم الوعي الداخلي ويؤثر على افعال الثوريين . كذلك لم تدرس بصورة جدية آثار هذا التفاعل على التنظيم . والحال ان تطور الحركات الثورية يشير الى ان هذه المسألة مسألة حيوية . ونظرا الى ان استرقاق المرأة يتم على الصعيد الشخصي بقدر ما يتم على الصعيد العام ، فقد جنحت النساء على الدوام الى الاشكال المطلبية والتنظيمية التي تأخذ بعين الاعتبار الصعيدين كليهما . لكن غياب كل نظرية تهدف الى ربط وتفسير وتوسيع الاكتشاف العملية للنسوية الثورية ضرب نطاقا من الابهام حول معنى النشاط النسوي بالذات وواراه عن الانظار . فالحركات النسائية لم تواجه الصعاب التي لا بد أن يواجهها كل مشروع ثوري فحسب ، بل اصطدمت ايضا بمعارضة اليمين الجنسية والسياسية من جهة، ومن الجهة الثانية بالموقف الملتبس الذي وقفه عدد معين من الثوريين الذين يشاطرون برودون رايه بأن تأثير المرأة يجب ان ينصب على «الحياة الداخلية» لا على «الحياة الخارجية» . ولقد كان الوضع السائد في القرن التاسع عشر يحول دون الدراسة الكافية والمرضية لمستتبعات القمع الجنسي والاستبداد .

لكن اصعب مشكلة تواجه المرأة الثورية ما كانت تكمن في موقف رجال اليمين او اليسار ، وانما في خجلها ووجلها هي نفسها ، نتيجة لقرون وقرون من الاضطهاد . فقد كانت النساء ينزعن ، بالفعل ، الى معاودة السقوط في عقلية قدرية نجمت عن استحالة تحكمهن في جهلهن وعن نقص تجربتهن في مضمار التنظيم والمبادرة ؛ ومن هنا كان الاغراء عظيما للتملص من مسؤولياتهن وللالقاء بها على عاتق آخرين وللهرب من المصاعب العملية التي تعترض دوما وابدا سبيل طموحات «الحياة الخارجية» .

---

١ ـ المصدر نفسه ، ص ٩٨ .

تروي الاشتراكية ـ الديموقراطية آدلهيد بوب كيف انها احست انها معنية شخصيا عندما حضرت لاول مرة في حياتها مهرجانا خطابيا فسمعت احدهم يتحدث عن لامبالاة الشغيلات وفتور همتهن . فرفعت يدها . و«تعالت صيحات التشجيع قبل ان افتح فمي . فالتحية كانت لمجرد أن امراة ما ترغب في الكلام . حين ارتقيت درجات المنصة ، غامت عيناي وضاق عليّ خناقي . احسست بانني ساختنق» . واسهبت آدلهيد بوب في الكلام عن الفاقة الفكرية التي تشكو منها الشغيلات : «طالبت بالإعلام والثقافة والمعرفة لجنسي ورجوت الرجال تقديم يد المساعدة لنا في هذا الطريق» (١) .

اخذها الدوار من شدة التصفيق . ثم انكبت على المهمة الصعبة ، مهمة تحرير مقالها الاول : فهي لم تستفد من التعليم المدرسي الا لثلاث سنوات ، وليس عندها اي فكرة عن الاملاء ، وتكتب الرسائل بسوية رسائل الطفل . في البيت ، اصطدمت بارتباك ذويها ومعارضتهم . فقد كانت أمها تريدها ان تتزوج وتحيا حياة ربة البيت . لكن آدلهيد كانت تحس بأنها مدفوعة برغبة لا تقاوم الى دخول معترك النضال كنقابية وثورية ، والى اتمام تربيتها بجهودها الشخصية :

«حين ساورتني الحاجة الى ان اروي كيف صرت اشتراكية ، كنت اريد فقط تشجيع الشغيلات الاخريات اللواتي يتمنين ، في سرهن ، ان يبادرن الى عمل ما، واللواتي يحجمن عن الاقدام عليه لشكهن في مقدراتهن» (٢) .

اذا كانت النساء يعتورهن «الشك في مقدراتهن» ، وهذا رد فعل طبيعي من قبل كل كائن انساني يشعر بأنه موضع تحقير وازدراء ، فان الدور المحفوظ لهن في البيت والاسرة كان يجعل عليهن اي نشاط سياسي صعبا ، ان لم نقل مستحيلا . هكذا اضطر عدد كبير من النساء اللواتي اقتحمن ميدان السياسة الى العزوف عن حياتهن الانثوية . وقد نجم احيانا عن ضرورة العزوف ونكران الذات تلك شيء من التصلب والخشونة وانعدام روح الدعابة ؛ وقد رأى بعض الناس ، ممن لم يتوفر لهم الاطلاع العميق على الوضع ، في ذلك علامة على تعصب غير طبيعي . وبالرغم من ان عددا من النساء الثوريات حاولن التوفيق بين المضمارين الخارجي والداخلي ، فان مهمتهن لم تكن بالسهلة . كتبت رفيقة روسية الى دورا مونتفيوري ، الماركسية والنسوية ، قبيل الثورة الروسية :

«انا أم. في هذه الحياة لن اعفى من شيء من قسمة النساء. في عمري ـ انا في الثانية والثلاثين ـ تتوق المرأة بحرارة الى الأمومة ، وان بصورة لاشعورية احيانا ، ولن اكون الاستثناء في القاعدة» (٣) .

---

١ ـ بوب : «سيرة ذاتية لامراة عاملة» ، لندن ١٩١٢ ، ص ١٠٧ .

٢ ـ المصدر نفسه ، ص ١٣٣ .

٣ ـ دورا مونتفيوري : «من فكتوري الى معاصر» ، لندن ١٩٢٧ ، ص ٦٥ .

لقد جهدت للتوفيق بين واجباتها كأم وواجباتها كثورية . أعطت طوال الشتاء دروسا لكي تعيل والدتها وعددا من الاشخاص العاطلين عن العمل ، ولم تتوقف الا قبل شهرين من الوضع .

استمرارا لتقاليد القرن التاسع عشر بقيت اهمية خاصة تعلق على **تاهيل** المراة . قبل احداث ١٩١٧ انشأت الكسندرا كولونتاي ، التي دخلت فيما بعد في نزاع مع القادة البلاشفة لالحاحها على ضرورة دمج النسوية في الماركسية ولتأييدها حركة المعارضة العمالية التي كانت تدعو الى تغييرات بدءاً من «القاعدة»، انشأت في سان بطرسبورغ ناديا لمئتي امراة . وصرحت في عام ١٩٠٩ في مقابلة نشرت في «المراة العاملة» :

«حاولنا قبل سنتين لاول مرة ان نثير اهتمام جماعات من النساء بمشكلات تعنيهن عناية خاصة وان نساهم في ترقية وضعهن الاجتماعي . لنذكر من بين تلك المشكلات وقاية المراة من جميع الاعمال الشاقة قبل الوضع وبعده . وكنا نأمل ان نقودهن خطوة خطوة الى الاشتراكية ... كان الرجال يقبلون ، لكن ادارة النوادي بقيت في أيدي النساء وحدهن» (١) .

دعي مؤتمر للانعقاد في كانون الاول ١٩٠٨ ، وحسبته السلطات اجتماعا مسالما للبورجوازية النسائية المعتدلة . وفي الواقع ، كان بين المؤتمرات السبعمئة زهاء خمس واربعين منهن من عاملات المصانع . وكن قد اخذن استعداداتهن لكي يكون لمداخلتهن الاثر المطلوب . وقد قررت نساء الطبقة العاملة ان يقدمن ـ بمساعدة الكسندرا كولونتاي ـ مقترحات حول مختلف الاصلاحات التي اعتبرنها عاجلة وملحة . وقد تولت اثنتان او ثلاث تعميق بعض المسائل حتى يتاح تقديمها الى المؤتمر بأفضل صورة ممكنة . كن جميعهن خائفات ، لكنهن **ادهشن المؤتمر** بحديثهن طوال خمس عشرة دقيقة او عشرين دقيقة عن مشكلاتهن . وكان مما يدعو الى المزيد من الاعجاب ان النساء كن يلتقين في سرية تامة ، وكانت الخطيبات يصلن من باب صغير خلفي وقد اخفين وجوههن بمنديل حتى لا تتعرفهن الشرطة .

ما كان لاولئك النسوة ، بالنظر الى قلة خبرتهن وثقتهن بأنفسهن ، ان يأملن في الوصول الى نتائج عينية الا اذا خلقن جوا يعطي كل امراة شعورا بأن كل شيء مرهون بمساهمتها وحدها . ولهذا تميزت الحركات النسائية بإلحاحها على المجهود الشخصي ، على المشاركة الفعالة من جانب كل امراة ، **وعلى الارتياب تجاه** الزعماء . إبان اضراب خياطات القمصان في عام ١٩٠٩ في نيويورك توجهت بالخطاب الى الجمهور بنات في السابعة عشرة والثامنة عشرة ؛ وكانت بعض

---

١ ـ جيورجيا بيرس : «المنفى الروسي : الكسندرا كولونتاي والمراة العاملة الروسية» ، في «المراة العاملة» ، ١٩ ايار ١٩٠٩ ، ص ٤٦٩ .

المهاجرات يجهلن حتى كيفية استخدام التلفون والقوانين المتعلقة بفرق الاضراب وطريقة الدفاع عن النفس امام المحاكم . يلاحظ صحفي من «كول» بهذا الصدد :

«ابرز معالم ذلك الاضراب عدم وجود محرضين . فجميع اولئك النسوة والفتيات تدفعهن كما هو ظاهر للعيان رغبة تتجاوز كل ما سبق ان رايناه في منازعات العمل المماثلة . وجميعهن ايضا على استعداد لتولي قيادة العمليات ، لأداء وظيفة السكرتيرات ، لتولج فرق الاضراب ، للتعرض للاعتقال والزج في غياهب السجن» (١) .

تسري هذه الملاحظة ايضا على مشاركة النساء في العديد من الثورات . وقد خيل للرجال احيانا ان النساء تحفزهن ميول فوضوية فطرية . وفي الواقع ، ان الاشخاص الذين عاشوا حقبة طويلة من الزمن في ظل نظام يضطهدهم والذين يفتقرون الى الخبرة في مضمار التنظيم يلقون بأنفسهم باندفاع وبلا تروٍ في المعركة . وكل ما يمكن توخيه منهم هو مواصلة ذلك الجهد ، لكن ظهور قادة متمرسين يعادل في كثير من الاحيان سقوطهم من جديد في التبعية ونهاية كل حركة شعبية حقا . وهذا الخطر يتضاءل حين يتولى زعيم مزود بالخبرات في مجال محدد قيادة عمليات محددة ، لكنه يصير داهما حين يحيط الزعيم نفسه بهالة السلطة وحظوتها . ان النساء اللائي خضن نضالا شرسا للافلات من قبضة السيطرة المذكرة تبنين على الدوام موقفا معقدا تجاه السلطة في داخل هذه الحركة النسائية او تلك . فعندما توطد السلطة اركانها ، يدللن ازاءها على ريبة عميقة لا تحول مع ذلك دون اتخاذ موقف الخضوع السلبي . وعلى العكس ، تحرص النساء اللائي كافحن بمفردهن وتوصلن الى قدر من الاستقلال حرصا غيورا على هذا الاستقلال ، ولا يقبلن بالتعاون مع نساء اخريات . فحين اقترحت عضوات هيئة تحرير «صوت النساء» على جورج صاند تولي رئاسة التحرير لان الرجال يجلونها ويوقرونها ، رفضت بترفع ، وتقصدت الابتعاد عن الحركة النسوية الاشتراكية .

كانت تبرز احيانا مشكلة اخرى حين تضع نساء يتمتعن بحظوة شخصية كبيرة انفسهن في خدمة حركة ما . فطاقة سلفيا بانكهورست وعزيمتها هما وراء الـ «East London Federation of The Suffragettes» ومنظمتها الواسعة للمساعدة الاجتماعية ، ووراء مزود Bow ومعمل تعاوني للدمى ونشاط الـ «Dreadnought» الدائم لتحسين شرط المرأة . بيد ان حضور سلفيا بانكهورست كان يكسف ويحجب بالضرورة وجود النساء الاخريات ، ويلقي بهن ، في حياة «الاتحاد» ، الى المرتبة الثانية . وكانت تجازف بأن تبدو سخيفة ومضحكة فيما لو طلبت اليهن ألا يقعن تحت تبعيتها . صرحت بمناسبة

---

١ ـ نقلا عن «سنوات الوعي» ، منشورات هارفي سوادوز ، نيويورك ١٩٦٢ .

تظاهرة في ترافلغار سكوير : «سأذهب معكن . لكني لا أريد ان تتعلقن بأذيالي بدلا من التقدم الى الامام بأنفسكن . عليكن أنتن بالمبادرة ! وكلما كثر عددنا ، ازداد حرج خصمنا» (١) .

كان «الاتحاد» يدلل على ذكاء وأرابة فيما يتعلق بأمور التنظيم . وكان يلجأ الى شتى الوسائل والطرائق الاعلانية . في «فكتوريـــا بارك» ، نقشت النساء الجائلات في زورق على مظلاتهن المتعـددة الالوان شعـــار Dreadnought وقمن ، مرة اخرى ، باحتلال مسكن غير مأهول وسلمناه لعمـال احـد المصانع . وكانت محاضر ضبط الجلسات تورد بالتفصيل دقائق نشاط مختلف الشعَب . ومن قبيل ذلك الاشارة الى ان احدى المسؤولات عن التنظيم قد اثبتت عجزها ، والـــى ان مال الصندوق قد اختلس فـــي مكان آخر . وكانت اتفاقيـــات معقـــدة قد عقدت مـــع الـ «Socialist Sunday School Union» وتولت النساء المنتسبات الى التنظيم تحرير رسائل موجهة الى الصحف . وأرسلن الى الوزارات مندوبات من المناضلات ، ونظمن معارض عن استغـــلال النساء ، وأصدرن قرارات دعم وتأييد للثوريين الروس ، وقمن بحملة من اجل التساوي في الاجور ومن اجل تخصيص ايراد لنساء الجنود والبحارة . لكنهن لم ينشئن قط، بالرغم من هذا النشاط الطافح ، وبوصفهن جماعة وفئة ، نظرية تربـــط نسويتهن بمراميهن الاشتراكية .

بيد ان ثمة شيئا واحدا لا يحتمل نقاشا وهو ان الهوة التي تفصلهن عـــن النسوية البورجوازية كانت آخذة في الاتساع المستمر . ولقد كان للانشقاق ، على الصعيد التاريخي ، اهمية قصوى . فقد ارغمت الحرب العالمية الاولى والثورة البلشفية نصيرات المرأة على تحديد موقفهن بوضوح ، بعد ان جاء منح المرأة حق الانتخاب ليقطع آخر وشيجة جمعت بينهن فيما مضى . كان قد بات من المستحيل بعد ١٩١٧ على اي حركة سياسية ان تستمر على نفس خط سلوكها السابق بدون اي تغيير . وينطبق ذلك على الحركات النسائية ايضا . وتشاء سخرية القـــدر الغريبة ان تقوم نساء باتخاذ القرار . ففي ٢٣ شباط نظمت النساء تظاهرة سلمية بمناسبة «يوم النساء العالمي» . وقد قر قرارهن يومئذ ـ رغم النصيحة المعاكسة التي أسدتها جميع التجمعات السياسية المنظمة ، بما فيها البلاشفة ، اذ كانت تتخوف من تدخل الشرطة وسفك الدماء بلا مسوغ ـ على اعلان الاضراب. فأرسلن وفودا الى المصانع؛ وتوقفت آلاف العاملات عن العمل ، وانضم اليهن البروليتاريون ونساء الطبقات المتوسطة اللاتي مستهن أزمة المواد الغذائية وارتفاع الاسعار . وجرى استدعاء الجيش الذي رفض ، على كل حال ، فتح النار على نساء . ونزل العمال في اليوم التالي الى الشوارع ، وقد شجعهم ذلك النجاح .

---

١ ـ «اوراق سلفيا بانكهورست» ، «مجلس ايست لندن فيدراشن» ، ٢٨ شباط ١٩١٤ ، معهد امستردام للتاريخ الاجتماعي .

تنطوي النشاطات والتنظيمات النسائية على وجوه تشابه لا مرية فيها . فبعض الاعمال تلبي حاجات محددة في أوضاع محددة ؛ وبعضها الآخر مرتبط بحاجات جديدة تتيح الاحداث الخارقة للمألوف والمواكبة لثورة من الثورات امكانية استشفافها ولكن ليس تلبيتها ؛ وهي في الاصل حاجات مشتركة بين جميع الحركات حتى غير الثورية منها ؛ فمفاهيم الديموقراطية والمساواة والحرية والرفاهية تستخدم كمبرر نظري لمطالب النساء . ولقد كمن على الدوام ضعف النسوية الثورية في انعدام التلاحم ، سواء أعلى الصعيد العملي ام النظري . صحيح ان النساء انشأن في مطلع القرن العشرين تنظيمات عالمية هائلة الحجم لا تتساوى من قريب او بعيد مع أحجام التنظيمات والمؤتمرات المعاصرة . لكنهن لم يفلحن قط في الوصول الى مكافحة فعالة وناجعة للقدرية والسلبية والخجل وانعدام الثقة بالنفس وما الى ذلك من السمات التي ميزت النساء على الدوام ما دامت الازمنة هادئة . وقد امكن لسورات البطولة التي لوحظت مواكبتها للانتفاضات والتشنجات الثورية والصناعية ان تكتسح في بعض المرات حياء النساء . لكن ما أمكن قط قهر هذا الحياء بصورة دائمة .

كذلك لم تتمكن النساء من ابتكار شكل تنظيمي ونظرية قادرين على كشف وإثارة المظاهر الخاصة والنوعية لاسترقاق المرأة والاضطهاد العام الذي يرزحن تحت نيره هن والرجال سواء بسواء ، وقمينين بتقديم اساس لعملهن ونشاطهن . صحيح أنهن تركن ذكرى تاريخية لعدد لا يقع تحت حصر من المحاولات التي قمن بها لخلق منظمات تأخذ بعين الاعتبار وجهة نظرهن النسائية ، وطبقتهن ، وتعلقهن بمجتمع لا يتعرض فيه اي انسان ، كائنا من كان ، للاهانة والاحتقار والتجاهل ؛ لكن سرعان ما دب الوهن والذبول في ميراث تلك النسوية الثورية في زمن لاحق . ولم تعد الذاكرة تعي سوى تلك النسوية الاخرى التي رأت النور في صفوف الطبقات العليا من المجتمع وانتشرت رويدا رويدا حتى وصلت الى القاعدة ، لكن التي كان هدفها الاساسي اتاحة الفرصة لذوات الامتياز من النساء للتأقلم مع الرأسمالية . وبالرغم من كل الانشقاقات ، ومن كل ضروب المعارضة من جانب الرجال ، كانت المطالب ذاتها تعاود ظهورها ، ومعها العديد من الاسئلة ، التي غالبا ما تجاهلها الثوريون الذكور ، حول الحياة الجماعية ، وسلطة الاسرة ، والدمى التي بفضلها يحقق الاطفال اتصالهم الاول مع العالم .

هكذا كافحت المناضلات جميعا من الطبقات الاجتماعية كافة ضد العدو الداخلي والعدو الخارجي معا . وقد كان عليهن ان يتغلبن على صمتهن الاول ، على شللهن ، على عادتهن في القاء تبعة شؤون هذا العالم على عاتق الرجال . هذا مع انه لم يكن هناك مناص من ان يتحملن قسطهن من المسؤولية ! لم يكن في مقدورهن الاكتفاء بالمطالبة بالخبز ، اذ كانت قلوبهن ينهشها جوع ضارٍ لم يترك لهن مجالا ليعرفن اين يجب البدء وبأي شيء :

«يا أخواتي ، لا نقل : «لا نستطيع شيئا» ...

لا حيرة بعد اليوم ،
لا تردد .
لنطرح السؤال على انفسنا بواضح العبارة :
ماذا نريد ؟
نريد انعتاقنا التام والشامل .
دعنهم يضحكون ، فسيأتي يوم يكفون فيه عن الضحك .
أبعيد جدا ذلك اليوم ؟
ليكن !
الصعاب ، الآلام ، الصراعات
كانت من قسمتنا ، والسعادة ستكون لاخواتنا ،
للنساء اللاتي سيرين النور من بعدنا .

ايتها النساء ، أجبن على الرجال الذين يسألونكن : ماذا تردن ؟ ماذا تبغين أن تفعلن ؟ أجبن : ان نعيد معكم بناء عالم جديد يسوده السلم والحقيقة ، نريد أن تستقر العدالة في النفوس جميعا ، والحب في القلوب كافة» (١) .

---

١ ـ «صوت النساء» ، ٢٣ و٢٨ اذار ١٨٤٨ .

-٦-

اذا كنت تحب الزلاجة ...

«٢٣ شباط ١٩١٧ :

دونما اعتبار لتعليماتنا ، أعلنت عاملات عدة مناسج الاضراب وارسلن مندوبات الى عمال التعدين طلبا لمؤازرتهن ...

لم يخطر في بال اي شغيل ان ذلك اليوم قد يكون اليوم الاول للثورة ...

لقد بدأت ثورة شباط من القاعدة ، واكتسحت مقاومة المنظمات الثورية : فالمبادرة انما اتخذتها عاملات الصناعة النسيجية اللواتي كانت العديدات منهن في الارجح زوجات جنود. كانت الصفوف امام المخابز هي نقطة الماء التي جعلت الاناء يطفح. ففي ذلك اليوم اضرب ٩٠،٠٠٠ شغيل ، رجالا ونساء . وقد تجلت نضاليتهم في حركات شعبية وتجمعات وصدامات مع الشرطة . وتقدم موكب نساء ما كن جميعهن ببروليتاريات الى الدوما البلدية للمطالبة بالخبز . فلكأنك تطلب من التيس لبنا . ارتفعت أعلام حمر في أحياء شتى من المدينة ؛ وكانت الشعارات المنقوشة عليها تبين ان الشغيلة يريدون خبزا ، وانهم سئموا من النظام الاوتوقراطي والحرب . وانتهى «يوم النساء» في جو من الحماسة، من دون ان تسقط ضحايا . لكن عندما أرخى الليل سدوله ، لم

يكن هناك انسان واحد بخامره الشك في دلالته الحقيقية» .

ل. تروتسكي

«تاريخ الثورة الروسية» .

«طريق المراة يفضي الى الفرن» .

«حسبتهما شخصين ، ولكنهما ما كانا الا زوجا من الناس».

مثلان روسيان .

«انذار من جميع ساكنات قرية فرتيبفكا المتزوجات الى جميع ساكني قرية فرتيبفكا المتزوجين .

نحن النساء المتزوجات القاطنات في قرية فرتيبفكا ، نحن اللواتي نعيش في شروط صعبة ، يضربنا أزواجنا ويهينوننا ويعاملوننا معاملة الماشية ، ما عدنا على استعداد لان نتحمل في المستقبل مثل تلك الاهانات ، ولهذا نوجه الى رجال القرية الانذار التالي : اننا نوافق على العمل في البيت ومساعدة أزواجنا ، لكننا نطلب بالمقابل ألا يستبيحونا كيفما شاؤوا ، والا يلجؤوا الى استعمال الايدي ، والا ينعتونا بعد اليوم بـ «العجائز المزعجات» و«الماهرات» و«النجسات» وما الى ذلك من الصفات التي يتعذر ذكرها . اننا نصرح بأننا لن نفترق عن بعضنا بعضا ولن نعود الى أزواجنا قبل ان يبصموا جميعهم اسماءهم في اسفل هذه الورقة » .

تقرير اكسينايا كاراسيفا عن قرية فرتيبفكا ، حكومة بريانسك ، اواسط عام ١٩٢٠ .

«الرجال عرضة لجميع ضروب الملامة . لكنها غلطة المراة في اغلب الاحيان. اذا ما تحللت الاسرة ... يأتي شاب تترنم شفتاه بأغنية ويعزف على الاكورديون ... فيسرعن الى الجينودتل ويتقولن بالسوء على أزواجهن . هناك تجتمع لجنة بكاملها من النساء ، من دون ان يعلم الزوج عن الموضوع شيئا ـ وتنهشه الاسنان القواطع» .

توفاريش موتيش ، سيبيريا ، مؤتمر ١٩٢٥

«أتأخذك الدهشة لانني لا أحرص على الوقوع في غرام الرجال، أنا التي أحيا بين ظهرانيهم ؟... لقد قرات الكثير من الروايات، وانا اعلم ان الحب لا غنى له عن هدر الوقت والطاقة ... فهل نعمت بأوقات فراغ في السنوات الاخيرة هذه ؟... اذا شعرت بانجذاب الى رجل مستدعى الى الجبهة او الى مدينة اخرى، فاما ان تكوني مشغولة الى حد لا تفكرين معه بالامر ، وإما ما الضرر في هذه الحال من ان تحبي لبضع دقائق ، الشيء الذي قد

يجلب نزرا من السعادة لكليكما معا ؟»

جنيا ، في «حب ثلاثة اجيال»

بقلم الكسندرا كولونتاي .

«الغرض من الحب مد جسور وإنجاب اطفال ... والموجزات في زراعة البساتين والحدائق هي وحدها التي تتكلم عن الورود، وليس مكان أحلام اليقظة الا في كتب الطب» .

فلاديمير ماياكوفسكي

«الفسافس»

«لا نحب القصص الخرافية .
فهي تبدو لنا في آونتنا هذه
أشبه بسياج مزهر منصوب
على سطل زبالة ، كلمات حلوة
تحجب الفراغ ـ عاجزة عن أن تعيد
الى الهياكل العظمية لحمها الحي ...
فأنت فتاة ، ومن رابع المستحيلات
ان تهربي من مشكلتك .
في روسيا الامس
كانت النساء يعلقن ازهارا
على أكتافهن حين يسرن ، مقيدات ،
الى جانب أحبائهن ،
والحراس الافظاظ ينهالون عليهم ضربا
في منفاهم السيبيري .
في روسيا اليوم ،
الرجال والنساء ، الفخورون بعملهم ،
المتدفقون جراة ، يطرحون عنهم البريق
الخدّاع المغموس بالدم ،
ويأخذون اجازاتهم الصيفية ليقضوها
في السهوب ، حيث يتمتعون بالالعاب
البريئة ، بالازهار ، بالوعود ، بالوفاء ،
يتألقون ويتفتحون في الضياء ،
وينضجون شاؤوا أم ابوا
في ربعان شبابهم .
عودي خلسة ذات يوم ولو لساعة من الزمن
الى زمن البنفسج ، احلمي
بحنان بلا إكراه ،

في ظل حرية آتية هي لا ريب يوما ،
ثم خبئيه في قلبك ، واظهري قوتك الخفية التي لا تقهر
وانت تقومين بالحراسة في فرقة الاضراب ،
في كل مكان من العالم ،
انت ايتها الثورية الصبية !»

«الى فتاة ثورية»

ماكسويل بودنهايم في « الجماهير الجديدة » ،

الولايات المتحدة ، ١٩٣٤ .

«طرحتني الاوكرانيات الصبايا صريعا ، الغرب تركنه بعيدا خلفهن ، والموسكوفيات الشابات يحملنني على الغناء والصياح ، وبنات جيورجيا لا يغادرن فكري» .

البيتلز

«العودة الى الاتحاد السوفياتي» .

لا تخلو الكثير من صور نساء الثورة الروسية التي وصلت الينا، من الاصطناع والتزوير . وقد امتدت يد التلفيق الشامل او التحريف الارادي الى عدد من أوصاف النشاط النسائي . وقد أورثنا الرجال روايتهم للدور الذي ارادوا ان يروا النساء يقمن به . هكذا اتحفتنا الستالينية السوفياتية بصورة أولئك البطلات الممتلئات لحما والمتوردات جلدا ، الشرهات الى الامومة ، مثلما اتحفتنا بصور غروب الشمس والجرارات وغيرها من صور الواقعية الاشتراكية . وفي هذه «الذكريات» او تلك يتبجح تروتسكيّ عتيق بالكلام عن «واجبات المرأة» ويروي لنا كيف تآخت النساء مع عساكر الجيش . وهناك كذلك النساء اللائي اخترعهن اليمين في الاقطار الغربية : فشبح عملية التشيكا (١) المشؤومة يتسلط على روايات الجاسوسية ــ شبح امرأة معروقة ، يابسة ، قابعة في زيها الرسمي خلف مكتبها، محتقنة حقدا ، تحاكم الرجال بلا ادنى شفقة . وهناك ايضا جميلات النساء الناجيات من انضباط الحزب الصارم ومن فظاعات الثورة ــ فغريتا غاربو في «نينونتشكا» تستسلم للاغواء الرقيق وتتبختر في اناقة غير انيقة ؛ ومن هذه الروح نفسها قدّت جولي كريستي وازهار النرجس البري في « الدكتور جيفاغو » .

ان الحب وازهار النرجس هي دوما وابدا في الجانب الآخر . فكل ما ترغب فيه امرأة رغبة «حقة» يأتيها من الغرب «الحر» . النساء يقفن تماما خارج صف

---

١ ــ الشرطة السرية السوفياتية . «م»

الثورة . وهنا بالضبط تختلط صور اليمين واليسار : فالنساء ، كما جرت العادة على النظر اليهن ، اكثر هشاشة واشد تخلفا من ان ينصعن لمقتضيات السياسة بكل ما تنطوي عليه من جسامة . لقد تمت **الثورة** رغما عنهن .

صحيح ان عاملات التلفون اللائي يصفهن جون ريد في «عشرة ايام هـــزت العالم» كن يشحن بوجوههن مذعورات عن الشغيلة ، وصحيح ان لويزا بريانت صادفت شابات يقاتلن الى جانب البيض . لكن ثمة نساء غيرهن نهضن في ربيع ١٩٢٧ ، مدفوعات لا بشروط العمل وحدها ، بل ايضا بارتفاع الاسعار . كـــان شعارهن «الخبز والسلم» ، وما كن يفكرن الا بما هو فوري . ذلك امر نعلمه حق العلم ، لكننا نجهل من اين أتين ، من كن ، ما كانت مشاعرهن ، إلام آل مصيرهن. انهن يرقدن مطمورات تحت كفن من الصمت . وقد امحت صورتهن ، ونابت في بعض الاحوال صور جديدة محل القديمة . ويشق علينا ان نعيد تكوين اللوحة ، اذ يتوجب علينا في مثل هذه الحال ان نخترق عدة طبقات من التأويلات السياسية: فكل ما أنجزته النساء القي به إلى المؤخرة . وقد ارتأى مؤرخو الثورة الروسية ان المشكلات الاخرى اعظم اهمية بما لا يقاس . لكن وقع الثورة على النساء لـه مستتبعات تتجاوز من بعيد مشكلة تحرر المرأة كمشكلة نوعية . فالعالم الذي تفتحه الثورة للمرأة لا يقبل انفصالا عن ذاك الذي تفتحه للرجل . وقد غابت هذه الحقيقة عن الذاكرة لان الثورة الروسية تنظر اليها بعيون الرجال :

«لا شك في ان الانانية المذكرة لا تعرف من حدود في الحياة العادية . ولهذا يتوجب علينا ، حتى نغير شروط الوجود ، ان نتعلم كيف نراها بعيني امرأة» (١) .

صحيح ان تظاهرة النساء بمناسبة «يوم النساء» لم تكن لها نفس الاهميـــة **السياسية** التي كانت للايام التي أعقبتها ، لكن عملهن كان بعيد المدى لانه كان يقطع الصلة رمزيا بالاضطهاد الذي كانت النساء تئن تحت نيره . ولو كان يتوفر لنا حسن الاطلاع على تاريخ الحركة العمالية النسائية ، لكان امكننا ان نكوّن فكرة ادق عن التقدم البطيء الذي تحقق في مضمار الوعي والتنظيم والذي أمكن بفضله للنساء ان يرسلن مندوبات وان يأخذن بين أيديهن مسألة اعلان الاضراب . ولكننا اليوم في وضع يؤهلنا بالمقابل لفهم هموم النساء الفقيرات في عام ١٩٢٧ والمصائب التي كن يواجهنها ؛ فنحن نعتبر الكثير من الاشياء التي كافحن من اجلها بحكم الامـــور البديهية والمفروغ منها الى درجة ننسى معها الاهمية القصوى للاهداف التي لم يكن لهن بد من انتظارها .

لقد كانت السلبية والقدرية العلامة المميزة على الدوام للنساء الروسيات ؛ فقد كان خنوعهن شاملا ، على قدر تأخر البلاد وعلى قدر فقرهن الذي يند عـن الوصف ؛ وقد انتفضن ، بعد ان ساورهن ، على مدى قرون ، شعور بأنهن بلا وزن

ولا قدر ، وبأنهن يحيين بدون أمل في التغيير . وليس من المدهش ان ينظر الى المراة في بلد ، لم تلغ فيه القنانة الا في عهد قريب نسبيا ، وكأنها ملك يمتلك ، وليس من المدهش ايضا ان يكون الازدراء الفيزيائي لكل حياة انسانية قد انصب على جسد المراة في المقام الاول . ان الامثال السائرة الروسية تمجد الجلد الاجتماعي والجنسي . ولقد كان القمع والاستعباد العامان يتكرران في مضمار الحياة الخاصة . وكانت الاسرة معقل الاستبداد والسادية .

ـ ليس فرخ الدجاجة طيرا ، وليست الفلاحة كائنا انسانيا .

ـ اضربوا نساءكم ظهرا وعشية .

ـ سأحبك كخزنتي وسأنفضك كمعطفي الفرو .

ـ ليست المراة جرة ، ولن تتحطم اذا لطمتها بين الحين والآخر .

وكانت المراة تنتقم على طريقتها الخاصة : .

ـ لاهون عليك الاحتفاظ بكيس براغيث من الاحتفاظ بامراة .

كان الواقع الذي يختفي وراء تلك الصيغ الساخرة واقعا قاسيا . ففي الاسر الفلاحية ، جرت العادة على ان يقوم والد العروس بتسليم الزوج الشاب سوطا جديدا حتى يمكنه استخدامه في ممارسة سلطانه وفرض هيبته اذا ما حلا له الامر . وكان السوط الذي يعلق فوق الفراش الزوجي يرمز الى انتقال السلطة من والد الفتاة الى بعلها . وكان القانون القيصري يرغم المراة على «طاعة زوجها ، رب الاسرة ، وعلى ابداء ضروب المحبة والاحترام له ، وعلى الانصياع له بكل حب» . وكان ذلك يعني عمليا ان المراة مكرهة على ان تتبع زوجها حيثما ذهب . فما كان يسعها الحصول على جواز سفر او القبول بعمل ما من دون اذنه. وكانت كل مقاومة شبه مستحيلة . وكانت جميع الاملاك التي ترثها تعود شرعا الى الزوج. وكان من الصعب الحصول على الطلاق ، لان القرار مناط بالكنيسة التي ما كانت تسلم به الا في احوال قليلة محددة جدا . وكانت اجراءاته ، فضلا عن ذلك ، مكلفة للغاية ، الامر الذي كان يحول دون لجوء الفقراء اليه . وفي الاقاليم الشرقية، كانت النساء يتحجبن ، وكان تعدد الزوجات شائعا . ولكن حتى في مناطق روسيا الاخرى كانت الفلاحات غالبا ما ينبعن لمن يقدم اعلى سعر . وما كان من حقهن ، الا فيما ندر ، اختيار ازواجهن . كانت النساء في انظار الرجال عاملات بقدر ما هن شريكات جنسيات ، فلكأنهن جزء من الماشية . وكانت الفتيات يبلين اجسامهن بسرعة تحت وطأة اعبائهن ، وينهكن قواهن في الحمل والانجاب . كن يطبخن ، يحملن الماء ، يغسلن الغسيل في النهر ، يوقدن النار ، يحلبن الابقار ، يكدحن في الحقول ، يغزلن ، ينسجن . وفي الشتاء كان الموجيك يلزمون بيوتهم في الغالب، يشربون الفودكا ويضاجعون نساءهم . ولم تكن هناك وسائل لمنع الحمل . وكانت النساء يستشرن سرا القابلات المحليات اللواتي كن يقمن بعملياتهن وكل ادواتهن عبارة عن مسامير وبزل وجزر . وكانت عملية الوضع وكأنها الكابوس ، ونسبة وفيات الاطفال في غاية الارتفاع . وكان عدد القابلات ضئيلا . «كانت الام ممددة

على الفنور بين الحشرات واليقطين ، وكانت يدان خشنتان وقذرتان تستولدانها » (١) .

في المدن كانت النساء ، المتقاضيات من الاجور دون ما يتقاضاه الرجال ، يكدحن طوال ساعات كثيرة ، كاتمات حملهن أطول مدة ممكنة . وقد روت فيما بعد عاملات تقدمت بهن السن ولم يغب ذلك العهد البائد عن ذاكرتهن ، كيف كانت النساء يطردن من العمل بمجرد اكتشاف حملهن :

«كانت العاملات يحاولن اخفاء حالتهن الى ان يخرج الزبد من افواههن ويولد الطفل في المحل . وبعد الوضع يعدن الى العمل . هل يمكن ان يكون هنالك بالنسبة الى الأم شيء افظع من الا تكون سعيدة بإنجابها طفلا ؟ مع ذلك ، كانت الكثير من العاملات في ذلك العهد يلعن اطفالهن» (٢) .

في الصناعة ، ما كانت النساء يستفدن من اي حماية قانونية حتى عام ١٩١٢ ، سنة العمل بنظام للضمان محدود المدى اصلا . وكان البغاء العارض آخر ملاذ للعديد من العاملات ؛ وكانت المواخير تبارك من قبل الكهنة ــ لصالح الوضع القائم . وكان قتل المواليد عادة دارجة . لكن نساء الطبقات المتوسطة والعليا كن يتمتعن بحماية ناجعة جدا . ولئن كن يحيين في بحبوحة ، فإنهن كن يعادلن الاخريات في عجزهن . فقد كانت الصبايا يتعلمن فن الحياة، ولكن من دون تأهيل. وكانت التربية الجدية ينظر اليها وكأنها ضرب من عدم الحشمة . وكان كل شيء يتم سرا ، وكان افتضاح الامر يعني زوال الحظوة والسقوط .وحين كانت المرأة تتزوج ، كان زوجها يصبح هو المسؤول عن تسيير ثروتها . ولقد حطمت بعض النساء المنتميات الى اوساط مثقفة أغلالهن وانتسبن الى حركات ثورية ، ولكن سائر النساء كن ينظرن اليهن وكأنهن من المنبوذات .

لقد طوحت الحرب والثورة بذلك كله . تطايرت الاسر وتناثرت . تولت النساء اعمال الرجال ، ورحن يتعلمن مهنا جديدة . وتطوعت بعض النساء من الاسر الميسورة كممرضات . لكن عودة الرجال لم تعد مياه العهد السابق الى مجاريها . بل على العكس ، فقد جاءت الثورة لتكمل السيرورة التي كانت بدأت . في نيسان ١٩١٨ اذاع مجلس النقابات العمالية في بتروغراد بيانا بالغ الدلالة :

«ان النضال ضد البطالة هو من المشاغل الاساسية للنقابات . وقد تمت تسوية المسألة بمنتهى البساطة في العديد من المصانع والمخازن ... فقد طردت النساء لاحلال الرجال محلهن » (٣) .

---

١ ــ جسيكا سميث : «النساء في روسيا السوفياتية» ، نيويورك ١٩٢٨ ، ص ٦ .

٢ ــ نقلا عن ا.ج. شلسنجر : «اوضاع متغيرة في روسيا السوفياتية : الاسرة» ، لندن ١٩٤٩ ، ص ٣٢٨ .

٣ ــ سميث : «النساء في روسيا السوفياتية» ، ص ١٦ .

لقد اعرب مجلس بتروغراد عن رايه بأن ذلك الحل يتنافى والمبادىء التي يفترض فيها ان توجه اعادة تنظيم الاقتصاد على يد الطبقة العاملة . واوضح انه يرى ان الطريقة الوحيدة لوضع حد نهائي للبطالة هي زيادة الانتاجية على اساس اشتراكي . وفي غضون ذلك ، يجب ان تأخذ التسريحات التي تفرض الازمة ضرورتها في حسابها الوضع الفردي لكل شغيل ، سواء أكان رجلا ام امراة . «بهذا الشكل وحده نستطيع ابقاء النساء في منظماتنا والحيلولة دون انقسام جيش الشغيلة » .

لقد منحت النساء نفس الحقوق التي لسائر اعضاء الطبقة العاملة . وبذلك تحققت مساواة المراة في العمل ، وتم اعتماد معيار جديد في حال وفرة اليد العاملة وزيادتها عن الحاجة . وقد استفادت النساء استفادة جلى من معيار الضرورة ، اذ اعتبرت الامهات العازبات اشد الناس عوزا .

ولا تقل اهمية عن ذلك حماية المراة الحامل . كانت الكسندرا كولونتاي قد درست على مدى سنين عديدة ، قبل الثورة ، مشكلة مساعدة الأم . وبفضل الحاحها بنوع ما جرى تنظيم اجتماع الشغيلات الاول في بتروغراد بعد مرور ثمانية ايام فقط على تشكيل الحكومة السوفياتية ؛ وقد حضرته اكثر من خمسين الف امراة . وبالرغم من أن مشروع قانون حماية الامهات الذي وضعته الكسندرا كولونتاي اعتمد كأساس للمناقشة ، ضمّنت الشغيلات نص القانون خلاصة تجاربهن الشخصية . وكان مرسوم التأمين ضد المرض الصادر في ٢٢ كانون الاول ١٩١٧ الاول من نوعه في سلسلة من تدابير الحماية. وجرى تأسيس صندوق للضمان من دون اقتطاع من الاجور ، واستفاد من الضمان زوجات العمال مثلما استفادت منه العاملات . وفي كانون الثاني ١٩١٨ انشئت «وزارة حماية الام والطفولة» التي راحت تعمل بالتعاون الوثيق مع «وزارة المساعفة الاجتماعية» . وقد ضمنت للأمهات ستة عشر أسبوعا من العناية قبل الوضع وبعده . وصار من حق النساء الحوامل ان يعملن عملا خفيفا ، ولم يعد يجوز نقلهن او تسريحهن بدون موافقة مفتش العمل . وقد حظر عمل الليل على الحوامل والمرضعات . وانشئت دور حضانة وعيادات ومستوصفات. وقد تبدو لنا جميع هذه الاصلاحات محدودة الحجم ، بل بدائية ، لكنها ظهرت في روسيا عام ١٩١٧ بمظهر انجازات خارقة للمألوف حقا . وبالرغم من ان النساء استفدن من جميع مزايا تشريع العمل الجديد ، تروي جسيكا سميث انهن لبثن يعتبرن تأمين الامومة اهم الاصلاحات اطلاقا .

كان التشريع الجديد الخاص بالأسرة خارقا للمألوف تماما . فبعد ستة اسابيع من الثورة ، حل مكتب الاحوال المدنية محل الكنيسة في تسجيل الزيجات . وفي اقل من عام أقرت **شرعة الزواج** الجديدة التي تساوي الرجل والمراة في الحقوق ، والغت في الوقت نفسه التفريق بين الاولاد الشرعيين وغير الشرعيين . ولم يعد لهيمنة الرجل الشرعية في الاسرة من وجود ، ومنحت النساء الحق في اتخاذ

قراراتهن الخاصة بهن . وما عدن مكرهات على اتباع ازواجهن رغم مشيئتهن . وسهلت اجراءات الطلاق تسهيلا كبيرا ؛ وصار مجرد التصريح كافيا لتحويل الحياة المشتركة الى زواج ؛ كما صار في مستطاع الزوجين الانفصال على اساس اتفاق مشترك . واذا ما عارض احدهما الطلاق ، يصبح القرار من اختصاص المحكمة ؛ علما بأنه ابتداء من عام ١٩٢٦ صار بوسع اي من الشريكين الحصول على الطلاق بتوجيهه الى **مكتب تسجيل الزيجات** . وفي اول الامر ، كان الشريك مرغما على ان يدفع للشريك الآخر نفقة غذائية لمدة ستة اشهر اذا كان هذا الاخير بلا عمل او عاجزا عن كسب رزقه . وكانت الاملاك تتقاسم بحصص متساوية . وقد وضعت **شرعة الاسرة** لعام ١٩٢٦ حدا لهذا النظام . وقد هدفت الشرعة الجديدة الى حماية حقوق الفلاحات وربات البيوت فاعتبرت جميع الاملاك ملكا للشريكين . وصار للنساء حق في أجر في الزواج . وقد ضمنت تلك الشرعة ايضا حقوق النساء اللواتي يعشن في حالة زواج غير مسجل . وبالرغم من ان تشريع الزواج لم يطبق قط تطبيقا متماثلا ــ فأقاليم الشرق لم تعترف قط ، على سبيل المثال، بزيجات «الامر الواقع» ــ فانه ادى مع ذلك الى تحول عميق في شروط حياة المراة الروسية .

فيما كانت جميع تلك الاصلاحات تأخذ طريقها الى التطبيق ، ما كانت النساء يكتفين بمجرد دور المتفرجات . وقد كان من نتيجة اجتماع بتروغراد انشاء لجان مكلفة بتعريف النساء بحقوقهن . وعندما اتضح انها غير صالحة لاداء مهمتها ، انشئت في عام ١٩١٩ «وزارة عاملات وفلاحات الحزب الشيوعي» ، المعروفة باسم «جينوتدل» . وقد اصطدمت ، في البداية ، بمقاومة بعض البلاشفة الذين اعتبروها مفرقة في طابعها «النسوي» .

لم تحد الجينوتدل عملها بتربية النساء ؛ فقد كانت تعمل ايضا على أشراكهن في الحياة السياسية . ففي البدء ، عبأت النساء للحرب الاهلية ولمكافحة المجاعة. فذهبت «الممرضات الحمر» بالآلاف الى الجبهة ، وتطوعن كعسكريات ، وحفرن الخنادق ، ونصبن حواجز الاسلاك الشائكة ، وقمن بنشاط سياسي وتربوي في منطقة المعارك . وقد ضم الجيش الاحمر متطوعات لحرب الانصار ، وكان منهن من يقدن الرجال . فيرا الكسييفا على سبيل المثال ، العاملة في مصنع للسجاير والثورية التي اعتنقت البلشفية ، عينت قائدة لمجموعة من الرجال المغاوير ، وقد طاردت على مدى اسابيع «البيض» في اوكرانيا . ثم تولت بعد ذلك مسؤولية الجينوتدل المحلية ، واخذت على عاتقها تنظيم جماعة من الفلاحات المستخدمات في مصنع للنسيج . وقد روت لجسيكا سميث كم كانت صعبة عليها عملية اعادة التكيف :

«بعد اقرار الصلح ، عهد اليّ بمجموعة من النساء . وقد استقبل تعييني في كل مكان تقريبا بالضحك . كان من الصعب عليهم ان يروني في دور فلاحة . ولقد شق عليّ انا نفسي الاعتياد على تلك الفكرة . فقد كنت الفت قطع البلاد طولا

وعرضا وارتداء ملابس الرجال ... اني لاتذكر اجتماع النساء الاول الذي دعوت لانعقاده . لقد شجعت اولئك النسوة على ان يعرضن امامنا مشكلاتهن . وقد نهضت الواحدة منهن تلو الاخرى لتعرض مآسيها . كانت كل واحدة منهن قد عانت من الثورة والمجاعة ، واصطدمت بالصعاب في حصولها على خبز وملابس وعمل . وكانت كل واحدة تسأل لماذا يصب عليها هي بالذات سوء الحظ مصائبه. اما اليوم فقد اعتدن اخيرا على الكلام عن مشكلاتـ«نا» ، عن تنظيم مزاود«نا» ، عن العناية الواجب توفيرها لاطفال«نا» ، عن تحسين شروط حياة«نا» . وانه لنجاح كبير ان نكون قد علمنا جميع اولئك النساء ان يفكرن ويعملن على اساس جماعي » (١) .

كثيرا ما كانت الجينوتدل تعبىء النساء اول الامر بصدد مسألة عملية . تقول فيرا الكسييفا شارحة : «اذا لم نتوصل الى اثارة اهتمامهن بطريقة ما ، جربن طريقة اخرى . ثمة كثير من النساء لا تؤاتيهن الرغبة في حضور اي اجتماع ، ولكن ما ان نقترح عليهن شيئا عمليا حتى يأتين افواجا» . كن يجتمعن احيانا للخياطة ، للاستماع الى حديث في السياسة ، في فن رعاية النسل ، في الجنس . وكانت تلك الاجتماعات تتمخض عن انشاء حلقات نقاش . وقد سعت الكسندرا كولونتاي لانشاء شبكة من النوادي النسائية تمتد حلقاتها حتى الى الاقاليم الشرقية من البلاد . وكانت مؤتمرات النساء تقيم الاتصال والارتباط بين اعضاء المجموعات المحلية . وكانت التجربة التي تكتسبها النساء في منظماتهن المحلية تتيح لهن اسماع صوتهن في تظاهرات النقابات العمالية ، والمداولات العامة ، واجتماعات الحزب . وقد نبهت الكسندرا كولونتاي الصحفية الاميركية لويزا برايانت الى ان اهمية مؤتمرات النساء لا تكمن في عملها السياسي المباشر فحسب ، بل ايضا في ما كانت تعطيه للنساء من ثقة بأنفسهن وما تتيحه لهن من عرض لحاجاتهن كنساء على الرجال . فلاحة حضرت احد تلك المؤتمرات عادت الى القرية محملةبالكراسات والاعلانات الجدارية ، غنية بما حازت من فهم افضل لما يجري فيما وراء حدود حياتها الضيقة . في ١٩٢٥ ، تكلمت كاير نيسا ، وهي فتاة في الثانية عشرة من الشرق الاسلامي طردها ذووها بعد حضورها اجتماعا لاحد نوادي النساء فتكفلت برعايتها نساء أخريات ، تكلمت امام احد المؤتمرات بصفتها مندوبة : «لم نعد نطيق التحجب ... لم نعد نطيق ان نعيش اسيرات في حجر رديء التهوية ، ان نباع في ربيع حياتنا لشيخ طاعن في السن ، ان نشوه جسدا وروحا ، ان نكون في المرتبة كالعبيد » (٢) .

كانت تلك الثقة الجديدة بالنفس تجد تعبيرها احيانا في انتقادات توجه الى

---

١ ـ جسيكا سميث ، المصدر المذكور ، ص ٥٣ ـ ٥٤ .

٢ ـ فانينا هال : «المرأة في الشرق السوفياتي» ، لندن ١٩٣٨ ، ص ١٨١ .

الرجال . فقد صارت النساء يشعرن بالهوان والمذلة من مواقف لم يسبق لهن أن لاحظنها حتى مجرد ملاحظة في الماضي . صرحت فلاحة في اثناء المناقشات التي سبقت اصدار قانون الاسرة في عام ١٩٢٦ :

«لا نزال مقصيات جانبا ، ولقد كنا كالإماء على امتداد قرون . لم يعلمونا شيئا خلا هذر الكهنة ... الذي بدأنا ننساه ... «على المراة ان تهاب زوجها !» ... ان رفاقنا الذكور اكثر اطلاعا منا بعض الشيء. والواجب يقضي عليكم بأن تقاسمونا معرفتكم ، ولا يكفي أن تضحكوا وأن تسخروا منا ، فهذا مسلك لا يوصل الى شيء ، وعلى الاخص من جانب رفاق مستنيرين ، اعضاء في الحزب . ما تلك هي الرفاقية الحقة : انني أعد مثل ذلك الموقف اهانة» (١) .

هذا مع ان الكثيرين من قادة الحزب كانوا ينادون بانعتاق المراة . لكن كان يسود تشويش كبير بصدد طريقة تحقيقه. على الصعيد النظري، كانت الاصلاحات قد حققت تقدما هاما . وكانت العلاقات بين الجنسين تثير مشكلات . وكان من المسلم به بوجه عام أن «البروليتاريا لا تستطيع انجاز تحررها الكامل ما دامت النساء لما يتحررن كامل التحرر» (٢) . وكان من الواضح ايضا ان انعتاق المراة لا يستدعي اصلاح عمل النساء فحسب ، بل ايضا اصلاح وضع المراة ضمن الاسرة. وعلى عاتق **الثورة** تقع مهمة اعادة تنظيم الانتاج والإنسال على حد سواء . وقد قر راي الجميع على القول بالحاجة الى نساء متحررات من سخرة الاشغال المنزلية . وللوصول الى ذلك علقت الآمال على تشريك الاشغال المنزلية بواسطة مطاعم عامة ومطابخ جماعية ومغاسل عامة ومراكز للمساعفة المنزلية ومخيمات صيفية للاولاد. فلو انزل عن كاهل المراة عبء مهامها المنزلية ، لامكن وضعها في خدمة الانتاج . وقد الح لينين على تأثير العمل على الوعي النسائي . وكان يرى انه بوسع المراة ان تستعيض عن عزلة عالم الاسرة الصغير وقدريته باكتشاف عالم كبير جديد للنشاط والاشعاع العام .

كان لاندماج المراة في الانتاج مظهر آخر ، هيمن على ما عداه بعد وفاة لينين: فقد راح الاقتصاديون السوفياتيون يحسبون عدد الساعات التي تضيعها النساء في اشغال منزلية غير منتجة . ومن هنا جاءت الفكرة القائلة ان انعتاق المراة ضروري اقتصاديا لتأمين الشروط المادية التي تتيح امكانية بناء الاشتراكية . وهكذا كان شعار «لندمر الاسرة» يجد تبريره سواء امن منظور النجع الاقتصادي ام من منظور مصلحة انعتاق المراة .

كانت الكسندرا كولونتاي تعد الاسرة مؤسسة ثقافية ، الغرض منها تأبيد القيم القديمة المرتبطة بالاستبداد والسيطرة . فما دامت الاسرة باقية على شكلها

---

١ ـ شليسنجر : «اوضاع متغيرة في روسيا السوفياتية : الاسرة» ، ص ٩١ .

٢ ـ لينين : «حول تحرر المراة» ، موسكو ١٩٦٧ ، ص ٧٩ .

التقليدي ، كان يستحيل على الشغيلة انجاز انعتاقهم الاجتماعي الكامل . «الراسماليون انفسهم يدركون اتم الادراك ان الاسرة التقليدية التي لا تعدو المراة فيها أن تكون جارية بينما الرجل مسؤول عن تأمين رغد الاسرة بكاملها ... هي خير وسيلة لشل مجهود البروليتاري الرامي الى تحرره» (١) .

ويردد تروتسكي الحجة ذاتها في «مشكلات الحياة» ، وهي محاضرات القاها امام جمهور من العمال ؛ وهو يوغل الى أبعد من ذلك في محاجّته ويؤكد : «ما دامت لم تتحقق ، في داخل الاسرة ، مساواة الرجل والمراة على الصعيد القانوني وفي شروط الحياة سواء بسواء ، فلن يكون مجال للحديث بجد عن مساواتهما في المضمار الاجتماعي او حتى السياسي. وما دامت المراة اسيرة اعبائها البيتية ، والعناية التي يتوجب عليها أن توفرها للاسرة ، واسيرة المطبخ والخياطة، فان فرصتها في المشاركة في الحياة الاجتماعية والسياسية تكون ضئيلة» (٢) .

ولجميع تلك الاسباب انعقد الراي ، في السنوات الاولى من **الثورة** ، على ان الاسرة ستنطفىء رويدا رويدا مع مخلفات اخرى من العهد الراسمالي . والمسألة هي بكل بساطة مسألة معرفة كم من الزمن ستستغرق المرحلة الانتقالية ، وما الجهود التي ينبغي بذلها لاجتيازها . وقد أوصى تروتسكي، في بداية العشرينات، بمبادرات خاصة لخلق بنى ثقافية جديدة : اذ ان البنى الاسرية النهائية مرتهنة بخلق شروط مادية جديدة ؛ وبالفعل ، كان التأخر الاقتصادي يحول دون امكان خلق مؤسسات جماعية . وعليه ، فقد شجع تروتسكي الناس على «التجمع في وحدات منزلية جماعية» . وأوضح انه من الضروري التخطيط لتلك الوحدات وتنظيمها بعناية ، بالتعاون الوثيق مع السوفييتات المحلية والنقابات العمالية. وقد تخيل تروتسكي هندسة معمارية جديدة ـ مساكن مجمعة بحسب حاجات تلك «الجمعيات التشاركية» . «ان طريقنا الوحيد للافلات من قبضة الازمة الراهنة هو خلق مشاعات نموذجية» . والمفروض بهذه المشاعات ان «تحرر الخيال الخلاق والمبادرة الفنية» لدى الجماهير ، في الوقت ذاته الذي تحول فيه وتغير «الشبكة المعقدة للحياة الشخصية والعائلية» .

ما ان بدىء بتشديد النبرة على تحرر المراة حتى كان الاصطدام بمشكلة البيضة والدجاجة ، مشكلة الحضارة الجديدة وقاعدتها المادية . يعرض نايستا المشكلة ببساطة كبيرة في «كومونات الشبيبة» ، باسطا بمنتهى الوضوح نظرية الانتقال :

«لا يمكن للمجتمع الجديد وللاسرة الجديدة ان يتفتحا الا حين تتحقق الشروط

---

١ ـ ا. كولونتاي : «الاسرة والدولة الشيوعية» ، باريس ١٩٢٠ .

٢ ـ ل. تروتسكي : «مشكلات الحياة» ، ص ٤٨ . والشواهد التالية من الصفحات : ٥٩ ، ٦٨ ، ٩٤ .

الاقتصادية الضرورية . ولهذا فانه من السابق لاوانه التفكير باعادة البناء الشاملة للحياة على اساس اشتراكي ... نحن نبدأ بتحقيق الشروط الاساسية للحيـــاة المشركة ، على اعتبار ان الكومونة هي نموذج المجتمع الاشتراكي المقبل . لكن حتى في هذا الطور يختلف الزواج في الكومونة بكل جلاء عن الزيجات المعقودة في اماكن اخرى . انه بمثابة استباق للزواج في المجتمع الاشتراكي من حيث ان الروابط الاقتصادية لم تعد تلعب دورا فيـــه على صعيد العلاقات المتبادلـــة بين الزوج والزوجة . وتنطبق الملاحظة ذاتها على مسألة الاولاد ، بالرغم من ان الكومونات لا تزال تفتقر الى الخبرة في ذلك المضمار . في السنوات الاولى لم تكن الكومونات ترغب في تحمل عبء الاولاد ، وذلك لاسباب مادية . لكن الكومونات تضم اليوم عددا كبيرا من الاولاد» (١) .

ويتوسع الكاتب بعد ذلك في الطرائق التي تتيح امكانية استشفاف ملامـــح المجتمع الجديد من الان مّن خلال مؤسسات انتقالية . وكما يلاحظ رايش بسداد كبير ، كانت الاسر الجديدة عرضة لاغراءات قوية في العودة الى القيم القديمة ، وذلك ما دامت الندرة هي السائدة على الصعيد المادي،وطالما انه لم توضع اي نظرية بصدد الاوالية العينية التي تربط التغيرات الاقتصادية والاجتماعيـــة بالتحرر الجنسي . ويوضح المؤلف كيف ان ضيق المكان في كومونة للشباب اسست فـي عام ١٩٢٤ لتدارك ازمة السكن أودت بأعضاء الكومونة الى المناداة بالزهد الجنسي. وكان الازواج يطالبون بغرف خاصة . وقد امتنع سائر اعضاء الكومونة عن الزواج حتى لا يحدثوا انقسامات وتحزبات في داخل الجماعة . لكن لم يكن امامهم مناص في النهاية من التراجع عن موقفهم ، حتى ولو استغنوا عن الأطفال الذي ما كان لهم في الكومونة متسع . ولئن تابعوا النضال على الصعيد العملي ، فقد استسلموا على صعيد التحرر الانساني والجنسي . فقد كان الاختلاء لممارسة الحب يعد فعلة لا اخلاقية . ولم يكن هناك اي اجراء لتأمين السعادة الجنسية لاعضاء المشاعة . بل على العكس ؛ فقد رفع عدم التلبية وعدم الاشباع الى مرتبة الفضيلة . ولما لم يكن الجنس عنصرا صريحا واساسيا من **الثورة** ، فقـــد كان عليه ان ينصاع للمقتضيات الاقتصادية الآنية . ويؤكد رايش في «الثورة الجنسية» انه كان مـن الخطأ مناقشة «الاساس الاقتصادي» بدلا من اعتماد «أسلوب جديد في الحياة» ، اذ ان تحولات الحياة الجنسية والشخصيـــة ليست مجرد تابعـــة للتحولات الاقتصادية . ويقدر رايش ان المحاولة المبدئية **للثورة** لخلق الشروط الخارجيـــة لتحرر المراة كانت سليمة الاتجاه . لكن الثوريين اخفقوا او تراجعوا في اللحظة التي بدات فيها التغيرات الخارجية تتغلغل الى باطن الوجدان .

كان الصراع في داخل الحزب الشيوعي يتركز حول الوسائل القمينة بأن تخلق

---

١ ـ نقلا عن هال : «المراة في روسيا السوفياتية» ، ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧ .

حضارة جديدة . وتروي لنا الكسندرا كولونتاي قصة تلك المساجلة في روايتها «الحب الحر» التي تحمل احيانا عنوان «الحب الاحمر» ، وهو في راينا أقرب الى الدقة . تعرض بطلة الرواية فاسيليسا ، وهي نقابية سابقة ، على بيروقراطي من الحزب شروط الحياة في «المشاعة المنزلية» التي عاشت فيها . كانت شروطا صعبة لان اعضاء المشاعة كانوا يتشبثون بالمفاهيم القديمة عن التنافس والانانية . وتؤكد فاسيليسا انه من المفروض الا تبقى «المشاعات المنزلية» مجرد حلول اتفاقية ومؤقتة لمعالجة ازمة السكن ، وان تتحول الى «مدارس» مهيأة لتغذية «الروح الشيوعية» . وكان هذا الاقتراح يتفق كل الاتفاق مع افكار العصر في علم التربية: فقد كانت هناك رغبة في دمج التربية بالحياة الاجتماعية ، وكان هناك اعتقاد بقرب نهاية جميع المؤسسات التربوية المتخصصة . لكن موظف الحزب فوجيء بالاقتراح: فالتربية في نظره من اختصاص المدرسة والجامعة ولا دخل لها بمسائل السكن. لقد راح الناس يعودون الى التصورات القديمة لانهم لا يعرفون تصورات اخرى...

كانت تلك هي الحال ايضا على الصعيد العائلي . كانت الحياة الخارجية قد تحولت . لكن عقلية الناس بقيت على حالها . لبثت النساء يتشبثن بأدوات مطبخهن الفردية ويرتبن كل الارتياب في الحلول البديلة التشاركية . يكتب عضو كومونة في «يومياته الحميمة» : «حملت غلايتي الكهربائية الى الكومونة، لكن الناس يعاملونها بإهمال وازدراء . لمَ حملتها اليهم ؟» . ولم يكن يدور حديث كثير عن المشكلات الجنسية ، لكن كان من الواضح ان النساء تكيفن من جديد مع شرطهن الدوني السابق . يلاحظ ياروسلافسكي ، وهو موظف في الحزب ، بذلك الصدد: «سن القوانين الصالحة شيء ، وشيء آخر خلق الشروط العينية القمينة بأن تنفخ فيها الحياة» (١) .

بالاضافة الى غياب كل نظرية قادرة على تفسير المظاهر الشخصية والجنسية للحياة ، نجد هناك المصاعب الاقتصادية الثابتة وتركة هائلة من التخلف الاجتماعي والثقافي . كانت جميع تلك المشكلات أشد وطأة على النساء منها على غيرهن . فالنساء لم يتمكنّ قط من الاندماج في الصناعة كما كن تخيلن . فبعد مرحلة «شيوعية الحرب» ، التي كانت فيها بطاقات التقنين توزع بحسب العمل ، كان نصيب النساء في الانتاج الاجتماعي واهيا . اما في مرحلة «السياسة الاقتصادية الجديدة» فلم يكن هناك ، بكل بساطة ، من استخدامات شاغرة لتقديمها للنساء. ومن جهة أخرى ، لم يكن العمل الذي تقدمه الصناعة للنساء يستأهل في غالب الاحيان ان يعتبر «تحررا» من السخرة المنزلية : فتأهيل يد عاملة متخصصة مسألة تستغرق زمنا طويلا ، والحال ان النساء كن يفتقرن الى اي ضرب من ضروب التأهيل المهني . كانت مصانع جديدة تشاد ، لكن القديمة استمرت في

---

١ ـ سميث : «المراة في روسيا السوفياتية» ، ص ١ .

العمل وكانت شروطها مزرية . وبالرغم من ان القانون منح النساء اجورا متساوية عن عمل متساوٍ ، كانت النساء يتلقين في العشرينات من الاجور اقل مما يتلقاه الرجال لان سلم الاجور نفسه لم يكن في صالحهن . بل كان يحدث ان يرفض الرجال ، رغم انف التعليمات النقابية ، العمل بنفس تعريفة النساء . نظريا ، كان من حق النساء أن يتكلمن في النقابات العمالية بقدر الرجال ؛ ولكن عمليا لم يكن ذلك هو واقع الحال في غالب الاحيان . تروي الكسندرا كولونتاي في «الحب الاحمر» كيف كان يحال بين النساء وبين افصاحهن عن رايهن ، وكيف كانت مطالبهن تقابَل بالرفض من قبل الرجال بحجة «تفاهتها» . وقد عرضت فيرا الكسييفا على جسيكا سميث العلاقات الصعبة بين الجينوتدل والنقابات :

«في الاصل ، كان كل العمل النسائي في المصانع يدخل ضمن اختصاص منظّمة مسؤولة امام الجينوتدل . ومن ثم ، كانت لجنة المصنع ترفض في غالب الاحيان اتخاذ مبادرات تتعلق بعمل النساء ، وادراج المواضيع التي تحظى باهتمامهن الخاص في جدول أعمالها . وحين كانت النساء يذهبن الى الاجتماعات، كن يستقبلن بهذه العبارة : «لنستمع قليلا الى ما تريد الفلاحات ان يقلنه لنا !» . وكانت همة النساء تفتر ، ولا تعود لهن جراة على عرض حالتهن ، وكان يشتد الاحساس بالحاجة الى عقد اجتماعات خاصة بالنساء وحدهن . ولقد كان من شأن مثل هذه الاجتماعات أن تعالج مسائل نسائية خاصة ، لكنها كانت توجد ايضا تمايزا مصطنعا بين «نحن» و «هم» ؛ وعليه ، فقد قررنا تغيير التكتيك . وبموجب اقتراع لآخر مؤتمر للنقابات العمالية عهد بمسؤولية العمل النسائي الى لجنة المصنع ، وحثت النقابات على إدراج المسائل النسائية في برنامجها العام مستقبلا. وقد تفتقت تلك الاجراءات عن نتائج مفيدة ، وسعت النقابات الى اشراك النساء بقدر الامكان في نشاطها . وقد بقيت في المصانع منظّمات تابعات للجينوتدل ، لكنهن آثرن تكريس انفسهن للقاءات المندوبات ونشاط الحزب ، بينما تكفلت النقابات بجميع المسائل العامة والثقافية . ولكن ذلك لا يعني ان الجينوتدل ليست هي التي تفتح الطريق للعمل النقابي» (١) .

لئن كان من الصعب التغلب على العقبات الاقتصادية ، وعلى السلبية النسائية ، وعلى موقف الرجال المترفع في العمل ، فان شرط المراة كان اسوا وادهى في البيت حيث الكلمة الاولى والاخيرة للتقاليد وحيث لا يكاد يكون هناك وجود للخدمات الاجتماعية . إبان المرحلة الاولى من «شيوعية الحرب» كان يخيم في البيوت التشاركية جو متزمت وكئيب ، وكانت الفوضى تضرب أطنابها في المطابخ المشتركة ، وكان وضع المزاود على اسوا ما يكون . وإبان سنوات«السياسة الاقتصادية الجديدة» كانت الاولوية للانتاجية ، وكان المدراء والمشرفون يرفضون

---

١ ـ المصدر نفسه ، ص ٥٦ .

انفاق المال على المزاود ولا يظهرون ميلا الى منح النساء الوقت الضروري للاهتمام باطفالهن . كانت المسألة ، والحق يقال ، مسألة **عقلية وذهنية** معينة . ويروي لنا تروتسكي كيف انهارت بعض المشاعات المنزلية :

«صار العديد من البيوت ، التي وضعت تحت تصرف الاسر التي تحيا حياة شراكة ، قذرة وغير قابلة للسكنى . فالاشخاص الذين اقاموا في تلك البيوت ما كانوا يعتبرون المشاعة الشيوعية بداية لعهد جديد ، بل كانوا ينظرون الى بيتهم وكأنه براكة مقدمة من الدولة» (١) .

في القرى ، كان التنافر بين العادات القديمة والافكار الجديدة اشد بروزا ايضا . تروي لنا جسيكا سميث كيف استقبلت الفلاحات في احدى القرى فكرة انشاء دار حضانة للاطفال في أواخر العشرينات . فقد عارضت غالبية النساء المسنات المشروع . لقد ترعرع الاطفال حتى ذلك اليوم بلا دار حضانة — فما الداعي الى تغيير الطرائق ؟ أفلم ينبأن بأن الاطفال سيستحمون فيها كل يوم ؟ ان تربية كهذه لا يمكن الا أن تضعف اجسامهم ! لكن عددا من النساء الاصغر سنا ، ومنهن فتاة قتل طفلها ، ايدن دار الحضانة . فرسمن دارا بيضاء وعلقن اعلانات على الجدران . وثارت ثائرة باقي النساء : «هل يخطر ببال احد أن يضع الاولاد في غرفة بمثل هذه النظافة !» . وشيئا فشيئا راحت فوائد المؤسسة الجديدة تتضح للعيان واخذت فكرة دار الحضانة تفرض نفسها .

ليست النساء هن وحدهن اللواتي عارضن التغييرات في الاسرة . فالرجل الفلاني ، الذي قبل باصلاحات مثل الاجر المتساوي للعمل المتساوي ، ظل ينظر شزرا الى المرأة التي تهجر البيت . وفي بعض الاحيان ، كانت المعارضة قاطعة جازمة : فقد اضرم بعض الرجال النار في مواصلات **وزارة النساء** لأنهم لم يقبلوا باشتغال المرأة في السياسة بدلا من اهتمامها بالبيت . وفي روسيا الشرقية كانت المقاومة ضارية حقا .

«في ١٩٢٨ غادرت فتاة في العشرين من العمر ، وتدعى زاريال حاليليفا ، منزل أهلها وحضرت اجتماعات عن تحرر المرأة الجنسي ؛ وذهبت الى المسرح بدون حجاب وتنزهت على الشاطىء بثوب الاستحمام . فحاكمها والدها واشقاؤها ، وحكموا عليها بالموت ، وقطعوها إربا إربا» (٢) . وما كانت تلك بحالة فردية . ففي اوزبكستان ، على سبيل المثال ، جرى في عام ١٩٢٨ احصاء مئتين وثلاث من جرائم القتل المعادية لتحرر المرأة . وقد نالت فتيات أخريات عقابا صارما لحضورهن اجتماعا في نادٍ نسائي .

كان في **الحزب** رجال يستهجنون افعال التعذيب والاضطهاد الوحشية تلك ،

---

١ — «مشكلات الحياة» ، ص ٩٠ .

٢ — رايش : «الثورة الجنسية» .

ولكن ذلك لم يمنعهم من اللجوء الى وسائل اكثر تهذيبا ونعومة للابقاء على زوجاتهم في حالة من العبودية تضارع تلك التي كن عليها في العهد القيصري . وقد اعرب لينين عن أسفه لان عددا قليلا جدا فقط من الرجال، حتى في صفوف البروليتاريا، يدركون مدى المساعدة التي يمكنهم تقديمها لنسائهم لو قاسموهن اشغال البيت. وبعد ذلك ببضع سنوات كتب لوناتشارسكي انه يتمنى من كل قلبه أن يشد على «يد رفيق ، «لينيني مخلص» ، يهز السرير حتى تتمكن زوجته من الذهاب الى اجتماع او من متابعة دروسها» . والى جانب أولئك «اللينينيين المخلصين» الذين يهزون سرير الطفل ، نجد عددا كبيرا من مناضلي الحزب ، ممن ينادون بعالي صوتهم بتحرر المرأة ، يحرضون في الوقت نفسه على ابقاء زوجاتهم تحت سيطرتهم . تروي لنا واحدة من أولئك النساء كيف وضع زوجها حدا لعملها ولنشاطها السياسي :

«في الاجتماعات التي يحظر علي حضورها خوفا من ان اصير مواطنة كاملة الحقوق ــ فكل حاجته هي الى طاهية وربة بيت ــ ، اقول في الاجتماعات التي أتسلل اليها اذن خلسة ، يلقي خطبا طنانة عن دور المرأة في **الثورة** ويدعو النساء الى ابداء المزيد من النشاط !» (١) .

كانت جميع تلك الصعاب موضوعا لمناقشات ومداولات حامية . واغلب الظن ان البشرية لم تعرف قط عصرا ناقشت فيه الجماهير الشعبية بمثل تلك الحرية المشكلات التي تخص النساء في المقام الاول . وغني عن البيان ان النساء كن يشاركن بفعالية في تلك المداولات العامة بصدد النفقة الغذائية وتشريع الطلاق . وكن في بعض الاحيان يوجهن انتقادات في غاية الصراحة : «اذا كان الرفيق ريازانوف يريد الغاء الزيجات فعليا ، فلماذا لم يقم باللازم اثناء الستين سنة من حياته حتى لا نحبل بالاطفال الا بعد التسجيل ؟» (٢) . ولا مراء ، على كل حال ، في أن بعض المسائل كانت تتجاوز مراسيم الحزب وتتعدى كفاءة المنظمين الاشد كلفا بالاخلاق ــ بمن فيهم الرفيق ريازانوف .

في أواسط العشرينات بدا يتضح للعيان ان اعتبار العلاقات بين الرجل والمرأة محض مسألة خاصة ، وان تأمين المساواة في الحقوق للمرأة امام القانون قد اوجدا فقط **الاطار الخارجي** الذي يمكن بدءاً منه أن يتحقق تحرر المرأة وتفتحها الكامل . والحال ان نظريات الانعتاق كانت تتنافر على نحو يدعو الى الاستغراب مع الوضع الفعلي للمرأة في مواجهة الحرية . لقد كان في غاية الهشاشة على سبيل المثال وضع نساء الحريم في تركستان اللائي احرقن أحجبتهن وفقدن بحكم ذلك بيوتهن وأولادهن ، وكذلك وضع الفلاحات اللائي وجدن انفسهن بين عشية

---

١ ــ نقلا عن جايجر : «الاسرة في روسيا السوفياتية» ، ص ٥٩ .

٢ ــ نقلا عن شليسنجر ، ص ١٤٠ .

المصباح يتقد بوهن .
ضوء القمر يتسرب
من النافذة المفروجة .
ماذا افعل ، انا الشقية ،
حتى ابقى على قيد الحياة
في هذه الليلة الجليدية ؟

لكن **هسي من** مزق الرسالة ، وطرد حانقا برفسة من قدمه الخادم الذي حملها اليه .

وانكفأت **لوتس الذهبية** آسيانة الى مقصورتها . وراح الزمن يمضي ببطء يبعث اليأس في النفس ، وبدت لها الساعات شهورا. وفي نهاية الامر اتخذت قرارا . فما ان أرخى الليل سدوله حتى ارسلت خادمتيها للنوم . ثم خرجت الى الحديقة ، وكانها تريد القيام بنزهتها المعتادة . لكن كان لها في ذلك المساء هـــدف محدد : دار البستاني الشاب **كن تونغ** . وبهدوء نبرة ، اقترحت عليه أن يرافقها الى مقصورتها . وبعد ان دلف اليها أغلقت الباب بالمزلاج وقدمت له خمرا . وبعد أن أثملته ، حلت حزامها وتعرت ووهبت نفسها له :

ازدرت القواعد الابدية
التي تمليها الطبيعة ذاتها :
من يقيم في الاعالي يجب أن
يتحاشى من يقيم في الادانى ،
وعلى النبيل أن يبتعد عن الخسيس .
لقد بثت فيها رغائبها الجراة ،
فما عادت تخشى غضب سيدها .
بثت فيها شهوتها الجامحة الحرارة ،
فما عادت تنصاع الا لصوت نفسها .
وفي الحديقة ذات الالف زهرة
اطلقت العنان لغرائزها الدنية
وحولت الى ماخور المقام
الذي كان ينبغي أن تسوده العفة .

علم **هسي من** بما جرى . فضرب الفتى الى ان تسربل بالدم. ثم اقتلع شعره وطرده. وتناول سوطه كي يضرب **لوتس الذهبية**. لكن **لوتس الذهبية** نجت بنفسها بكذبة أكدت صحتها خادمتها . فعفا عنها **هسي من** ، وذهبت تطلب النصيحة من اعشابية عجوز، فحولتها هذه لاستشارة منجّم . ثم طبقت **لوتس الذهبية** الوسائل

السحرية التي اقترحها عليها المنجم .

لم ينقض يومان حتى كانت الحال بين **هسي ولوتس الذهبية** قد صلحت ، فصارا سعيدين كالسمك في الماء . ولكن ، يا قارئنا العزيز ، ليس عبثا يُنصح الرجل المتزوج بأن يحظر على زوجته ان تكون لها علاقات سرية مع ... كهنة التاو والعرافين والقابلات ووسطاء الزواج . ثمة مثل سائر قديم عظيم الحكمة يقول :

لا تأذن لمدعويك بالنظر الى زوجتك ، واغلق الباب الخلفي سرا .
احبسها في الباحة والحديقة
وبذلك تنأى عنك المكائد والمصائب» .

كينغ ـ بينغ ـ مي (قصة مغامرة هسي من وزوجاته الست) ، كُتبت في حوالي عام ١٦٥٠ ، وحكم عليها بالشذوذ عن الاخلاق ، وحُظرت في القرن الثامن عشر . وبالرغم من بقاء التحظير قائما ، عرف كينغ بينغ مي رواجا كبيرا في الصين ، وكان يُتداول من يد الى يد .

«ما أحزن ان يكون الانسان امرأة ،
فليس في الدنيا ما يُحتقر مثلها !
يقف الصبيان عند الباب
كآلهة نزلوا من السماء .
قلوبهم تعانق المحيطات الاربعة ،
والريح والارض على بعد آلاف الفراسخ .
لكن ولادة البنت لا تسعد أحدا ،
والاسرة تعاملها معاملة الكمية المهملة» .

فو هسيوان

«ازواجنا يرون فينا كلابا مكلفة بحراسة البيت . ونحن انفسنا نحتقر انفسنا» .

بعض فلاحات صينيات

«اولئك البطلات الرقيقات يحملن
بنادق بطول خمس اقدام
عند مشرق الشمس على ميدان المناورة .
ان لبنات الصين مطامح يكدن ينفردن بها ،
فهن يؤثرن زي القتال على

الاردية الحمر» .

ماوتسي تونغ

اهداء على صورة احدى وحدات الميليشيا الشعبية.

«محامي المراة : ابسبب خلاف في الراي تقاتلت مع زوجتك ؟

الرجل : كلا . ولكن في الماضي ، قبل التحرير ، كثيرا ما رايت والدي يضرب والدتي ، وكنت اعتقد ان على الرجل ان يدلل على تفوقه .

القاضي : متى ضرب ابوك امك ؟

الرجل : في المجتمع القديم .

القاضي : وعلامَ ينص القانون الجديد ؟

الرجل : على ان الرجل والمراة متساويان . لكني اعتقد مع ذلك ان المراة يجب ان تطيع زوجها .

القاضي : اتعني انك مستعد لتجاهل القانون ؟

الرجل : اعتقد ان من حق الرجل ان يؤدب زوجته ... ولكن ليس من حقه أن يضرب اشخاصا آخرين . فالامر مختلف ضمن الاسرة .

القاضي : اي قانون يبيح للزوج ضرب زوجته ؟

الرجل : لا وجود لقانون كهذا» .

فيليكس غرين

«قضية طلاق في الصين» ، ١٩٦٠ .

في ١٤ تشرين الثاني ١٩١٩ استلت الآنسة شاو وو شييه من نا نويتغ ستريت، في تشانغشا ،خنجرا وحزت بها رقبتها في عين اللحظة التي كانت تتخذ فيها الاستعدادات لرفعها على كرسي الزفاف . في الايام الطبيعية ، ما كان مثل ذلك الحادث ليستأهل ان يتبوأ مكانه في حوليات الصين . فانتحار امراة صينية كان حادثا عاديا . لكن انتحار الآنسة شاو وجد طريقه الى المعالجة تسع مرات على الاقل في مقالات ماوتسي تونغ . فقد كانت الفعلة اليائسة ــ التي عدتها الآنسة شاو الدفاع الوحيد الممكن ضد الزواج المراد فرضه عليها رغم ارادتها ــ ترمز في آن واحد الى قرون من عبودية المراة والى يقظة القوى التي طفقت تهز اركان المجتمع الصيني القديم .

حتى نفهم دلالة التحولات التي ترتبت على الثورة ، ينبغي ان نتذكر درجة العبودية والمذلة اللتين كانتا سائدتين في الصين فيما سلف . ففي حين كانت اقلية من صاحبات الامتيازات تؤلف نوعا من نخبة زخرفية ، كانت غالبية النساء يكدحن من مشرق الشمس الى مغيبها ، وكان مباحا ضربهن ، بل قتلهن . وكانت دارجة عادة بيع الفتيات للزواج والنساء . وكان دارجا ايضا تعدد الزوجات والتسري . وكانت البنات الصغيرات يخطفن ويبعن لتشغيلهن في الدعارة . ولم

يكن من النادر في المدن الكبيرة ان ترى اولادا يتدبرون مومسات للمارة في الشارع. وضمن نطاق الاسرة كانت العجوز الحيزبون تذيق الصبايا مر الاضطهاد ، كما كانت الحماة تضرب الكنة . وما كانت المراة تتمتع بأي حق ما دامت بلا ابـــن . وكانت النساء يخضعن لسلطان الازواج ، والاخوة ، بل حتى الابناء . وبالرغم من ان ذلك كان نتيجة لاقتصاد زراعي في الجوهر والاساس ، فان اثره على المراة الصينية كان اشد وقعا وامر شأنا منه على المراة الاوروبية الغربية لان المراة في المجتمع الصيني ما كانت ترث . ولما كانت لا ترث شيئا من اسرة ابيها ، فما كان في مقدور هذه الاخيرة ان تقدم لها اي حماية ضد سوء المعاملة من جانب زوجها . في اوســاط الطبقات العليا كانت المراة تتلقى «جهاز عرس» ، وفي اوساط الطبقات الدنيا كانت تبتاع ابتياعا . وكان في مستطاع اسرة الزوجة ، في بعض الاحوال ، ان تمارس ضغطا على الزوج ؛ لكن حين لا تكون اسرة الاب قوية كان من المباح اعادة بيع المراة مثلما اشتريت، بل كان من المباح تأجيرها. تقول هيلن فوستر سنو بهذا الخصوص في كتابها **«النساء في الصين الحديثة»** :

«كانت الاسرة الصينية تشبه عشيرة امومية بدائية احتل فيها الاب مكانـــة الأم ؛ فقد كان هذا الاخير يمضي جل وقته في محاولة الحفاظ على مركزه المغتصب اما بالقوة وإما بتطبيق «قواعد» آداب السلوك السلفية . وانه لامر فصيح الدلالة ان يصف نفسه بنفسه بأنه ابو الاسرة وامها» .

وعليه ، كانت المنازعات بين الازواج والآباء ، بين الابناء والآباء ، بين الاولاد والاهل ، نادرة للغاية . وكانت هذه البنية العائلية تدرك في ارجح الظن اعظـــم فعالية لها في الشرائح المتوسطة من المجتمع الصيني . فقد كانت نساء الطبقـــة العليا يلجأن طوعا واختيارا الى الدبلوماسية والمكائد الرومانسية ؛ كما كانت فلاحة الاقاليم الجنوبية تنعم بقدر من الاستقلال بسبب مساهمتها في استثمار المزرعة. وكانت هناك ايضا فروق بين منطقة واخرى .

اضعف تأثير الامبريالية والتصنيع من سلطان الاب والزوج من دون ان يقدم حلا لمشكلة المراة والفتاة . وكان الافيون الذي ادخله التجار البريطانيون الى الصين يتسبب احيانا في انحطاط الاب جسمانيا ويرغم الأم على القيام بدور اكثر فعالية في الاسرة ، ولكنه كان يؤدي ايضا الى ندرة السلع الغذائية ويمثل للرجال اغراء دائما للهرب . وكان التطور الاقتصادي يعمل نسفا وتخريبا في اسس الخليـــة العائلية ، لكن بنيتها لبثت على حالها ، وصار الشبان يعتبرون الوضع لا يطاق . يروي ادغار سنو في «رحلة الى البداية» ان والد ماو كان قد رتب له ــ وهـــذا الاخير لما يتجاوز الثالثة عشرة من العمر ــ زواجا من فتاة تكبره بستة اعوام . وكان هدفه من تزويج ابنائه في مثل تلك السن المبكرة الاستفادة من قوة عمـــل الفتاة الى يوم بلوغ الصبي سن الزفاف . وقد تخاصم ماو مرارا مع والده ، وكان غالبا ما يلتجىء الى والدته التي كانت تشكو هي الاخرى من استبداد رب الاسرة . وحتى يتملص ماو من الزواج في مثل تلك الشروط فر من المنزل ، ولم يعلـــن

استعداده للعودة اليه الا اذا اقلع الاب عن مشروعه .

كان الحق في زواج الحب مطلبا للشبيبة من الجنسين ، لا في اوساط الاسر البورجوازية فحسب ، بل ايضا بين الفلاحين والبروليتاريين . وقبيل الثـــورة بقليل ، بين ١٩٤٠ و١٩٥٠ ، عينت ماريون. ج. ليفي عدة عوامل ساهمت في افول سلطة الذكر في الاسرة الصينية : عمل النساء في المراكز المدينية ، التربيـــة المختلطة ، ولادة ثقافة شباب ، الحب الرومانسي ، تطور الحزب الشيوعي (١) . وقد لاحظت ماريون. ج. ليفي ان الازواج باتوا يضربون نساءهم اقل مما فـــي السابق ، وان الحموات امسين يعانين كبير مشقة في التحكم بكناتهن .وكانت هناك شكوى عامة من تكاثر عدد المشاحنات العائلية . وما كانت هذه المنازعات تدور حول امور هامة ، وانما كان الغرض منها استبار قوة مركز الاطراف المتواجهة . وغالبا ما كانت النساء والكنات يكسبن تأييد افراد الاسرة الذكور لقضيتهن . ولما كانت السلطة التقليدية للحماة قد حل بها الوهن ولكن من دون ان تزول ، فقد كـــان يصعب تسوية منازعات النفوذ لصالح هذا الطرف او ذاك .

قبل القرن التاسع عشر كان الملاذ الوحيد الممكن للمرأة ، عدا الانتحار ، المكيدة الجنسية والخيال والدين . وكان بعض الكتاب الفرادى قد رفعوا اصواتهم منذ القرن السادس عشر بالاحتجاج على ما تكابده المرأة من اضطهاد . وفي القرن الثامن عشر طالبت بعض النساء الشاعرات بالمساواة للمرأة في مضمار الحب. وفي ١٨٢٥ كتبت لي جو شن رواية نسوية طوباوية تجتاز فيها مئة من الكائنات الجنية ، بعد تحولهن الى نساء ، امتحان الوظيفة الكبرى Mandarinat ويشدن مملكـــة نسائية تسترق الرجال . وبطل الكتاب مثقوب الاذنين ومعصوب القدمين . بيد ان النسوية الكامنة بين طياته نسوية خيالية خالصة ، لا قدرة لها على قلب الوضع القائم الا بالفكر . وكان الدين يقدم للمرأة امكانية اخرى للتعبير عن استيائها . من ذلك أن الشيع التاوية كانت تتيح للنساء امكانية الافلات من إسار الكونفوشية . وكان الدير ينقذ النساء احيانا من زواج مفروض بالاكراه . وفي زمن لاحق صارت البروتستانتية ، بإلحاحها على ضرورة تأهيل البنات وبمعارضتها عصب الاقدام وبنضالها في سبيل تحسين الشرط النسائي ، أشبه بمركز لالتقاء جميع الجهود النسوية . وقد توسع نطاق مقاومة الزيجات المفروضة بالاكراه حتى وجـــدت الحكومة نفسها مضطرة الى افتتاح دور للفتيات المطرودات من اسرهن . لكـــن المسيحية في مطلع القرن العشرين كانت مرتبطة بالامبريالية وبالدول الغربيـــة ارتباطا لا يسمح لها بأن تتلبس وجه المصلح الجذري : فكانت المنظمات النسائية المسيحية تطبق المساواة على نحو يشبه ما كانت تفعله المنظمات الخيرية والاحسانية التي أوجدتها الطبقات الوسطى في اوروبا واميركا . فقد كانت النساء المنتميات

---

١ ــ ماريون. ج. ليفي : «ثورة الاسرة في الصين الحديثة» ، هارفارد ١٩٤٩ ، ص ٢٩٠ــ٣٣٨.

الى مثل تلك المنظمات ينتمين الى مستوى اجتماعي معين ويحاولن انقاذ الفتيات، المنبوذات من أسرهن ، من السقوط الى درك التسري والبغاء والافيون وتشويه القدمين . وقد وحدت المنظمات النسائية المسيحية جهودها لصالح تربية النساء، مما اجبر الحكومة في عام ١٩١٧ على أن تفتح أبواب مدارسها للبنات ؛ لكن اقلية صغيرة هي وحدها التي استفادت من ذلك الاجراء في الواقع .

كانت مقاومة النساء تتجلى على نحو اكثر شعبية وجذرية في اطار الحركة المناهضة للامبريالية والمناوئة للراسمالية . فلما كانت النساء ينتسبن الى التجمعات والمنظمات الهادفة الى الاطاحة بالنظام القائم ، فقد بانت لهن مظاهر كثيرة من عبوديتهن بجلاء متعاظم . ولاول مرة في الصين ، وجدت النسوية نفسها مرتبطة بحركة **اجتماعية** . قبل ثورة ١٩١١ ، كانت الجمعيات السرية تتقلد وظيفة سياسية . ويصعب أن نكوّن فكرة واضحة ودقيقة عن تأثيرها ، لكنها كانت تنشط تارة على طريقة جمعيات «المافيا» بالارهاب والعنف ، وطورا بواسطة عصابات منظمة ذات صلات ووشائج بالفقراء . وقد لعبت الجمعيات السرية ايضا دورا معلوما في نشوء الحركات العمالية في المدن . وكانت النساء يشغلن في تلك الجمعيات ضربا من مكانة فخرية : فما كن يحتللن مقاعدهن بين الزعماء وما كن يدلين بأصواتهن عند اتخاذ القرارات ، لكن كان يعهد اليهن بمهمات تعتمد على الثقة وتنطوي على مسؤوليات ما كن ليتقلدنها قط في المجتمع التقليدي . وكان اعضاء الجمعيات السرية يتمتعون بنوع من المساواة البدائية والجلفة ، يوحد بينهم ويعزلهم عن سائر العالم . وفي جنوب البلاد كانت النساء يلعبن دورا ذا شأن كجاسوسات ومراقبات (١) . وكانت الزوجات والامهات غير المنتميات الى الجمعيات السرية يشكلن نوعا من دريئة ساترة . وأرجح الظن ان النساء كن يلجأن في كثير من الاحيان الى تأليف عصابات على حدة والى تأسيس روابط نسائية مستقلة بذاتها تتسمى بأشباه هذا الاسم «الفوانيس الخضر والزرق» ، تحاشيا منهن للمصادمات مع الرجال . وكانت توجد ايضا جمعيات تآزر نسائية تقوم بمساعدة الارامل على سبيل المثال . واثناء ثورة ١٩١١ رفدت الجمعيات السرية الثوار بمساعدتها العلنية . وتطوعت نساء في الكتائب العسكرية . اما على الصعيد النسوي ، فان الفائدة الوحيدة التي عادت بها ثورة ١٩١١ على النساء كانت تحظير عصب اقدام البنات . وبعد ١٩١١ تجردت الجمعيات السرية المذكرة والمؤنثة من طابعها السياسي وتحولت الى ما يشبه جمعيات «المافيا» او اندمجت بمنظمات سياسية يسارية .

فتح تطور الراسمالية الباب امام اشكال تنظيمية اخرى . وثمة ما يغرينا هنا

---

(١) ـ في لينغ ديفيز : « دور وتنظيم الجمعيات السرية في عهد شينغ المتاخر » ، لندن ١٩٦٨ ، ص ١٩٨ ـ ٢٠٠ .

بأن نعتبر التجمعات النسائية السرية منظمة لحركات في صناعة النسيج ، ولكن هذه محض فرضية . فبين ١٩١٠ و١٩١٢ لجأت عاملات غزل الحرير في شانغهاي عشرين مرة الى الاضراب . فقد كانت النساء يتقاضين اجورا بخسة حقا . وكن يجهلن ، وهن القادمات من الريف ، التنظيم النقابي ، وان يكن عدد منهن قد انتمى سابقا ، بصفتهن غزالات في المشاغل اليدوية ، الى منظمات هي اقرب ما تكون الى «الروابط المهنية» . وارجح الظن انهن ما لجأن يومئذ الى الاضراب الا يأسا وقنوطا ، وعلى نحو مرتجل في ابأس ساعات الشدة، بدفع من زعماء مجهولين كانوا عاجزين عن تأسيس حركات عمالية دائمة . وكانت وفرة اليد العاملة، وانعدام وجود اي تشريع للعمل يسمحان بتشغيل المصانع اربعا وعشرين ساعة في اليوم ، ويجعلان من الصين بلدا مثاليا لتوظيف الرساميل الاجنبية . وكان الرأسماليون الاجانب لا ينون يبدون تعجبهم من «عقدة كراهية الاجانب» لدى الشعب الصيني الذي كانوا يرفدونه بـ «مساعدتهم» باستغلالهم اياه على ابشع وجه .

«كان الدافع الى اثني عشر اضرابا من تلك الاضرابات عدم دفع المتخلف من الاجور ، او محاولة تخفيض الاجور ، او زيادة مدة العمل . أما الاضرابات الاخرى فقد نجمت عن فظاظة المعلمين والاسطوات الذين ما كانوا يترددون في ضرب العمال او حجز الاجور . وقد صاحب الاضرابات «تا شانغ» (تخريب الآلات الصناعية) ، لكنها وصفت جميعها بلا استثناء بأنها مثيرة لـ «الفتن» و«القلاقل» . وكانت الاضرابات بسبب عدم دفع الاجور تكلل عادة بالنجاح حين تفلح النساء في احداث اضطرابات تضطر معها السلطات والشرطة الى التدخل «لصالح النظام العام» والى اصدار الامر الى ملاك المصانع بالدفع» (١) .

كانت الاضرابات المقتضبة والصاخبة تخدم مصالح النساء ؛ فنظرا الى ان ارباب العمل كانوا يتطورون في عالم لحمته الفش الحقير وسداه الوحشية والفظاظة ، فقد كانوا يغلبون على امرهم حتى ولو حاولوا التفاوض . في عام ١٩١١ افضت ثلاث سنوات من اعمال من ذلك النوع الى اضراب طال عشرة ايام واتاح للعمال ان يبدؤوا بتقدير مزايا تنظيم دائم في مضمار الصناعة . وكان ارتفاع الاسعار يعزز تصميمهم اذ راحت الحياة تزداد صعوبة مهما شدت الاحزمة على البطون . ولقد كان السبب الجوهري لضعف الحركات العمالية الاولى في الصين ان تعداد شغيلة المدن فيها كان ضئيلا . وكانوا يلاقون الامرّين في انتزاع شروط عمل افضل من مستخدِميهم ، لان جيش الفلاحين كان يؤلف احتياطيا لا ينضب لليد العاملة ويتلبس في كثير من الاحيان وجه محطمي الاضرابات . وطوال ما بقيت الطبقة الفلاحية بمنأى عن تأثير الافكار الثورية ، كان عمال المدن يكافحون في إسار

---

١ ـ آن زيل : «البدايات الاولى لتطور مؤسسات الطبقة العاملة في الصين» ، لندن ١٩٧٠ ، ص ٣٠ .

عزلة قضت على نشاطهم بقلة الفاعلية . ولقد وعى ذلك الفوضويون ، وهم اول تجمع ثوري قبل ١٩١١ ، لكن الحزب الشيوعي في العشرينات بدا وكانه نسي الدرس . ولعل ضعف الطبقة العاملة الصينية هو الذي جعلها مفتوحة الصدر للتصور القائل بانقلاب اجتماعي شامل ؛ فقد كانت تعلق من الامل على الثورة اكثر مما تعلق على تأسيس حركة نقابية قوية . وتسري هذه الملاحظة على النساء ايضا.

في صفوف المثقفين الشبان رات النور اشكال اخرى من المقاومة النسائية. ففي ١٩١٢ هاجمت جماعة من الشابات البرلمان وحطمت زجاج نوافذه وشتمت الحراس احتجاجا على اللامساواة التي كن من ضحاياها . وإبان الحرب العالمية الاولى ، راحت الدوائر الراديكالية تناقش مسألة الاصلاح وتشريع الزواج وشرط المراة في الاسرة . ونشر يانغ شانغ ـ شي ، الحمو المقبل لماوتسي تونغ ، مقالا في عام ١٩١٥ بعنوان : «ملاحظات حول اصلاح كيان الاسرة» . وقد عقد فيه مقايسة بين منع الارامل من الزواج واستمرار نظام التسري من جهة وبين اعراف الزواج الانكليزية التي افترضها مثالية من الجهة الاخرى . وجاهرت «الجمعية الجديدة للدراسة الشعبية» ، التي اسسها ماوتسي تونغ وتسي هو ـ شينغ في خريف ١٩١٧ ، بأفكار تنحو الى المزيد من الجذرية . وقد اقسم مؤسساها ومعهما اخت تسي هو ـ شينغ بالامتناع ابد الحياة عن الزواج احتجاجا على نظام الزواج التقليدي . لكنهم ثلاثتهم تزوجوا ـ ماوتسي تونغ في عام ١٩٢١ . وكان معظم اعضاء الجمعية من طلبة واساتذة المدارس الكبرى في تشانغشا . كانت لهم فكرة سامية عن الاخلاق ، وكانوا يبغون اصلاح العالم . واخذت الجمعية على عاتقها ، فيما اخذت ، إفهام النساء الدور الذي يسعهن أن يلعبنه على الصعيد الثوري . واسست شقيقة تسي هو ـ شينغ ، تسي شانغ ، جماعة مماثلة في تشانغشا . ورحلت بضع فتيات صينيات الى فرنسا لتحصيل دروسهن .

اتاحت حركة معارضة الامبريالية اليابانية («حركة ٤ ايار») لجماعات الطلبة والاساتذة المجاهرة بحرية بصبواتهم الجذرية . وقد اسست في اقليم هونان في عام ١٩١٩ شبكة من روابط الطلبة تولت قيادتها هيئة سميت بـ «تحالف الطلبة المتحدين» . وكان في عدادها ماوتسي تونغ . في بادىء الامر كانت الفتيات يرافقن الفتيان ، لكنهن سرعان ما انشأن تنظيمهن الخاص بهن . وليس لنا ان ندهش اذا ما علمنا ان المدارس الاكثر ليبيرالية هي التي تزعمت الحركة . وفي نهاية الشهر، شهر ايار ، شكل عدة مئات من طالبات واستاذات مدرسة البنات تاو يوان ، بمن فيهن المديرة ، «لجان العشر لخلاص الامة» . وقامت هذه الجماعات بالتجوال في جميع احياء المدينة ونشرت فيها افكارها . بل انها جرت خلفها تلميذات من المدارس الابتدائية حملن الرايات البيض الرامزة الى «خلاص الامة» . وإليكم كيف كن يعنفن مستمعيهن :

«ايها المواطنون الاعزاء ، على كل واحد منكم ان يدرك ان الصين تمضي الى هلاكها ، وانه سيقضي علينا جميعا بالعبودية كالكوريين ، وان نساءنا سيرزحن

تحت نير الإذلال . ان تايوان مثال آخر للاستعمار الياباني . الا فلنع الخطر الذي يتهدد الصين ولنساند منتجات البلاد !» (١) .

شاركت بنات مدرسة شونان الثانوية ـ مع مديرتهن شو شيان فان ـ مشاركة فعالة في الحركة المناهضة لليابانيين ؛ ورفدت شو شيان فان بتأييدها الدوائر الداعية الى الاصلاح في هونان . وفي مطلع حزيران نظمت اولئك الفتيات فرقا للنقاش والتفتيش والاعلام . وصارت فرق تتألف من اربع بنات او خمس تتردد على مفارق المدينة لكي تشرح للنساء مساوىء الامبريالية اليابانية ولتدعوهن الى مقاطعة المنتجات الاجنبية . كذلك اخذت فرق التفتيش تتسلل الى المخازن والاسواق لمعاينة ما تبتاعه النساء ولنصحهن بشراء المنتجات الصينية . اما فرق الإعلام فكانت توزع المنشورات وتلصق اعلانات الدعاية .

راحت مختلف المدارس تتصل ببعضها بعضا . وفي منتصف حزيران تجمعت احدى عشرة مدرسة ، معظمها من مدارس الاناث ، في «رابطة» واحدة . وقد أدرجت هذه الرابطة في برنامجها ، علاوة على الكفاح ضد اليابان ، الدفاع عن «نساء الصين المسكينات» ؛ وطالبت بانشاء «فصل للتأهيل» لمدة نصف يوم برسم نساء الطبقات الدنيا . ولم تكن الرابطة تنشد ، على الصعيد السياسي ، اي هدف ثوري . وراحت عضوات الرابطة يضغطن على التجار ليبذلوا كل ما بوسعهم لـ «انقاذ الصين» . وكانت اهمية نشاطهن تكمن في تنافره الصارخ مع قدرية المرأة الصينية : فالكثيرات من النساء اللواتي انضممن فيما بعد الى الحركة الثورية كن قد مارسن السياسة على مقاعد الدراسة .

نشر ماوتسي تونغ في الصحف الراديكالية التي رأت النور في ١٩١٩ مقالات عدة عن اضطهاد النساء . وقد هاجم فيها القدرية واحترام السلطة القائمة ، ودعا الفلاحين والشغيلة والمدرسات والطالبات الى معارضة الارستقراطيين والرأسماليين . واكد على ضرورة شمل النساء بحق الانتخاب ، وعلى حق النساء في الاختلاط بالرجال على قدم المساواة وبحرية . وأدان بصراحة الاخلاق الجنسية التمييزية : «اي ضرب من العفة تخص به النساء وحدهن ، النساء المعذبات اللواتي يُسجنّ ؟ اين السجون للغلمان الأعفّاء ؟» .

كان العديد من تلك الصحف يناضل جهارا من اجل تحرر المرأة . وقد ركزت «هونان الجديدة» هجومها على «الاوثقة الثلاثة» : العاهل والاب والزوج؛ ووضعت الصحيفة التي أسسها «اتحاد طالبات» مدرسة شونان العليا نصب عينيها تأمين «الحرية والمساواة» للمرأة عن طريق الكفاح والروح الخلاقة وحل المشكلات النسائية من قبل النساء . ولم تكن مقالات هذه الصحيفة تعالج مسألة الانعتاق

---

١ ـ روسكسان ويتكه : «ماوتسي تونغ والنساء والانتحار في حركة ٤ ايار» ، في «المجلة الصينية الفصلية» ، لندن ، تموز ـ ايلول ١٩٦٧ .

فحسب ، بل كذلك شروط عمل النساء . وظهرت مبادرات نسوية اخرى . من ذلك أن عدد حزيران ١٩١٨ من «الشبيبة الجديدة» كرس بكامله لترجمة مؤلفات إبسن ودراسة مسرحيات هذا المؤلف الدرامية . والحت «صحيفة التربية البدنية» على اهمية التربية البدنية للنساء . وكانت هذه نظرة ثورية في المجتمع الصيني الذي كان الغى لتوه عصب الأقدام .

لئن ارتأى ماوتسي تونغ انه من المفيد ان يكتب بنفسه مقالا عن انتحار الآنسة شاو ، فهذا لانه رأى فيه عملا نمطيا في دلالته على الموقف القدري للمراة الصينية والشعب الصيني بأسره . أما في نظره هو ، فان الحضارة الجديدة ستنبثق عن النشاط اكثر منها عن نكران الذات . « قبل الانتحار ، ينبغي المرء ان يصارع بضراوة» . وليس هدف هذا الصراع «الرغبة في الموت على يد انسان آخر» ، وانما «تحقيق المرء لطاقاته الشخصية الكامنة» . وكان ماو يعي مستتبعات تحرر النساء :

«قبل أن نشن حملة من اجل اصلاح الزواج ، ينبغي اولا ان نجتث شأفة جميع الخرافات التي تحيط بالزواج ، والتي من أخبثها وأشدها ضررا واذى الاعتقاد بأن «الزواج قسمة ونصيب» . ويوم يموت هذا الاعتقاد ، فان اسس الزواج المفروض بالاكراه من قبل الاهل ستنهار ، وسيظهر الى حيز الوجود في المجتمع مفهوم «عدم التوافق بين الزوج والزوجة» . ويوم يصبح واضحا لكل ذي عينين ان هذا الرجل بعينه وهذه المراة بعينها لم يخلقا ليتحدا ، فان جيش الثورة العائلية سيشق طريقه الى مسرح الاحداث وستجتاح الصين الموجة الهائلة ، موجة حرية الزواج وحرية الحب» (١) .

بعد بضعة شهور من نشر مقال ماوتسي تونغ ، اثارت اللغط الكثير قضية اخرى ، قضية الآنسة لي تشي سون . فقد مانعت الآنسة لي في الزواج الذي اراد والدها فرضه عليها وغادرت منزل اهلها في تشانغشا لتذهب الى بكين حيث اسهمت بدور نشيط في حركة «الطلبة ـ العمال» . وقد اسف والدها ، المتشبث بالمفاهيم القديمة المعادية للمراة («الغباء هو فضيلة النساء اليتيمة») اسفا شديدا على سماحه لابنته بمتابعة دروسها . وراحت الصحافة الطالبية تؤكد من جانبها ان الآنسة لي مثال يقتدى على تلك الروح الكفاحية التي لا غنى عنها لبناء تلك الحضارة الجديدة التي يدعو اليها الثوريون الشبان . وكان من رأي هؤلاء الاخيرين ان انعتاق المراة لا يقبل انفصاما عن انعتاق المجتمع بأسره . وبالفعل ، كان تي ـ تشي تاو ، وهو مؤلف كان يكتب في عام ١٩٢٠ ، راسخ اليقين بأن الثورة الجنسية التي تقيم المساواة بين الرجل والمراة ستسبق ثورة الشغيلة وقيام المساواة الاقتصادية .

---

١ ـ نقلا عن المصدر نفسه ، ص ١٤٠ .

هكذا شكلت النسوية الصينية جزءا لا يتجزأ من الحركة القومية الراديكالية، وتفتحت معها . لكن المشكلة النسائية جرى تناولها على الصعيد السياسي تناولا مختلفا من قبل الشيوعيين والقوميين . فصحيفة **«صوت النساء»** ، التي اسست في عام ١٩٢١ ، اي في نفس عام تأسيس الحزب الشيوعي الصيني ، كانت تشدد اللهجة على تحسين شروط عمل النساء . وكانت منظمات من امثال «رابطة نساء هونان» تنسق جهودها مع هيئات اخرى تطالب بحرية الزواج والاقتراع والانعتاق الشخصي للنساء . وكانت نورا **«بيت الدمية»** (١) تجسد رمزا نسويا لانها كافحت على الصعيد الفردي والاخلاقي القيود التي أريد فرضها على دورها كامـــراة بورجوازية . وعمد عدد من الفتيات الى قص شعورهن علامـــة على التحدي . وكانت الحماسة المحررة للنفوس تعمر على الاخص أفئدة بنات المدن المتعلمات . لكنها طالت ايضا الاوساط الفلاحية والعمالية .

في ١٩٢٧ ، حدثت القطيعة بين الشيوعيين والحزب القومي . وجرت في كل مكان ملاحقة الشيوعيين ومن في ركابهم :

«اذيع في المدن ان «الروابط النسوية» قد حلت .... مثلها مثل منظمـــات اخرى متهمة بأنها «حمراء» . وفي الريف اكد المراقبون ان «فتيات ونساء جرى اعدامهن لمجرد ان قصة شعرهن كانت قصيرة» (٢) » .

كان موقف القوميين من مشكلة حقوق المراة يحوطه الغموض والالتباس . صحيح انهم كانوا بحاجة الى تأييد النساء ، لكن بعض المطالب النسوية الليبيرالية بدت جذرية اكثر مما ينبغي لزعماء الحزب الاغنياء . وفي ١٩٣٠ حاول القوميون بث الحياة من جديد في الكونفوشية عن طريق نشاط «حركة الحياة الجديدة» . وبالمقابل ، اعلن الشيوعيون بجلاء ووضوح عن مناصرتهم لتحرر المراة ، وفازوا بمساندة نصيرات المراة غير المتسيسات في المدن . وبحكم اضطرارهم الى الالتجاء الى الارياف ، كانوا يجتازون احيانا مناطق تجهل كل شيء عـــن انعتاق المراة . فكانوا يحتكون بالفلاحات اللاتي أتيحت لهن الفرصة لاول مرة للافصاح عن احزانهن ولاستشفاف بصيص أمل في التغيير . وحين اندلعت في ١٩٣٥ الحرب ضـــد اليابان ، استأنف الحزب الشيوعي نشاطه على نطاق اوسع واتصل بنصيرات المراة في المدن اللواتي كن قد وقعن من جديد تحت تأثير القوميين . وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، اتضح ان الشيوعيين يتمتعون بحسن ظن شرائح واسعة مـــن السكان . وقد تجلى ذلك بوجه خاص عندما تم ، في عام ١٩٤٩ ، انشاء تنظيم نسائي جديد ، «اتحاد النساء الديموقراطي لعموم الصين» الذي استقبل اعدادا

---

١ ـ مسرحية ابسن الشهيرة . «م»

٢ ـ شارلوت بونش وبكس : «النساء الاسيويات في الثورة» في «النساء : مجلة للتحرر» ، صيف ١٩٧٠ ، ص ٢ .

غفيرة من النساء غير الشيوعيات ، بما فيهن «رابطة الشابات المسيحيات» . وقد ركز ذلك التنظيم جهوده على تربية النساء وتجميعهن ، وساعدهن على التعبير عن مشاعرهن ورغائبهن ، ووجههن نحو منظمات الحزب الشيوعي .

ان العلاقات المتبادلة بين النسوية والوعي الثوري تبرز على نحو باهر من خلال الحياة الخارقة للمألوف لتينغ لينغ ، التي كان اسمها الحقيقي تشيان بينغ تسوء . فقد تمردت ، وهي لما تتجاوز الثالثة عشرة ، على بنى الاسرة التقليدية وتزعمت تظاهرة لتلميذات مدرستها ـ مدرسة شونان الثانوية للبنات . وطالبت تلك التظاهرة ، التي نظمت بمناسبة انعقاد احدى جلسات المجلس البلدي لهونان، بالمساواة للمرأة وبحقها في الإرث . وتروي تينغ لينغ كيف نهضت تلميذات احدى مدارس شانغهاي ، في العشرينات ، لمساعدة العاملات الشابات المضربات في احد مصانع نسيج بوتانغ :

«رحنا نجمع التبرعات في الشارع لتشجيع العاملات ، ونشرح للمارة اسباب الاضراب . كنا نمضي من مجموعة عاملات الى اخرى ، لكن كان من الصعب التكلم معهن بسبب فارق اللهجات ؛ وكنا نحتاج في بعض الاحيان الى ترجمان . وقد دهشت العاملات الشابات من وقوف الطالبات الى جانبهن ، وأبدين كبير اهتمامهن بنا » (١) .

كانت الهوة بين اصحاب الامتيازات والفقراء سحيقة . وتروي تينغ لينغ انه كان يخالجها على الدوام ، وهي ذاهبة الى المصانع ، «شيء من الخوف ، لان الشغيلة في الشارع كانوا يسخرون منا» . وقد اصطدمت الثوريات الصينيات ايضا بالحد الجنسي الذي كان يفصل نساء الطبقات العليا عن رجال الطبقات الدنيا من السكان ؛ وكان هذا الحد يزيد من دقة مثل ذلك النشاط السياسي ومن صعوبته . وفي ١٩٢٢ انتسبت تينغ لينغ الى الحركة الفوضوية . وكان الفوضويون يعيشون على الاحلام والاوهام ، وكانوا يريدون انشاء قرى على اساس تعاوني والاستغناء عن كل حكم وحكومة . وكانت أطروحاتهم تتناقض قاطع التناقض مع اطروحات الماركسيين الذين «كانوا يقولون ان ماركس كان على حق وان عليك الانضمام الى حزبنا لانه الحزب الصالح الوحيد» (٢) .

اقتحمت تينغ لينغ بدون نجاح كبير ، وخارج نطاق نشاطها السياسي المباشر ، ميدان التمثيل السينمائي ، وكتبت روايات لاقت رواجا ، ووقعت في الغرام مرارا عدة . وبعد ١٩٣٠ انشأت ، بفضل المجلة الادبية الراديكالية ، الحركة الادبية المبشرة بـ «الواقعية الجديدة» ؛ ونظمت فصولا دراسية للشغيلة الراغبين في كتابة قصص واقعية . وحين اندلعت الحرب الصينية ـ اليابانية ، استأنفت

---

١ ـ هيلن فوستر سنو : «النساء في الصين الحديثة» ، نيودرلاند ١٩٦٧ ، ص ٢٠٣ .

٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٠٥ .

نشاطها كمحرضة سياسية .

كانت هان سويان ، مؤلفة «**الشجرة الجريحة**» و«**زهرة مميتة**» و«**صيف بلا عصافير**» اقل ارتباطا مباشرا بالحركة السياسية الصينية قبل العهد الماوي . فقد ولدت من زواج بين بلجيكية تنتمي الى الطبقة المتوسطة وبين عامل ميكانيكي في السكك الحديدية الصينية ، وترعرعت في ظل بؤس مدقع ؛ وكانت شاهدا على عدم التفاهم بين والديها ، ورات بأم عينيها الاطفال يركضون وراء الجرذان ليأكلوها ، وأمها تصرخ وتعوي حين فقأت احدى النساء ورما متقيحا لها تحت عينها . كانت الطفلة مكشوطة الوجه ، وانفها وعيناها متقرحة تسيل قيحا . وكانت امها تصرخ بوالدها : «اريد العودة . اريد ان اترك هذه القاذورة الصفراء، قاذورتكم انتم !» (١) . وحاولت هان سويان ان تنسى انها نصف صينية الى يوم الحرب الصينية ـ اليابانية . وفي طريق عودتها الى الصين ، التقت على ظهر مركب بباو هوانغ ، زوجها المقبل الذي كان في طريقه الى الانضمام الى نخبة قوات تشانغ كاي شيك . وطوال تسعة اعوام امتثلت لافكار باو عن النساء حتى تفوص من جديد في المناخ الصيني . اوصاها باو بالفضيلة ومزق كتبها وانكر قدرتها على العمل والابداع ، مستشهدا في ذلك بكونفوشيوس : «المراة الموهوبة ليست امراة فاضلة». ولم يكن الاذى الذي خرجت به هان سويان من ذلك الامتحان بالهين ! «ان الالتباس الذي كان يغلف علاقاتنا ، وسورات عنفه وكراهيته ، وفورات حبه وقسوته ، وقوتها الهوسية خلفت فيّ ندوبا لامد طويل من الزمن». وحين أذن لها اخيرا بممارسة مهنة القابلة ، رات هان سويان أمهات يتخلصن من بناتهن اللواتي رأين النور للتو . كن لا يجرؤون على عرض الطفلة على الزوج ؛ فكان لا مفر من خنقها او وادها او اغراقها او رميها على قارعة الطريق . فهي لا شيء ما دامت انثى !

كان يحدث لهان سويان أن تسمع باو وضباطا آخرين في وحدته يتكلمون بتوقير ضمني عن أولئك «اللصوص الحمر» المستغرب أمرهم ، الذين يحولون السكان جميعا الى مقاتلين، ويشجعون البنات المسترقات على التمرد على سادتهن، ولا يعلقون كبير قيمة على العفة ، ويحثون الفلاحات على التشهير بمساوىء ازواجهن . لم تكن هان سويان تلمح اي امل ، لكنها ادركت شيئا فشيئا ان الصين لم تعد ملكا لرجال من طبقة زوجها ، بل صارت تخص الحمالين المحتقرين والمعدمين «الذين يحملون ويجرون ويسحبون على ظهورهم الحرب وفساد سادتهم النتن»... وخفية ، ومن دون اثارة انتباه احد شرعت نساء من طينتها يتحررن من امتيازاتهن ليبعثن على حياة جديدة ...

---

١ ـ اوردته جو اوبريان : «مطالعة في (صيف بلا عصافير)» في مجلة «المراة الاشتراكية» ، تموز ـ آب ١٩٦٩ .

كانت تجربة أولئك النسوة تندرج في اطار يقظة وعي ارحب بما لا يقاس ، على اعتبار ان اشمئزازهن من بعض مظاهر عبوديتهن الخاصة كان يندرج بدوره في اطار حركة ثورية أعم واشمل . وتشيد قصص وتمثيليات شعبية لا يحصى لها عد بذكرى أولئك النسوة المجهولات . فلقد عاشت الملايين من النساء الوفا من السنين وهن يكدحن وينجبن ويحملن باو واشباه باو واسلاف باو على ظهورهن ويخدمن غزاة امبرياليين : وها هن لاول مرة ينهضن بعبء فرديتهن ويشاركن في التاريخ . كان الحزب الشيوعي العنصر المنظم الذي يتيح امكانية تواجه مختلف تجارب الاستغلال والإذلال وإسالتها في قناة عمل سياسي منسق . على الصعيد الايديولوجي ، لم يهدأ ولم يخف سخط ماوتسي تونغ ونقمته ازاء موقف الآنسة شاو اليائس . وكان ماو قد ميز على الوجه الصحيح «الاكبال الفولاذية» الثلاثة (المجتمع ، اهلها ، اسرة زوجها المقبلة) التي لا يمكنها الافلات منها . وفي معرض الاشارة في وقت لاحق الى اضطهاد النساء ، تكلم عن «اربعة حبال غليظة» (السياسة ، العشيرة ، الدين ، الرجال) تربطها ، واكد ان الثورة الشيوعية هي وحدها القادرة على قطعها (١) .

بصدد «المسيرة الطويلة» لا يأتي ذكر ، والحق يقال ، لاسماء نساء . ولئن تطوعت بعض النساء في حرب الانصار ، فقد كن يستخدمن في غالب الاحيان في الانتاج . ولم تحجم كيو شون شينغ عن التنكر في ملابس رجل ، وتلقت ارفع المكافآت العسكرية . وقد عرفت كيف تحافظ على سرها الى ان سقطت جريحة.

بعد هزيمة القوميين واقامة حكم الشيوعيين ، تدرج تحرير المرأة على ثلاثة اطوار: الاصلاح الزراعي، التشريع الثوري في موضوع الزواج ، تجارب الاستثمار الزراعي التعاوني والكومونات . في نيسان ١٩٤٨ ، اجتمعت النساء في لونغ بو، من مقاطعة لوشانغ ، في اقليم شانغ سي ، لاستعراض الموقف بعد الاعلان عن تعبئة النساء . وبالرغم من انقسام الآراء بصدد المطالب الآنية ، أجمعت النساء على المطالبة بحصتهن من الاراضي المعاد توزيعها . ويصف لنا وليم هنتون المشهد في «فانشن» : «في قرية شاو شن كانت نساء كثيرات يقلن : اذا حصلت على قطعة ارض فسأفترق عن زوجي . وبذلك لن يعود في وسعه ابقائي تحت هراوته» .

«في شينغ تسون ، التقى فريق العمل بامرأة كان زوجها يجدها قبيحة ويرغب في الانفصال عنها . كانت خائرة العزيمة الى ان علمت ان قانون الكوادر يتيح لها الحصول على قطعة ارض . عند ذاك انقلب حزنها فرحا . «اذا طلب الطلاق ، فترحى له ! سوف تكون لي حصتي ، وستكون للاولاد حصتهم كذلك . سنعيش برغد بدونه !» . وكانت امرأة أخرى في القرية نفسها قد سبق لها ان هجرت مرة . وكان زوجها الثاني من الكوادر المحلية ، لكنه كان يذيقها مر

---

١ ـ ماوتسي تونغ : «تقرير عن التحقيق بصدد الحركة الفلاحية في هونان» .

الاضطهاد . وحين زارها احد اعضاء الفريق ، شرعت تبكي : «الرئيس ماو رجل طيب جدا ، لكن النساء ما زلن مغبونات . فليست لنا الحقوق ذاتها . وعلينا ان نطيع زوجنا ، لان وجودنا متعلق به !» . وبعد ان شرحت لها كيفية تطبيق القانون هتفت : «امر رائع حقا ، بوسعي اذن ان انال حصتي !» (١) .

لم يكن فتح الباب امام المراة الى ملكية الارض سوى بداية . فالمادة ٦ من دستور ايلول ١٩٤٩ تنص على ما يلي : «تلغي جمهورية الصين الشعبية النظام الاقطاعي الذي يستعبد المراة . ويكون للنساء ما للرجال من حقوق في ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة ، وفي مضمار التربية والحياة الاجتماعية . ويضمن القانون حرية الزواج للرجال والنساء» .

ان سن القوانين شيء ، وتطبيقها شيء آخر . وقد صدر قانون الزواج في وقت واحد مع قانون الاصلاح الزراعي : ١ ايار ١٩٥٠ . ولم يكن يرمي الى تنظيم العلاقات الجنسية ، وانما الى تحطيم البنى الاسرية التقليدية . وقد وضع حدا لسيطرة الرجل على المراة ، ولزواج الغصب ، وضمن احادية الزواج وتساوي الرجل والمراة في الحقوق . «يحظر القانون المضارة (٢) والتسري وخطبة الاولاد والتدخل في زواج الارامل وربط الزواج بدفع مال او هبة» . وللزوج والزوجة الحق في اختيار مهنتهن بحرية ، وفي المشاركة في النشاطات الاجتماعية ، وحق متماثل في التملك وإدارة الاملاك . ويقع الطلاق اذا ما اراده الرجل والمراة . ويكلف «اتحاد النساء الديموقراطي لعموم الصين» بتطبيق وتنفيذ ذلك القانون الذي يعني النساء في المقام الاول .

احسنت النساء استقبال الاصلاح الزراعي ، لكن تشريع الاسرة اصطدم في كثير من الاحيان بمعارضة النساء اللواتي بلغن سنا معينة واللواتي خشين من زوال سلطانهن على بنات جنسهن الاصغر منهن سنا . فاختيار الشريك بملء الحرية ، على سبيل المثال ، كان يحول بين المراة وبين ممارسة هيمنتها على البنات والكنات . وكانت العادات والاعراف السلفية عنيدة وراسخة الجذور . وغالبا ما كان عداء اصم ينشب بين الكنة الشابة وحماتها . وغالبا ايضا ما كانت الاعلانات الجدارية تظهرهما سوية على مقاعد مدرسة مسائية . وكان ينوب احيانا مناب الاكراه المادي ضغط نفسي لا يطاق ؛ اذ كانت الفتيات يرغمن على الاقتران من الزوج الذي تعينه لهن أسرتهن . وحين كن يحاولن ، بعد تنويرهن على يد الحركة النسائية ، الاقتران من الزوج الذي يقع اختيارهن عليه ، كانت الاسرة تقف من ذلك موقف المعارضة الضارية . بل ان بعض الفتيات تعرضن للقتل . وقد قتل اب بيده ابنته. واحيانا كانت الحماسة تستحوذ على الرجال فيطردون محظياتهم اللواتي لا يعود

---

١ ـ وليم هنتون : «فانشن» ، نيويورك ١٩٦٨ ، ص ٣٩٧ .

٢ ـ المضارّة : التزوج بامراتين في آن واحد . «م»

امامهن من منفذ ، وقد أعيتهن موارد العيش ووسائله ، سوى الانتحار . ولهذه الاسباب جميعا رأى «الاتحاد» نفسه مكرها على ان يلجم بمقدار ما في بعض المناطق برنامجه الذي لن يعاد تطبيقه الا في عام ١٩٥٣ .

رويدا رويدا ضمنت المؤسسات الاجتماعية وتقدم التربية وشروط العمل استقلالا تجاوز كونه مجرد نص قانوني . وفي مطلع الخمسينات بات عدد من النساء يشغلن مناصب ادارية رفيعة . صارت السيدة لي ته شوان وزيرة للصحة، والسيدة صن يات سن رئيسة للجنة القومية لحماية الطفولة ، ولمكتب الاحسان الشعبي ، ولمعهد المساعفة الاجتماعية . وصارت الآنسة شي لينغ ، المحامية ، وزيرة للعدل . هذه المشاركة الفعالة للنساء في الشؤون العامة كان لا بد ان تترك اثرا ملموسا . وقد تم انجاز عمل واسع . ففي ١٩٥٢ انشيء ٧٤٤ مستوصفا للنساء والاطفال ، وكذلك ١٥٦ مستشفى للاطفال . وأقام «اتحاد النساء» والتعاونيات مراكز عناية خاصة . وكان قانون التعاون الاجتماعي الصادر في ١ ايار ١٩٥١ قد ضمن أمن الشغيلة الاقتصادي في حالة وقوع حادث ، ومنح مأذونية ستة وخمسين يوما للأمهات قبل الوضع وبعده ، وحظر تسريح النساء الحوامل ، وأجبر جميع المشاريع الصناعية التي يزيد تعداد العاملين فيها على ٥٠٠ عامل على ان تنشيء بنفسها خدماتها الطبية الخاصة .

بالرغم من جميع تلك التغيرات ، بقيت النساء تابعات للرجال على الصعيد الاقتصادي . وكان تقسيم الاراضي يجعل استثمارها واهن المردود . ومع ذلك آثرت بعض النساء ان يزرعن بأنفسهن ارضهن . ولكن الغالبية راحت تبحث عن أشكال تشاركية للاستثمار . هكذا رأت النور التعاونيات . وفي اطار هذه التعاونيات لم يكن الاجر يسلم للمرأة الشابة ، وانما لزوجها : وفي الحقيقة كان معدل التعويض مبنيا على اساس «النقاط» ، على اعتبار ان وحدة العمل هي الاسرة . وبذلك لبثت النساء ، في الاسر التي بقيت فيها التصورات الاقطاعية على قيد الحياة ، تحت هيمنة الرجال . والنساء اللواتي كن يكدحن طوال النهار في الاستثمارات التعاونية كن يجدن انفسهن ملزمات ، فضلا عن ذلك ، بأعمال البيت وبالسهر على الاولاد . وجاءت «الكومونات» لتتدارك هذا الوضع ، ولتضع تحت تصرف النساء شبكة واسعة من الخدمات الاجتماعية . وفي الواقع كانت النساء في الكومونات مستقلات فعلا ، لان الاجور كانت تدفع على اساس نوع العمل : فكان كل شغيل وكل شغيلة يتقاضيان اجرا شخصيا عن الاشغال المنجزة . وكانت هذه الصيغة من صيغ التقرير الاقتصادي الذاتي تعزز مكانة المرأة وحظوتها في الاستثمارة . وكانت الكومونات تقدم ، من جهة اخرى ، محيطا اجتماعيا ، ومطاعم تشاركية ، ومزاود ، ودور تقاعد للطاعنين في السن ، وتهب النساء فرصة اداء دور فعال في الحياة الاجتماعية والسياسية . هكذا حلت مشكلة «مساواة في الحقوق» هي في الاصل نظرية صرف . ففي اطار التنظيم الاجتماعي للكومونة كان للنساء كنساء حقل نشاطات خاص بهن . فكان في وسع اللجان النسائية ، على سبيل المثال ، ان تعين معايير صحية تستجيب لحاجات المرأة :

ففي فترة الطمث لا تعمل النساء في المواضع الرطبة ، اما الحوامل فيعهد اليهن بأعمال خفيفة ، وكذلك يجري تشغيل المرضعات على مقربة من المزاود .

سنقترف خطأ فادحا لو تصورنا ان جميع تلك التغيرات تمت بانتظام وبلا منغصات . فقد كانت البلاد متأخرة وفقيرة ، وكان انعتاق النساء يفترض اعادة تكوين ثقافي مستمر ، واعادة توجيه شامل لوعي الذكور والاناث . وليس لتحولات من هذا القبيل أن تتم بلا أوجاع ولا جهود . يروي لنا هنتون قصة مبادرة قامت بها بعض فلاحات فقيرات من لونغ بو ، ومتزوجات من عناصر كادريـــة ثورية ، وتمثلت تلك المبادرة في تاسيس «رابطة نسائية» . كانت احاديثهن ، في غالب الاحيان ، تطفح بمرارة عظيمة . وباكتشافهن مقدرتهن على التعبير عن انفسهن ، اتضح لهن ان لديهن مواضيع للتشكي والتظلم بقدر ما لدى أزواجهن – وربمـــا اكثر . ورويدا رويدا طفقن يعين واقع انهن يؤلفن «نصف سكان الصين» .

«بقدر ما كانت اولئك النسوة ينظمن انفسهن ويحضرن اجتماعات ويشاركن في الحياة العامة ، كن يصطدمن بمعارضة الرجال ، وعلى الاخص الرجال فـــي وسطهن العائلي ، الذين كانوا يعتبرون نشاط نسائهم وكناتهم الخارجي مقدمـة للزنى . وكان أرباب الاسر ، ممن قدموا الحنطة الجيدة للحصـــول على نساء ، يعاملونهن وكأنهن ملكيتهم الخاصة : فهن لا وجود لهن في نظرهم الا لكي يكدحن وينجبن الاطفال ويخدمن الطاعنين في السن والازواج والحماة . ولم يكن يحق لهن الكلام الا اذا وجه اليهن الخطاب . في جو كهذا كان نشاط **الرابطة النسائية** يحدث ازمات منزلية في العديد من الاسر . وما كان الازواج هم وحدهم الذين يعارضون خروج زوجاتهم ، بل كانت هؤلاء الاخيرات يصطدمن ايضا بعداء الحموات والأحماء للاشكال الجديدة للحياة الاجتماعية . وكانت العديدات من الزوجات الشابـــات يضربن عرض الحائط بتلك المعارضة ويذهبن لحضور اجتماعات **الرابطة** ، فيكون قصاصهن الضرب عند عودتهن الى البيت» (١) .

بين النساء اللواتي ذقن ذلك العقاب ، كانت هناك فلاحة فقيرة تدعى مـان تسانغ . وقد ابت ان تذعن وترضخ ، ورفعت شكوى ضد زوجها . واستدعي هذا الاخير للمثول أمام **هيئة نساء القرية** ليشرح موقفه . وبدلا من ان يعلن السيد مان تسانغ عن ندمه وتوبته ، أجاب بلهجة متعالية انه ضرب روجته لترددها على الاجتماعات : «ان امرأة تحضر اجتماعات لا يكون لها من قصد سوى البحث عن عذر للمغازلة والفسق» . واعقبت ذلك مناقشة حامية . وثارت ثائرة النساء ، فهجمن على مان تسانغ ، وانهلن عليه ضربا ورفسا بالأقدام ، وجردنه من ثيابه ، وشددن شعره . وفي آخر الامر طلب الرحمة والعفو ، ووعد بألا يعود الى رفع يده على امراته . ويبدو انه وفى بوعده ، لان زوجته صارت تحضر الاجتماعات باسمها قبل الزواج ، شن إي ليان .

---

١ ــ «فانشن» ، ص ١٥٧ ــ ١٥٨ .

افلحت النساء ، بعد برهانهن بذلك الفصل الدراماتيكي على مقدرتهن على فرض ارادتهن ، في اقناع الازواج بالاقلاع عن ضرب زوجاتهم . لكن اندلعت منازعات مشابهة في جميع أرجاء الصين . كانت التصورات القديمة راسخة الجذور ، فلا تعفي حتى الحزب من شرها . فقد كان في صفوف الكوادر الشيوعية عناصر تتشبث بأفكار الماضي . هكذا تصور بعض مخضرمي **الثورة** ان لهم حقا في نساء صبايا . وما كانوا يقيمون وزنا في كثير من الاحيان للمشكلات النسائية . وقد شنت كومونة **الجبال الصخرية** في ضاحية بكين الكبرى حملة واسعة النطاق للسلامة العامة لتطهير الشوارع من الذباب والبعوض والجرذان التي كانت تعيث فيها فسادا ، ومن الطيور التي كانت تنقر الحبوب . وقد اكب الجميع على أداء المهمة . وتناوبت النساء من شتى البيوت على مراقبة الاولاد . وفي كثير من الاحيان تكفلت بذلك الجدات . ولكن لبث الرجال يتجاهلون حاجات النساء . فغلت صدور النساء ، وحررن تصاوير جدارية وبيانات عمل تنتقد موقف الرجال وتشرح مطالبهن . وشيئا فشيئا امتلأت الجدران بتلك الاعلانات . وقالت النساء للرجال : «أتحسبون انه ليس ثمة من حاجة الينا لبناء الاشتراكية ؟ وعلى افتراض العكس ، لماذا لا تهبون لمساعدتنا على تنظيم انفسنا ؟» (١) .

هكذا كانت البداية الحقيقية لتحرر النساء : فقد اكتسبن عادة إعمال الذهن والتفكير ! وهذا تطور ذو اهمية تربوية كبرى . فتربية المراة الصينية منذ **الثورة** لا تقتصر على التردد على المدارس او الفصول الدراسية ، وان كان ذلك يمثل في حد ذاته عنصرا تربويا حيويا . لكن الشيء الاساسي هو ما بات يتوفر للمراة من امكانية الحصول على مكانة وصوت في المجتمع بعد قرون من الاستعباد والصمت. تروي لنا لي كويي ينغ ، وهي امراة في الثلاثين من العمر ومن اصل فلاحي قامت بدور ريادي ، مغامراتها كزعيمة لجماعة عمل نسائي في تعاونيتها ، في حوالي عام ١٩٥٣ :

«كنت أريد ان تعمل النساء كجماعة . كنت أريد ان يقطعن صلتهن بالماضي ! في الشتاء فتحت مدرسة شتوية . كنا نساعد النساء على صنع احذية واثواب ، وعلى تحسين أدواتهن الزراعية . وكنا نلقي عليهن دروسا في تربية الدواجن والغزل . وكانت تعقب الدروس مناقشات . كنا نحاول ان نجعل النساء يتحدثن عما لم يتغير ، وعما تغير ، وعما ينبغي ان يتغير في المستقبل . كانت النساء تقول: «كانت قدماي معصوبتين ، فما كنت استطيع المشي . وفي المجتمع القديم لم يكن يحق للنساء ان يغادرن البيت خلال السنوات الثلاث الاولى من الزواج . وما كان يؤذن لنا بالاكل على الكانغ ، بل كنا نرغم على الاكل على خفيضة . ولو قرر اهلي تزويجي من واحد من الاوباش ، لما كان لي من مناص . أما اليوم فمن حقنا

---

١ ـ آنا لويز سترونغ : «نشوء كومونات الصين الشعبية» ، بكين ١٩٦٤ ، ص ٦٤ .

ان نرى زوجنا قبل ان نتزوجه ، واذا لم يعجبنا أمكننا الزواج من آخر . كان المجتمع القديم طالحا ، اما المجتمع الجديد فصالح !» . كنا نسأل هل تساوي النساء الرجال ، فكانت معظم النساء تقول : «الرجل والمراة في الاسرة متعادلان . فنحن نساعد الرجال في الحقول ، ومن واجبهم ان يساعدونا في البيت» . ولقد قالت اكثر من امراة مسنة واحدة : «خلقت النساء لاعمال البيت . المراة لا يسعها العمل في الحقول . هذا قانون من قوانين الطبيعة ! الرجل والمراة يخلقان مختلفين . الانسان يولد رجلا او امراة . يولد ليعمل اما في البيت وإما في الحقول ! » .

رويدا رويدا استقرت الثقة في نفوس النساء قاطبة . واثناء مناقشة حول مستقبل التعاونيات ، تكلمت اثنتان من النساء . قالتا : «لا تزال النساء المسنات يؤكدن انهن لا يفهمن ما يحدث ، وانه احرى بالنساء ان ياخذن في كل شيء براي الرجال . لكننا نعتقد اننا نفهم عميق الفهم ما يحدث . نحن نساء ونعرف عما يدور النقاش » .

واعلنتا رفضهما للربائح الزراعية ودعتا الى زيادة التوظيفات . وحاول احد الشيوخ اجبارهما على إطباق فمهما : «نخطىء اذ نستمع الى راي النساء عند بحث المسائل الجادة . فهن لا يفقهن شيئا . وما هن ، بعد هذا وذاك ، الا نساء ، وليس من حقهن التطفل على مناقشاتنا . وليست بنا اي رغبة في إرباك انفسنا بنصائحهن» (١) . لكن شقيق لي كويي ينغ احتج . ولفت الانتباه الى ان كل صيني من أصل اثنين صينية ؛ والى ان كلامهن معقول في رايه، والى انه يشاطرهن افكارهن بصدد التوظيف .

كفلت **الثورة** اذن للمراة الاستقلال الاقتصادي ، الامن الاجتماعي ، المساواة ضمن الاسرة ، وشروط عمل افضل . الا ان الاهم من ذلك كله أن النساء بات لهن الحق في ابداء الراي وإسماع صوتهن . وبالمقابل ، تبين ان مسالة التحرر الجنسي اشد تعقيدا من ذلك .

لقد غدت المراة الصينية عضوا ، لاول مرة ، في مجتمع يميز بين الجنسية ووظيفة الإنسال . وقد أساء الغرب للغاية فهم موقف الصينيين من موضوع تحديد النسل . فالصينيون أعداء الداء للمالتوسية ؛ وهم يرفضون ، مثلهم مثل الطبقة العاملة الانكليزية في مطلع عهد التصنيع ، تحديد النسل ، وذلك بمقدار ما يزعم انه هو البديل عن التحويلات الاجتماعية . لكنهم ليسوا من انصار الاسرة الكثيرة الافراد ، لان مثل هذه الاسرة تنصب العراقيل في وجه تربية الاولاد وتمنع الام من المشاركة في الانتاج والحياة السياسية والاجتماعية . لكن حدث مع ذلك تبدل تكتيكي : فإبان الخمسينات انصب المجهود الرئيسي على توزيع الكراسات والكتب

---

١ ـ يان ميردال : «تقرير عن قرية صينية» ، لندن ١٩٦٥ ، ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢ .

والبرامج الاذاعية التي تشرح بالتفصيل كيفية استعمال موانع الحمل . وبعد ذلك بعشر سنين باتت اللهجة تشدد على تأهيل الشغيلـــــة الاجتماعيين والمنشورات الطبية والحملات الفعالة . وصارت فرق الاطباء تقطع البلاد طولا وعرضا ، تعرض الافلام ، تلصق الاعلانات الجدارية ، تلقي المحاضرات امام جموع من الف شخص او من اربعة او خمسة اشخاص . وكانت هذه الاجتماعات تتيح للنساء فرصـــة عرض حالاتهن الشخصية : ومن ذلك ان قامت فلاحات يستعملن مبيدات المني او السدادة باطلاع النساء الاخريات على تجاربهن. وأجريت تجارب ايضا على الحبوب المانعة للحمل ، لكن هذه الحبوب لم تعتبر بوجه عام وسيلة مأمونة كثيرا . وإبان الخمسينات كان للاجهاض وجوده النظري ، لكن لا يبدو انه كان في متناول سكان الريف . وبعد ذلك بعشر سنوات دارت حوله مناقشات كثيرة ، وجربت طرائق بسيطة . وجرى اقتراح جهاز شراق لا يتسبب الا في نزيف بسيط في المناطق التي لم تكن الكهرباء قد وصلت اليها بعد . وبالرغم من ان الفلاحات الصينيات يحبذن الإجهاض ، فإنهن يتخوفن من جميع ضروب التدخل الجراحي . ولهـــذا الحت الصحافة الطبية الصينية على ضرورة شرح العملية وتطمين القراء . أمـــا التعقيم فما يزال في بداياته ، ولم يغد عرفا دارجا ، وذلك بالنظر الى النقص في عدد الشغيلة الطبيين ، والى الخوف من الجراحة ، والى معارضة الرجال . «لا بد من كل قوة اقناع ماوتسي تونغ حتى يفهم الصيني المتوسط ان التعقيم ليس خصيا ولا يؤدي الى ضياع القوة الجنسية» (١) .

حين يصل دعاة تحديد النسل الى مدينة من المدن ، يحاولون اولا ان يكسبوا تأييد المنظمات الفلاحية ، وعلى الاخص النسائية . وقد شرحت عضوة في واحدة من تلك المنظمات النسائية الموقف ليان ميردال :

«ليس من مطلب للنساء في بعض الاسر الكثيرة العدد سوى تحديد النسل. لكن ازواجهن يعارضون ذلك . فهم يجاهرون بالقول : «لا مجال للتخطيط العائلي عندنا !» . وتذهب نساؤنا الى مقابلتهم ويحاولن اقناعهم : «انظر كم عندك من اولاد ! زوجتك تهتم بالبيت ، وتعتني بالاولاد جميعهم ، وتصنع احذية وملابس لكما انتما الاثنين ولاولادكما ؛ وانت لا تفكر لحظة واحدة بالعمل الذي تفرضـــه عليها ، لا تفكر بحالتها الصحية ، لا تفكر الا في استيلادها المزيد من الاولاد ! انتظر ثلاث او اربع سنوات ، ثم عاود من جديد اذا شئت !» . وبوجه عام يقول الرجال في خاتمة المطاف : «اذا لم يكن الامر لمدى الحياة فانا موافق . لكن اذا كان تحديد النسل للابد فانا لا اريده !» . وبوجه عام ، يسير كل شيء على ما يرام ، وغالبا ما يقرر الزوجان الامتناع عن انجاب الاولاد . لكن قد يحدث ايضا ان يقابل الزوج

---

١ ــ ليو. ا. اورلنز : «شواهد من المجلات الطبية الصينية عن السياسة السكانية الراهنة» في «المجلة الصينية الفصلية» ، العدد ٤٠ ، تشرين الاول ــ كانون الاول ١٩٦٩ ، ص ١٤٢ .

مسعانا بالنفور والإعراض . وفي هذه الحال تكرر نساؤنا محاولتهن كل يوم الى ان يذعن . لم يفلح اي زوج حتى الان في مقاومتنا الى النهاية ... ان الكبرياء المذكرة هي التي تؤلبهم علينا ، لكننا نشرح لهم ان هذه الكبرياء في غير محلها ولا مسوغ لها . وتوجد ايضا اسر يرغب فيها الزوجان بالتفاهم المشترك في انجاب اكبر عدد ممكن من الاولاد . وفي هذه الحال ، لا يسعنا ان نفعل شيئا . فتحديد النسل ليس الزاميا . والشيء المهم هو ان تسير احوال الاسرة على ما يرام وان تكون الام سعيدة !» (١) .

وفي الواقع ، لا تصدر المعارضة عن الرجال على الدوام . فقد اجرى جراح انكليزي ، يدعى جوشوا هورن ، استقصاء مع العديد من النساء اللواتي حضرن اجتماعات عن «التخطيط العائلي» :

«ابرزت اجوبتهن وجود اتجاهين متعارضين ، وكلاهما مفهوم : ففي الماضي كن في حالة ادقاع لا تسمح لهن بتنشئة اولاد ، وكان الكثير من الاطفال يموتون عند الولادة او بعيدها لقلة الغذاء ؛ ومن بقي منهم على قيد الحياة عاش جائعا ، بلا ملبس لائق ، وبلا تعليم . أما وقد توفر الان الغذاء والمدارس للجميع ، فما الداعي الى الحد من عدد الاطفال ؟ وكان هذا الموقف يحظى بتأييد الاجداد الذين نشأوا على تقاليد الكونفوشية التي ترى في العدد الكبير من الاحفاد مصدرا للفخار والثراء والامن الاجتماعي» (٢) .

واعربت نساء اخريات عن تحبيذهن لتحديد النسل ، ولكنهن اضفن بأنه لا يوحي اليهن بالثقة .

لقد وضع تطور المساعفة الطبية عمليا حدا للامراض الزهرية التي كانت تصيب، قبل الثورة ، الملايين من الاشخاص ، ونزع عن الحمل والمرض طابعهما الكابوسي. ولا تزال المسنات من النساء يذكرن البصارة العجوز القذرة والمقملة ، المختفي وجهها خلف ستار شعرها ، المتمتمة بألفاظ غير مفهومة وهي تهز ضفيرتها ؛ وكانت توصي بتضحية حيوانات لا يملكها احد اصلا وبالقبول بقسمة القدر ؛ لكن الشابات من النساء كن يتصلن بالمقابل بأطباء المدينة وبالشغيلة الاجتماعيين في القرى .

كان لجميع تلك التغيرات انعكاسات على مركز المراة في الاسرة . وقد امكن، لحظة ظهور «الكومونات» ، ان يسود الاعتقاد بأن الصينيين في سبيلهم الى استبدال الاسرةببنية اجتماعية اخرى. فقبيل عام ١٩٦٠ بقليل شهدت حياة النساء تبدلا شاملا ، وذلك نتيجة لمحاولة دمجهن في العملية الانتاجية ولتطور الكومونات ، في الريف اولا ، ثم في المدن . وكان قسر الظروف يفرض احيانا اشكالا مبتكرة من الحياة التشاركية ، وكثيرا ما تلبست هذه الاشكال طابعا

---

١ ـ ميردال : «تقرير من قرية صينية» ، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

٢ ـ جوشوا هورن : «التخلص من الاوبئة كافة» ، لندن ١٩٦٩ ، ص ١٤١ .

محدودا ومصطنعا . ومن أمثلة ذلك أن اثنتي عشرة امراة من ربات البيوت عقدن اجتماعا وتساءلن عن الكيفية التي يمكنهن بها ان يؤدين خدمة ونفعـــا . واقترح عليهن رئيس اللجنة المحلية تأليف فريق محلي للانتاج ، الامر الذي كان يعني انه يسعهن ان يتكاتفن لصنع نعال من القماش او اكياس من الورق لحساب مخزن كبير . وبالفعل اجتمعت أولئك النسوة دوريا في منازل بعضهن بعضا ، غير ان هذا النشاط صار يتطلب منهن المزيد من الوقت ، فانطرحت بحدة مشكلة العناية بالاولاد وتحضير الطعام :

«قالت احدى ربـات البيوت : «لو كان عندنا فقط مطعم ودار حضانة كمـا في المصانع !» . وأضافت أخرى بقولها : «لماذا لا ننشىء ذلك كله عندنا ؟» . وحتى قبل ان تعرض خطتها ، بادرت سائر النساء الى تأييد رأيها . فقدمت احداهن سكين مطبخ ، وجاءت غيرها بآنية وأباريق وما الى ذلـــك من ادوات المطبخ . وتطوعت ربة بيت مشهورة بمهارة الطبخ بأن تقوم بدور الطاهية ، وتكفلت اخرى بدار الحضانة » (١) .

كان ذلك كله ابن ساعته . وكانت الخدمات الجماعية تتفاوت في اهميتها ، وكانت تخصص لها تارة مبان جديدة ، وطورا مبان قديمة ، شأن المطعم الـــذي أقيم ، عن حسن اختيار ، في معبد لإله الارض . وبالرغم من ان عددا كبيرا من الاعباء العائلية تم تشريكه على ذلك النحو ، الا انه لم يفكر احد باستبدال الاسرة ببنية جديدة ؛ كذلك لم يدر في خلد احد وضع حد للتفرقة بين الجنسين فـــي موضوع رعاية النسل .

تحنق النساء الصينيات ويغتظن حين يقال لهن ان الغربيين يرون فـــي «الكومونات» مساسا بمؤسسة الاسرة . ويؤكدن ان القضـــاء على اسباب التعب والحرمان يساهم على العكس في توثيق الاواصر العائلية . بل كثيرا ما يعتبر العشاء في الكومونات قضية عائلية .

كذلك لا يهتم الصينيون ببلوغ المراة النشوة الجنسية . وقد استقبلوا أسوأ استقبال نظريات تنغ لنغ وآغنيس سميدلي عن «الحب الحر» وتحرر المـــراة الجنسي . وتتسم الحركة النسائية الصينية بقدر من النزعة الطهرانية . لكننا نسيء الفهم لو ماثلنا بينها وبين تلك «الطهرانية» المرائية التي خلفها لنا المجتمع البورجوازي القمعي من العهد الفكتوري . وانما تشبه الطهرانية الصينية بالاحرى رغبة طهرانيي القرن السابع عشر في تحرير النفس من كل دنس . فقد كـــان الفراش ، بالنسبة الى المراة الصينية ، رمز عبوديتها بالذات ؛ فخيل اليها انهـــا بتملصها منه تخطو خطوة هامة الى الامام نحو انعتاقها . وقد قالت صينيـــة

---

١ ـ مود راسل : «الكومونات الشعبية المدينية في الصين» ، نيويورك فار إيست ريبورتر ، ص ٨ ـ ٩ .

لسيمون دو بوفوار بصدد مشهد اوبرا يصور امراة تصارع للافلات من محاولة الامبراطور مضاجعتها : «لهذا بالضبط طلبت النساء الصينيات الثورة من كل قلبهن : حتى يكون لهن الحق في ان يقلن لا لاشباه تلك الاشياء !» (١) .

ان الحب الرومانسي على نحو ما يفهمه الغربيون يثير دهشة الصينيين ، بالرغم من ان حق الاختيار الحر للشريك لعب دورا بالغ الاهمية في الكفاح الثوري الذي شاركت فيه الشابات من ساكنات المدن . اما في الريف فقد كان استعباد المراة موطد الدعائم الى درجة ابدى وما زال يبدي معها الشبان تحفظا كبيرا في ذلك المجال . وكثيرا ما يكون الشبان والشابات في القرية اكثر بدائية وتوحدا من ان يجاهروا بعواطفهم . لذلك يكلف الصبي او الفتاة ، وعلى الاخص الصبي ، شخصا مسنا كي يكون وسيطه . وقد شجع القرويون الشبان بعد الثورة على التقارب والتداني والقيام بنزهات تحت ضوء القمر . وتؤثر الفلاحات الشابات الفتيان الشغيلين وذوي الطبع الهادىء . ولا يقال عن الفتاة في الصين انها جميلة او قبيحة ، بل يقال «انها محببة على طريقتها» . وبديهي ان بنات المدينة اكثر تطلبا ، بالرغم من ملابسهن الصوفية الخشنة : «ستقول لك بنات المدينة نفس ما تقوله بنات القرية ، فتلك هي مقتضيات الادب . لكنهن يحببن في الواقع الفتيان المتانقين ، الوسيمين ، الظرفاء» (٢) .

ان عبارة «الآنسة شانغهاي» ما تزال تطلق على الفتيات المتكلفات ، المدعيات، المتصنعات اكثر مما ينبغي . والاخلاق المبنية على الغيرية والاقتصاد والعمل تشدد اللهجة بالضرورة على التعفف وتمالك النفس . ويلقى الزواج المتأخر (في حوالي الخامسة والعشرين) تشجيعا ، ويقابل الشطط والخروج على المألوف وشذوذ نجوم المجتمع بالشك والارتياب . وتقترن تلك الاخلاق بمحاولة انشاء حضارة جديدة مبنية على انضباط العمل حتى تتمكن الصين من تطوير صناعتها . وبعد «القفزة الكبرى الى الامام» في عامي ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ ، التي جندت فيها النساء على نطاق واسع للانتاج ، وجدت الحكومة نفسها مكرهة ، عقب ثلاثة مواسم رديئة متتالية ، على تركيز جهودها على العودة الى الاهداف القديمة بدلا من تعيين اهداف جديدة.

وضعت «الثورة الثقافية» حدا لتمجيد الأمومة الذي كان قد عم الكتلة السوفياتية بأسرها . وقد احتجت يانغ يون يو في تقريرها الى «مؤتمر النساء العالمي» في موسكو عام ١٩٦٣ على المسعى الرامي الى قصر دور المراة على دور الام: «للوهلة الاولى لا يبدو هذا الموقف وكأنه يمت الى السياسة بصلة ، ولكن عند امعان النظر فيه نكشف مستتبعات سياسية عميقة . فهو يهدف اولا واساسا الى ابعاد النساء عن الحياة السياسية . واذا ما فرض هذا الاتجاه نفسه ، فقولوا

---

١ ـ سيمون دو بوفوار : «المسيرة الطويلة» ، باريس ١٩٥٧ .

٢ ـ ميردال : «تقرير عن قرية صينية» ، ص ٢٢ .

السلام على انعتاق المرأة الكامل» (١) . وبدءاً من ١٩٦٦ كتبت الغلبة لهذا الاسلوب الجديد في تناول المشكلة النسائية . وقد نشرت «**النساء الصينيات**» نقدا ذاتيا لسياسة هيئة تحريرها التي «سممت النساء بفرضها عليهن فردوس الامومة الصغير» . وكان ذلك بمثابة تغيير عما كانت عليه الحال حتى في عام ١٩٦٥ ، اذ كانت الصحيفة لا تزال تشتمل على باب يتعلق بالتطريز ووصفات الطبخ .

على اثر حركة تعزيز التفكير السياسي التي واكبت «الثورة الثقافية» ، اقتنعت النساء في آخر الامر بأنهن ينفضن أيديهن في الواقع من كل مساواة اذ يحصرن انفسهن بملء ارادتهن ضمن جدران البيت والاسرة . كانت ياو زي سون، عاملة المصنع ، مغتبطة ببقائها في المنزل ؛ فهي لا تحب المناقشات والاجتماعات والمهرجانات الخطابية ؛ كذلك لا تحب ان تنتقد غيرها من الناس . ثم شاركت مرة في مناقشة في المصنع اثناء الثورة الثقافية . وغزا هذا النشاط الجديد دوائر جديدة من حياتها ، وتعرفت الى اناس جدد . واتسع افقها الى ما وراء جدران المصنع واسرتها والمنطقة التي تقطن فيها . وفهمت ان افعالها تخلف انعكاسات واسعة : «ان ما يفعله المرء هنا يترك آثاره هناك !» . وعليه ، ليس من حق النساء أن يدعن السياسة وأمرها للرجال .

لقد تعلمت فتيات الآنسة شاو وو شيان الكثير من الاشياء ابان السنوات الخمسين المتصرمة . تقول لنا صديقة ياو زي سون ، وتدعى وانغ جوي جوان : «في الماضي كنت مسحوقة ؛ ثم استيقظ فكري ، فتعلمت الكثير من الاشياء النافعة . في السابق كنت احسب ان الانسان «الطيب» هو الانسان الطيّع ، الذي ينفذ الاوامر من دون ان يقطب ، ولا يناقش في صلاح ما يفعله او طلاحه . وكنت متكيفة سلبيا مع واقع وجود اشخاص يرتعون في البحبوحة والبطالة بينما يكدح آخرون من أمثالنا ويكدون . ولكن ها نحنذا وقد اطلعنا على حقيقة الامور ! فوضعنا حدا لذلك النظام القائم على الجور واللاعدل ، وعلمتنا الثورة الثقافية انه لا يجوز لنا ان نسمح للنظام المقوض ان يعود بالحيلة والخداع ، وأن يستولي علينا من دون علمنا » (٢) .

مثلما تحيط الريب والشكوك بالإلحاح على موضوع الامومة ، كذلك تحيط بالإلحاح على موضوع الجنسية الرومانسية . ويشير رفض كل انفعال فردي الى الطابع الزهدي للثورة الثقافية ، ولكنه يمثل ايضا علاجا ناجعا ضد السلبية . وحسبما جاء في مقال نشر مؤخرا في «آفاق شرقية» : «تزدري الفتاة الصينية

---

١ – يانغ يون يو : «تقرير عن الصراع بين خطين في مؤتمر النساء العالمي بموسكو» ، بكين ١٩٦٣ ، بالفرنسية ، ص ٣٧ .

٢ – بربارة موتوتانتري : «النساء في الصين» في «آفاق شرقية» ، المجلد ٧ ، العدد ٧ ، ايلول – تشرين الاول ١٩٦٨ ، ص ٥٠ .

الماكياج ، وملابسها فضفاضة ومريحة ، لا تتسلط عليها الرغبة في انتزاع اعجاب الرجال ، وتعي مسؤوليتها في العمل الذي تتشاطره والرجال ، ولا تفكر الا بشيء واحد : تعمير بلادها» (١) .

يبرز تغير الموقف هذا بسطوع في الطبعات المنقحة لبعض الروايات الشعبية كرواية «الفتاة ذات الشعر الابيض» . فهذه الرواية هي في الاصل مسرحية كانت تؤدى في المناطق المحررة في عهد «المسيرة الطويلة» . وتروي قصة ابنة فلاح فقير اضطرت الى العمل كخادمة في منزل مالك ابيها . فقد انتحر هذا الاخير حين عجز عن سداد ديونه . واغتصب المالك الفتاة ، وهربت الى الجبل لتلاقي في مغارة حبيبها . وتلد طفلا ميتا وتعيش كحيوان على الجذور والثمار البرية . وبين الحين والحين كانت تسرق قليلا من القوت من المعبد . وبعد تحرير المنطقة على أيدي الشيوعيين ، تعود أدراجها الى القرية لتسأل ظالمها الحساب وتلتقي بالفلاح الشاب الذي تحبه . وبسبب ما قاسته من آلام يبيض شعر رأسها . وفي طبعة ١٩٧٠ تلوذ الفتاة بالفرار ، ولكن مشهدي الاغتصاب والوضع محذوفان . أما الاب ، فبدلا من ان ينتحر يقتل في عراكه مع المالك ، وتشارك الفتاة ذات الشعر الابيض في العراك . وبوجه عام تلح الطبعة المنقحة على المقاومة اكثر مما تلح على الآلام والاوجاع .

تروي لنا «الفصيلة النسائية الحمراء» ، وهي دراما ايقاعية حديثة ، حياة وو شنغ هوا ، ابنة فلاح فقير تهرب من وضعها كجارية لتلتحق بصفوف الجيش الاحمر . في بادىء الامر ، اعتبرت تطوعها الايجابي هذا فعلا انتقاميا شخصيا ، لكن ما لبثت ، بفضل تأهيلها السياسي ، أن ادرجت مأساتها الشخصية في اطار الحركة الاوسع والارحب . وثمة اشارة الى العاطفة التي تربطها بمنقذها ، لكن حين يلقى هذا الاخير مصرعه وهو يقاتل ، لا تتخلى وو شنغ هوا بسبب ذلك عن نشاطها كمنظمة .

لا يقع الصينيون ابدا في تفاؤل ساذج : فالنساء لا يستثنين من طريقة التفكير التي تشدد اللهجة على ضرورة التعبئة والتجنيد ، والتي تعتبر الاشتراكية سيرورة متواصلة يساندها الشعب عن وعي وبفعالية وتتطلب حضارة جديـــــدة . ان الاشتراكية لا يمكن ان تكون الا ثمرة لنضال متواصل . وإبان «الثورة الثقافية» كانت مشكلة المساهمة النسائية تحتل مكانة هامة . وتبرز الصلات بين تحرر المرأة والتسيير الذاتي بجلاء ساطع في تنظيم لجان الشارع . ففي ضاحية شانغهاي ، على سبيل المثال ، تتألف «لجنة الشارع» من اثنين وعشرين شخصا يمثلون مختلف الاحياء والمنظمات السياسية . وستة عشر من اعضائه الاثنين والعشرين نساء . وقد انشأت **اللجنة** مزاود ، دور حضانة ، مطاعم جماعية لا تهدف الى الربح ،

---

١ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٦ .

مراكز استشارة ، مشاريع صغيرة تجد فيها النساء اللواتي لا يسعهن الانتقال الى اماكن اخرى عملا يستغرق كامل وقتهن او نصف وقتهن . وشروط اشتغال هذا النوع من المشاريع أفضل من غيرها في احيان كثيرة لانها تستطيع ان تأخذ بعين الاعتبار على الفور الشكاوى او الاقتراحات (١) .

لقد تركت «الثورة الثقافية» ، ولا بد ، انعكاساتها على الاسرة . ونموذجية من هذا المنظور مغامرة دينغ هي يو ، الحلاق في احدى «فصائل الانتاج» في اقليم لونغ هوا . فبعد ان تابع سلسلة دروس في التأهيل السياسي عاد الى بيته ممتلئا حماسة ورغبة في مناقشة الافكار الجديدة مع اسرته . لكن امراته ، المستخدمة في مشغل الخياطة في احدى الكومونات ، لم تبد اهتماما . فهي ما كانت تحسن القراءة والكتابة ، وكانت أماً ، ولا تشعر بالانجذاب الى السياسة ، لكن البنات الكبيرات ايدن والدهن ، واخذن على عاتقهن ان يضغطن على أمهن . وبدلا من ان يكتفين بقراءة اعمال ماوتسي تونغ ، استقين منها أغاني ورقصات تعبر عن مضمونها الفكري . وسرعان ما شاركت امراة دينغ هي يو في ذلك الابتكار ، وقدمت الاسرة برمتها ، وفي شكل درامي ، الافكار الجديدة الى الجيران (٢) .

ان اعضاء «جمعية تطوير التفاهم الصيني ـ البريطاني» ، الذين زاروا الصين في تشرين الاول ١٩٧٠ ، بدا لهم ان عملية الدمج الشامل للحياة العائلية بالكومونات، تلك العملية التي بدأت في أواخر الخمسينات ، لم تحقق تقدما كبيرا . صحيح انه انشئت مطاعم جماعية ودور حضانة ، لكن عددها كان محدودا . وتكمن وراء هذا التطور أسباب اقتصادية بكل تأكيد ، لكن علته ترجع ايضا الى ان النساء ، وعلى الاخص الفلاحات يؤثرن على ما يبدو الحياة في اطار الاسرة على التسهيلات التي تقدمها الكومونات . وقد زار اعضاء الجمعية مزودا في منتهى البساطة تابعا لاحد المصانع . كانت صور من شتى الالوان معلقة على الجدران . وكانت نساء يراقبن الاطفال ، لكن النساء والرجال على حد سواء كانوا يأتون لاخذهم . وكان الاطفال يرقصون ويغنون ، وكانت الاناث منهم يظهرن من الفطرة والتلقائية اكثر مما يظهر الذكور .

ويبدو ان احد اهداف «الثورة الثقافية» كان تحرير النساء المعانيات ، بين سائر الاشخاص غير المتمتعين بامتيازات كثيرة ، من اضطهاد خاص ونوعي . كان من المنطقي اذن الغاء التمييز بين عمل الرجال وعمل النساء . وفي الواقع ، باتت النساء يستخدمن في اعمال لم يسبق لهن قط ان كلفن بها في ظل العهد البائد،

---

١ ـ ديك اندرسون : «الحكم الذاتي على مستوى القاعدة» في «انباء جمعية تطوير التفاهم الصيني ـ الانكليزي» ، آذار ١٩٦٩ .

٢ ـ رولان برجيه : «الثورة الثقافية والاسرة» في «انباء جمعية تطوير التفاهم الصيني ـ البريطاني» ، شباط ١٩٦٩ .

لكن ظلت بعض الفوارق قائمة في المهن التقليدية . فقد زار اعضاء الجمعية مشغل تطريز تتالف غالبية اليد العاملة فيه من النساء . وكان عدد الرجال محدودا للغاية، وكانوا من الرسامين الرفيعي التخصص ، بينما كانت غالبية النساء يطرزن باليد او على الآلة . ولكن كان هناك مع ذلك عدد كبير من النساء الشابات في عداد المتدربين على الرسم . وقد شرح رئيس القسم للزوار انه بدلا من السعي الى الغاء التمييز بين عمل الرجل وعمل المرأة تبذل المحاولات لالغاء الفارق بين الشغيل المختص والشغيل غير المختص ، وذلك عن طريق تعليم الرسم للنساء جميعا وتعليم التطريز للرجال قاطبة . وعند سؤاله عن تركيب اللجنة الثورية المح رئيس القسم لزواره بغمزة من عينه الى انه الرجل الوحيد فيها . واللجنة هي التي تتولى توجيه المصنع واختيار الرسوم وتسويقها . وقد تحدثت بعض النساء ، لكن رئيس القسم كان يتكلم بيسر ودقة اكبر .

ان أولئك الذين يضعون نصب أعينهم القضاء على مخلفات الماضي يجهدون باستمرار لحمل الاشخاص الذين يؤثرون التزام الصمت عادة على المشاركة في النقاش . يروي جوشوا هورن في «لنتخلص من الاوبئة كافة» كيف اطاحت الثورة الثقافية بالبنيان التراتبي لمهنة الطب . ولما كانت النساء يشغلن تقليديا ادنى المراتب ، فان ذلك الانقلاب كان يعنيهن اكثر من اي فئة أخرى . وقد انتقدت الممرضات الاطباء . وفي المدارس دعيت البنات الى تحدي اساتذتهن لاخراجهن من إسار سلبيتهن . وكثيرا ما يغادرن بيت الاهل كي يذهبن للعمل في الريف لردح من الزمن . ولم يكن من السهل الحؤول دون تمرد الشبيبة على مجتمع شديد التعلق باحترام السلطة وبتوقير الشيوخ . فتاة في الخامسة عشرة ضربت استاذا تفوه بعبارات رجعية ، وعادت ادراجها الى البيت بعد مناقشات حادة مع الحرس الاحمر في بكين ، مقتنعة بأن «استخدام القوة يستفز مقاومة الناس ، بينما تكثر حظوظ اقناعهم فيما لو استخدمت معهم لغة العقل» (١) .

لقد كان لذلك كله آثار ملموسة على الصعيد المحلي ، لكن التمثيل النسائي في الادارات المركزية لا يزال غير كافٍ ، بالرغم من ان عددا من النساء ، ومنهن زوجة ماوتسي تونغ ، شغلن مراكز رفيعة إبان الثورة الثقافية . والحق ان هذا مظهر جزئي من مشكلة اعم هي مشكلة الديموقراطية الثورية . ومن المؤكد ، من جهة اخرى ، ان الافكار التقليدية عن دور النساء هي افكار راسخة الجذور . فقد اصطدمت بعض الطالبات في معهد عالٍ ، ممن كن ابدين رغبة في صيف ١٩٦٩ في الانضمام الى فريق من حراس قطعان الماشية ، اصطدمن بريبية زملائهن من الجنس المذكر . هتف فلاح يقول : «في حياتي كلها لم أر «حارسة» لقطعان الماشية . هؤلاء البنات لا يعرفن كيف يضعن أقدامهن في الركاب ، فماذا سيفعلن

---

١ ــ آنا لويز ارمسترونغ : «رسالة من الصين» ، العدد ٤٦ ، ٢٩ كانون الثاني ١٩٦٧ .

حتى يحرسن الخيل ؟» . واعرب زميل آخر عن رايه بانه «يوم ستتعلم البنات حراسة الخيل ، ستطير الديكة الى السماء» . وردت الفتيات بقولهن : «النساء يقدن الطائرات ؟ ... فلماذا لا يستطعن حراسة الخيل ؟» . لم يحملهن احد على محمل الجد ، وقوبلن بالهزء والسخرية ، لكنهن لم يقلعن عن مشروعهن (١) .

يثبت تقرير فلاح فقير من قضاء شونغ سان ، اقليم كوان تونغ ، ان النظام الزوجي القائم على اساس بيع النساء وشرائهن لم يخسر دعاته وانصاره في الصين :

«في كومونتنا لا يزال مالك عقاري لم يطله الاصلاح ينشر علنا وجهارا بلاهات رجعية من قبيل : «العناية الابوية هي كالنعمة من السماء» او «من يعط ابنته من دون ان يطلب تعويضا نقدا وعدّا ، يكن كمن يعزو الى كائن انساني قيمة هي دون قيمة الطين !» . انه ينصح اولئك الذين يزوجون بناتهم بطلب «هدية زفاف» او «تعويض مالي» . ذلكم هو الاتجاه الجديد لصراع الطبقات . فعلينا ان نضاعف من اليقظة » (٢) .

معلوم أن يقظة الصينيين تلبست احيانا اشكالا درامية ، لكن العديد من المعضلات لبثت بلا حل . ومن المباح للمرء أن يتساءل عما اذا كانت للنساء مصلحة في الالحاح على الاضطهاد الخاص والنوعي الذي يقاسين منه ، وذلك بهدف وضع هرم تراتبي جديد للقيم ، ما دام نشاط القاعدة المستقل ذاتيا يقبل التوفيق مع الصورة المعظّمة لرئيس كماوتسي تونغ يقود كل شيء من الاعلى . وانه لمن الصعب أن نحدد مدى قابلية التحرر الانساني للتحقيق ما دام الهامش ضيقا بين التعمير الاشتراكي والنضال ضد المجاعة . كذلك لا ندري الى اي حد يمكن ان يفصل التوكيد على مشاركة النساء في السياسة الثورية عن تداخل دور كل من الرجل والمراة ، وعن تحول بنية الاسرة ، وعن المحاولة الواعية الرامية الى ربط التحرر الجنسي بإقامة مجتمع جديد ؛ بيد ان التضاد بين العالم القديم وبين الصين فيما بعد الثورة ظاهر كل الظهور للعيان .

تنتقد هان سويان بعض مظاهر الثورة الثقافية ؛ وترفض بعض المواقف الفريسية التي تتذرع احيانا بالاخلاقية الكونفوشية ، المتطرفة اكثر مما ينبغي في نظرها . لكنها تفهم ان الشعب الصيني ، وعلى الاخص النساء الصينيات ، يتطلع بعد قرون من الاستعباد الى اعادة النظر على نحو شامل في حضارته . وعبودية النساء منقوشة اصلا في رموز الكتابة الصينية :

---

١ ــ بي كو هونغ : «فريق البنات لحراسة قطعان الماشية» في «تعمير الصين» ، المجلد ١٨ ، العدد ٩ ، ايلول ١٩٦٩ .

٢ ــ «تخلصوا من زواج البيع والشراء والقوا به في سلة مهملات التاريخ» في «انباء الصين»، ١١ كانون الثاني ١٩٧١ .

«حتى الرسم الدال على لفظة المراة كان يشير الى الاستعباد : فالفاصل الافقي الرامز الى ثقل صدرها الغليظ ، ووركاها الناتئان ، وساقاها المقوستان على شكل صليب ، تكاد تذكرنا بصورة حيوان من ذوات الاربع . وكثيرا ما فكرت بعد ذلك بأن الصين المعاصرة ، التي اجتاحتها الثورة الثقافية التي تدعو الجميع الى تمحيص تعلقنا الخفي ببقايا عبوديتنا على ضوء العقل ، يتوجب عليها في المقام الاول ان تستأصل بصورة تامة ، أن تغير راسا على عقب بعضا من تلك الرسوم اللغويـــة البغيضة ، الشاهدة الامينة على الفي سنة من الاوليغارشية الاقطاعية وعلى اربعة آلاف سنة من اضطهاد المراة» (١) .

ان الصينيين حين يتناولون بالبحث الموقف الاساسي للنساء ــ وفي التحليل الاخير لجميع الكائنات البشرية ــ من ماضيهن من خلال استمرارية الثورة ، يجدون انفسهم منقادين الى ان يطرحوا على انفسهم سؤالا لا يحق لنا تجاهله : لماذا تعلقنا بماضينـــا ؟

وان نلاحظ ان تحرر المراة لا يزال يصطدم في الصين فيما بعد الثورة بحدود معلومة ، فان هذه الملاحظة لا تنتقص من قيمة المنجزات المتحققة . واذا لم تغب عن انظارنا ابدا نقطة الانطلاق التاريخية لصعود المراة الصينية ، نضع انفسنا في منظور يسمح لنا بتقييم الموقف تقييما واقعيا ، ويقينا في الوقت نفسه من اغراء انزال التجربة الصينية على نحو لا يخلو من ميكانيكية منزلة المعيار لتجربتنا . فما تاريخنا بواحد ، والاشتراكية والتحرر اللذان نتصورهما واللذان يمكننا تحقيقهما يختلفان عظيم الاختلاف عن الثورة الصينية . فالاولوية التي تعلقها هذه الثورة على مشكلات العمل ، والنزعة الطهرانية في المضمار الجنسي ، وهما السمتـــان الملازمتان لتحرر المراة الصينية ، لا توائمان الراسمالية الغربية او البلـــدان الاشتراكية الاخرى ، وانما ينبغي تأويلهما بصفتهما طورا خاصا من اطوار سيرورة التقدم . وفي الوقت الذي نصنع فيه نحن تحررنا الذاتي ، تثبت تجربة ثـورات اخرى ان الخلاص يمكن أن يأتي حتى في أشد الاوضاع تقلقلا وترديا . فالديكة تطير الى السماء .

---

١ ــ نقلا عن جو اوبريان : «مطالعة في (صيف بلا مصافير)» في «المراة الاشتراكية» ، تموز ــ آب ١٩٦٩ .

-٨-

مستعمرة في المستعمرة

«نحن نعيش ، في خاتمة المطاف ، في ظل نوع من نظـــام طائفي عالمي يحتل فيه القمة الرجل الابيض التابع للطبقة السائدة الغربية وتحتل سافلته المراة الملونة المنتمية الى العالم المستعمَر».

ماري كيللي

«حركات التحرر الوطني وتحرر النساء» فـــي «شرو» كانون الاول ١٩٧٠ .

«كانت امهات الخلاسيين ينتمين الى جماعة العبيد ؛ وكان لهن بينهم اخوة غير اشقاء ؛ وبالرغم من ان الخلاسي صار يحتقر ذلك النصف من قرابة اسلافه ، الا انه كان بين العبيد وكانه بين ذويه وكان قادرا ، بصرف النظر عن ثروته وتربيته ، على التاثير عليهم على نحو لا يستطيع اي ابيض ان يجاريه فيه . ومن ناحية اخرى ، كان استعباد الارقاء يتم ـ بغض النظر عن الارهـــاب الجسماني ـ عن طريق اقامة مماثلة بين العبودية والهوان وبين اجلى سمات العبد : الجلد الاسود» .

ك. ل. ر. جيمس

«اليعاقبة السود» (جزر الهند الغربية) .

اين انت الان ، يا شانغو
يا ايها الكائن الجبار ، ذو الراسين ،
الرجل والمراة ، الخنثاوي ،

المسك بيده الصاعقة الراعدة
بخبث مطمئن ومتوحش ؛
افريقيا ، كوبا ، هايتي ، البرازيل ،
عبودية الفكر لم تلغ ،
الرغبة في العقاب ، وليس في الحب .

آبيوسه نيكول

«الفصح الافريقي»

سيراليون

ثمة بعض اوجه شبه بين استعمار البلدان المتخلفة وبين اضطهاد النساء في النظام الرأسمالي : التبعية الاقتصادية ، الوصاية الثقافية ، التشبه بالمضطهِد المنظور اليه على انه معيار للعزة والكرامة . ولنذكر ايضا الفخ المتمثل في اقامة شعائر عبادة شكل محدد من البدائية ، نتاج الخيال الرومانسي والمتعجرف للمضطهِد . ف «المتوحش الطيب» و«الام المرضع» يغدوان رمزين عاجزين وشالين للصفات التي دمرها الانسان بواسطة الرأسمالية . على هذا النحو يقترن تقدم التكنولوجيا بضرب معين من الحنين والتوق الى الماضي . وترتدي النزعة الابوية اشكالا متنوعة ، لكن خطها العام لبث على الدوام على حاله . فمالك العبيد يحسب نفسه والدا عطوفا الى ان يتمرد العبيد . وضحية الرأسمالية يؤذن له بالتطور ، ولكن فقط ضمن اطار مخطط خصوصي ، هو مخطط التخلف . السيد يتكلم عن المساواة ، لكن افعاله تكذب اقواله . ان المستعمِر ، شأنه شأن كاليبان ، يدرب على الاستقلال ويمرن عليه ، لكنه لا يعامل ابدا على قدم المساواة :

«علمتني اللغة ، والفائدة التي جنيتها منها هي انني صرت اعرف كيف العن » (١) .

ان هذه اللعنة في لغة السيد هي التي تفتح الطريق لحركة التحرر . فاول افعال العقوق يعطيك شعورا لذيذا بالانفراج .

لكن عند هذا الحد يتوقف التشابه بين الامبريالية الجنسية والامبريالية العنصرية ، وعلة ذلك الجزئية هي ان نساء المستعمِرين قد استفدن هن انفسهن من اسلاب السيطرة الامبريالية . بل انهن كن في بعض المرات اشد المحامين عنها تصميما وضراوة . فنظرا الى الطابع العارض والهش لتفوقهن ، كن ينتقمن من النساء الوطنيات بشراسة تتلخص فيها غيرتهن الجنسية والعرقية . ويعرف هذا

---

١ ـ كاليبان في «العاصفة» ، نقلا عن أ. مانوني : «بروسبيرو وكاليبان» ، نيويورك ١٩٦٤ ، ص ٧٦ . (وكاليبان مفريت هائل الجثة في مسرحية شكسبير «العاصفة» ، يجسد القوة الوحشية المرغمة على الخضوع لقوة تسمو عليها من دون ان تكف لحظة واحدة عن التمرد عليها . «م») .

الموقف ذيوعا وانتشارا واسعين حين يقترن الاستعمار بالرق كما في جزر الانتيل. فقد كانت نساء ملاك العبيد يعشن تحت سلطان هاجس واحد : ايثار ازواجهن الواضح والاكيد لاجساد جواريهن السود . وكان الاطفال الخلاسيون الذين يأتون الى الدنيا من تلك العلاقات ، والذين كانوا ينشؤون على احتقار امهاتهم وازدرائهن، بمثابة ذكريات حية عن غريمات المرأة البيضاء . فكانت هذه الاخيرة تعمد ، وعلى الاخص في حال غياب زوجها ، الى ارتكاب افعال انتقام شنيعة .

وشهدت المدن الصناعية ، بالاضافة الى ولادة طبقة عاملة ، تطور نظام معقد من التراتبات العرقية والجنسية . تكتب إستر بوسروب بهذا الخصوص :

«يصادف المرء عادة في البلدان النامية ، داخل المشاريع الصناعية التي يمتلكها اوروبيون ، تقسيما قائما على معايير عرقية وجنسية : فالرجال الاوروبيون يحتلون قمة الهرم ويتولون الوظائف التي تنطوي على اكبر قدر من المسؤوليات والمزايا المادية ، بينما تكلف النساء الوطنيات ـ من افريقيات وآسيويات ـ بالمهام الثانوية التي يتقاضين عليها ادنى الاجور» (١) .

أما في الاعمال الادارية ـ الوظائف المكتبية ووظائف المراقبة ـ فاننا نجد رجالا ملونين ـ صينيين او هنودا ـ الى جانب نساء اوروبيات : فالتراتب العرقي والجنسي أقل حسما . ولكن في داخل النخبة الوطنية تعمل القليلات من النساء المتميزات عن غيرهن ممرضات او معلمات ، اي ان نشاطهن يؤلف امتدادا لدورهن في الاسرة . وهكذا تتميز مشاغلهن المحظوظة عن مشاغل الذكور من حيث بنيتها بالذات . وزبدة القول ، تشكل النساء شريحة زهيدة نسبيا ، على صعيد التربية وامكانيات العمل ، من نخبة البلدان النامية .

لقد ساهمت الامبريالية في تعميم الاستياء والتذمر ، فما عادا ظاهرة خاصة ومحلية ، بل صارا قضية قومية . وقد بلورت حركات التحرر القومي ، بنوع ما، الاستياء العام . وواكبت مطالب مقتبسة من الرأسمالية الغربية ، مثل الزواج الاحادي وتحديد النسل وارتياد المدارس والحق في التنظيم ، السعي الى الامن الاقتصادي والحق في امتلاك الارض والسيطرة على الاسواق وطرد الاجانب ، وهي كلها متطلبات نبعت مباشرة من تجربة المحرومين والمسلوبين . وحين ينشق قسم من الانتلجانسيا المدينية عن طبقته كي يعد العدة للثورة الاجتماعية ، يبادر الى انشاء مخطط نظري . وقد عرفت النسوية تطورا مماثلا ، بالرغم من انها لم تكن قط سوى صدى واهن للحركات التي يقودها رجال .

استلهمت الحركات النسوية الاولى ، التي رأت النور في البلدان النامية بعد ١٩٢٠ و١٩٣٠ ، نسوية «التساوي في الحقوق» التي رفعت رايتها الطبقات الوسطى في المجتمع الراسمالي . لكن غياب بورجوازية قوية لم يسمح لها بالتفتح

---

١ ـ إستر بوسروب : «دور المرأة في التطور الاقتصادي» ، لندن ١٩٧٠ ، ص ١٤٧ .

الحقيقي . وقد لاقت تلك الحركات احيانا تشجيعا بفضل مجهود التغريب المفروض من قبل الدولة فرضا . هكذا وضع مصطفى كمال في تركيا حدا للحجاب ولتعدد الزوجات . وفي حالات اخرى ، كانت الحركات النسوية تحمل علامة النخبة النسائية المتميزة والمحظوظة التي يؤرقها التوق الى نزعة انسانية جذرية وتشحذ همتها الثقة في طاقات الفرد. وقد كانت الرواية على الدوام وسيلة ممتازة للدعاية. في هذا الخط تندرج رواية تقدير اليس جهبانا : «الاشرعة المنشورة» التي نشرت بعد ١٩٣٠ في اندونيسيا : فالمؤلفة تستعرض الصعاب التي تصطدم بها النساء المنعتقات . **تاكي** ، بطلة الرواية ، تفسخ خطوبتها حتى يمكنها ان تنذر نفسها بتمامها للحركة النسوية . وفي **مؤتمر النساء** ، تلقي خطابا يكاد ان يكون مثالا نموذجيا على ذلك النوع من النسوية :

«ليست المراة بالنسبة الى الرجل سوى دمية تدلل ما دامت محبوبة ، وتنبذ ما أن تفقد جاذبيتها . وليس لها ، وهي الجارية ، ارادة مستقلة ، بل تنصاع لذاك الذي هي خادمته . ان شعبنا لم ينظر قط ، حتى يومنا هذا ، الى المراة على انها كائن انساني ذو سيادة ... فهي مجرد عنصر في حياة الرجل ... وحتى لا تدرك حقيقة وضعها المهين تحبس في البيت الى يوم زواجها . فما الداعي الى ارسالها الى المدرسة ما دامت ستحصر نشاطها فيما بعد في المطبخ ؟» .

ثم تضيف قولها :

«من واجبنا نحن ان نرشد الى سواء السبيل امراة الغد ، المراة الحرة التي ستكون لها شجاعة تبني افكارها وافعالها !» (١) .

ان امراة كهذه لا تفكر بدالة البيت ، وانما بدالة العالم . وما هدفها في الحياة الزواج ، وانما المهنة . انها لم تعد «جارية الرجل» ، وانما عديلته : لم تعد تخشاه ولم تعد تستنجد بعواطف الشفقة لديه . ولقد كانت هذه النزعة الجذرية بالغة الاهمية من حيث انها اتاحت للنساء ان يعين حقيقة شرطهن ، ولكنها كانت بالبداهة وقفا على النساء الغنيات . فالتربية تبدو وكانها امر مفروغ منه ، وثمة من يسهر على الاطفال بينما تبني المراة المنعتقة مستقبل حياتها .

يرينا فيلم عنوانه «أسوار الصلصال» المعركة اليائسة التي تخوضها فتاة صبية في قرية في افريقيا الشمالية . انها قلقة ، ترقب الرجال ، تتعلم القراءة بمساعدة اخيها الصغير ، ترنو بحسد الى المساعدة الاجتماعية المتانقة الآتية من المدينة . وحين يعلن الرجال الاضراب في اماكن العمل للحصول على زيادة في الاجور — انهم يعملون في نحت الحجارة وتربيعها ، ويريد الجنود الذين وصلوا الى المقلع منع القرويين من تقديم المطعام والشراب لهم — تخفي سطل البئر ، فترغم بذلك الجنود على الانسحاب اذ لم يعد معهم ماء للشرب . وبعد هذه الاحداث ،

---

١ — كورا اوريد دي ستوير : «المراة الاندونيسية» ، لاهاي ١٩٦٠ ، ص ٨٤ — ٨٥ .

تعلن تمردها المكشوف على والدها . وإذلالا لها تمرغ النساء العجائز وجهها وراسها بالدم ، ويشددن شعرها قبل ارسالها الى الصحراء . ان الشرط النسائي في مثل ذلك المجتمع يتحدد بشبكة من العلاقات الاجتماعية التقليدية تحبط سلفا، بالنسبة الى غالبية النساء ، كل محاولة للتمرد . فالمراة التي تتمرد تغدو كالمنبوذة. صحيح انه وقعت أعمال تمرد عديدة من جانب المستهلكات والبائعات الافريقيات دفاعا عن حقوقهن وتجارتهن ، ولكن تلك الاعمال اعتبرت مشروعة لانها ترمي الى اعادة المياه الى سابق مجاريها .

ان المراة لا تستطيع اتخاذ مبادرات خارقة للمألوف الا في ظروف استثنائية هي الظروف التي تواكب تمردا **سياسيا** . فحركات الاستقلال القومي هي التي اتاحت للمراة غير المنتمية الى النخبة الاجتماعية الصغيرة أن تشارك مشاركة نشيطة في الاحداث . لكن غني عن البيان ان الخيار السياسي المتاح للنساء في مثل تلك الحال يكون متحددا بطبيعة حركات الاستقلال القومي . هكذا نظمت النساء العربيات في عام ١٩٢٩ ، على سبيل المثال ، مؤتمرا نسائيا ضمن نطاق المقاومة العربية للحركة الصهيونية المدعومة من قبل البريطانيين . وقد شاركت في أعمال المؤتمر مئتا امراة، بينهن زوجات كبار الزعماء العرب . وما كانت النساء اللواتي حضرن ذلك المؤتمر النسائي الاول في فلسطين ممن يتحجبن . وكانت حركتهن تتماثل كل التماثل والحركة القومية العربية . وقد طالبت التقدميات منهن بتخفيف الاحكام الصادرة على الجنح السياسية وبتحظير توريد اسلحة الى فلسطين يمكن لليهود ان يستعملوها . وبعد زيارة اللورد اللنبي للقدس في ١٩٣٢ اتسع نطاق الحركة النسائية ونظمت تظاهرات جماعية . لكن ذلك التماثل ادى الى انهيارها: فقد ربطت النساء قضيتهن بقضية الحركة العامة التي كانت تريد الحؤول دون قيام دولة اسرائيل . والحال ان الاهداف السياسية والقومية لم تتحقق ، اضف الى ذلك ان النساء الفلسطينيات كن عاجزات عن ارساء اساس اجتماعي لتحرر المراة العربية .

في الهند لعبت النساء دورا هاما في الكفاح ضد البريطانيين . لكن حتى اثناء عصيان ١٨٥٧ ــ ١٨٥٨ حثت النساء في احدى الاسواق الشعبية الرجال على التمرد . وبعد ذلك بحقبة مديدة ، اي عند مطلع القرن العشرين انضمت المتعلمات من النساء الى المنظمات والتجمعات الدينية ، مكان لقاء جميع المستائين. وكانت تلك التجمعات ، مثل «جمعية أحباء الله» التي أسستها آني بيزانت ، تلك المراة التي كانت قد نظمت نقابة للعاملات في صناعة الثقاب في لندن ، تشجع ايضا على تطور بعض اشكال النضال النسوي . وطرداً مع امتداد الحركة القومية في العشرينات والثلاثينات ، اتسع نطاق النشاط النسائي . وبالرغم من مقاومة غاندي لمشاركة النساء في حركة التحرر ، نظمن تظاهرات ، وقمن بعمليات رصد امام المخازن ، وقاومن بشجاعة غارات الشرطة ، واخذن طريقهن الى السجون . وفي البنجاب ابدت العاملات نشاطا هائلا . وثار الجناح اليساري من الحركة القومية

النسائية على استغلال الطبقة العاملة سواء أعلى أيدي البريطانيين أم على أيدي الهنود ، ولكن تلك الميول غرقت في مد الكفاح القومي من اجل الاستقلال . وفي الساعة الراهنة يبقى «التحرر» وقفا على ذوات الامتيازات من النساء ، ولكن حتى هؤلاء لا يمكنهن العمل والنشاط الا في حدود ضيقة .

لقد اثبتت النزعة القومية البورجوازية عجزها عن سد حاجات الفقراء في العالم الثالث . وهذه الملاحظة اكثر انطباقا ايضا على الفقيرات من نساء العالم الثالث . ولم تفد مشكلة تحرر المرأة مشكلة يعتد بها الا ساعة تحول الكفاح في سبيل التحرر القومي الى نضال ثوري .

ولكن حتى في هذا الطور من النضال تواجه النساء في غالب الاحيان أوضاعا معقدة ، لانهن يصطدمن بعداء الرجال المسكين بزمام الحركة الثورية . وقد يحدث ان يقبل هؤلاء بمشاركة النساء في الكفاح ضد الامبريالية ، ولكن في المجتمع الذي يتخيلونه للمستقبل ، ستلزم النساء حدودهن من جديد بمنتهى الفظاظة . فبالنسبة الى الرجل «المستعمَر» ، يغدو حقه في تملك زوجته ضربا من فكرة ثابتة بعد تخلصه من القناع الابيض . وتندرج في خط التطور نفسه فكرة الاستيلاء على نساء الرجل الابيض وإزالة صفة القداسة عنهن . وذلك كله عبارة عن وسائل ينوي بواسطتها ان يفلت من الاذلال والهوان . انه يريد ان يضع «موضع تنفيذ» السيطرة التي جعلته الامبريالية يرزح تحت وطأتها . لقد استعار من الرجل الابيض بنى خياله الجنسي . وبقي أسير القناع الابيض ؛ وكل ما هنالك انه عكس صفاته. وتجد المرأة البيضاء نفسها في وضع يحوطه الالتباس . فهي طرف في جماعة الاقوياء ، لكنها تشعر في الوقت نفسه بأنها موضع اذلال ومغازلة من جانب الرجل الذي صوّر لها على انه كائن محرم ودنيء . وبسعيها الى لقاء الرجل «المستعمَر» تنبذ ضمنا ذكر العرق المسيطر ، ولكنها تعلم انها قوية بجلدها الابيض الذي هو بمثابة جواز سفر يؤمن لها ، عند الاقتضاء ، الحماية الامبريالية . وتنظر اليها نساء عرقها بتسامح متعجرف وبحسد خفي ، بينما تلومها النساء «المستعمَرات» على تعديها على حقوقهن ، هن «المنزوعات الملكية» .

بالرغم من ان التضامن بين النساء قمين بتذليل بعض الصعاب في هذا المضمار، فإنما على عاتق المرأة «المستعمَرة» يقع عبء التخلص من تركة عهد الإذلال والاضطهاد . ان حركة يحددها الرجل دونما اعتبار للاهداف الاجتماعية للمرأة لا يمكن ان تكون كافية. وتحرر المرأة في البلدان النامية يقتضي انشاء ثوريا لمستعمرة داخل المستعمرة . وإلا فان قسما من المجتمع سيبقى موضع احتقار ، ولن يتحقق ابدا خلق «الانسان الجديد» الذي دعا اليه تشي غيفارا ، لأن الرجال الثوريين سيعاندون في اعتبار «تحررهم » وسيلة لوضع اليد على القوة اللازمة للتحكم بكائنات انسانية اخرى . ويوم تعي نساء البلدان المستعمَرة نسويتهن الثورية الخاصة ، سيكون في الامكان النظر الى وضعهن السابق ورؤيتهن السابقة للعالم من منظور جديد . ونحن لا نزال في بداية البداية .

«حين تنهار أسوار القلعة ، فالامر يعني الملك . وليس على الارملة ان تجعل من ذلك شاغلها الشاغل نهارا وليلا» .

مثل سائر فيتنامي

«ما أفجع مصير النساء
ما أحزن قدرهن .
ربّاه ، لمَ كنت قاسيا علينا ؟
ضائع ربيع حياتنا ،
ذابلة وجناتنا الوردية .
المرأة التي ترقد هنا كانت
في حياتها ملكا للجميع ،
وبعد موتها تهيم روحها في الوحدة» .

كيو ، قصيدة من القرن الثامن عشر عن غانية .

المغوارة

«الليل أقصر من الطريق
دروبه أشد تداخلا من
الخطوط الصغيرة التي تتصالب
على راحتي ابنتي الصغيرة .
لكني سأحمل لهذه البلاد ، بلادنا ،
جرح الخنادق ،
سأحفر أفخاخا للفرنسيين
الذين سيطؤون هذه الارض ،
أسرّة للرقاد فيها ،
قبورا في الوطن لعدو الوطن .
ستكون الحفر أعمق من حقدي ،
وسيكون العمل أسرع من دموعي .
في وسعكم ان تخنقوا صيحات اطفالي ،
لكن لا يسعكم ايقاف ايقاع يديّ العاريتين
المتشبثتين بالوحل المتجمد الذي سيحتويكم» .

بعد «تو هوو» ، ١٩٤٨

السهاد

«عليها ان تكتب له انها حامل ؟

كيف ستسمي الولد ذا الوجه شبه المنسي ؟
اذا كان فتاة ، فنابالم .
واذا كان صبيا ، فـ «م ١٤» او «شرابنل» ،
حتى لا ينسى ، حتى لا ينسى ابدا
انه يكافح في سبيل بلاده —
عشرون عاما من الحرب ناقص
عشرين عاما من الالم ،
يساوي صفرا .
كل مساء تنتظر الوسن حتى الفجر .
لعل عليها أن تكتب له ،
لكنها تؤثر ان تراه بعينيها المغمضتين ،
هناك في الاعالي ، في الجبل المشجر ،
سعيدا باطلاعه رفاقه على الرسالة غير المكتوبة» .

«حين تشارك النساء مشاركة كثيفة في الحياة السياسية ، تطرق الثورة مرحلة جديدة» .
النساء الفيتناميات بمناسبة اجتماع لـ «الاتحاد الديموقراطي العالمي» ، ١٤ كانون الاول ١٩٧٠ .

«نحن جميعا فيتناميون» .
بيت من قصيدة بعنوان : «ذاك الذي ضحى بنفسه من اجل السلام» ، فان تهي مي ، ايار ١٩٦٧ . زعيم الطلبة البوذيين .

كان اضطهاد المرأة الفيتنامية يماثل ، من اكثر من وجه ، اضطهاد المرأة الصينية . ففي فيتنام كان يعيث فسادا نفس نظام الزواج المفروض بالاكراه ، وما كان يحق للنساء أن يرثن ، وكن يعشن في تبعية كاملة لوالدهن ، ثم لزوجهن ، واخيرا لابنهن البكر . وكانت الاخلاق الكونفوشية تلح على سلطة الذكور وتقبل باضطهاد النساء . وعلى حد تعبير «كتاب الطقوس» : «تحظر الاخلاق مغادرتها بيتها . فمجالها الوحيد هو المطبخ» . وكل عصيان يجب ان يقمع ؛ يقول كونفوشيوس : «الغوغاء والنساء جهلة ، تحركهم الغرائز الفاسدة ، وتصعب تربيتهم» . وفي اسفل الهرم تقف المحظيات ، مثل المرأة في قصيدة كيو ، اللواتي تهيم أرواحهن متوحدات بعد الموت . والمحظية تحتل ، ما دامت حية ترزق ، نفس المرتبة التي يشغلها اولاد المرأة الاولى . وكان يسري بين نساء الريف على الدوام تيار مقاومة عميق ، ولعل السبب في ذلك انهن كن يشتغلن في الحقول مع ازواجهن ، وكن بالتالي أقل انحباسا من نساء الطبقات العليا . وغالبا ما تعكس

الاغاني الشعبية روح مقاومة الاضطهاد تلك . فمنذ ما ينوف على الف عام ، حلمت تريو تهي ترينه ، وهي صبية في الثالثة والعشرين من العمر وسليلة اسرة فلاحية من تران هوا ، حلمت بعالم مغاير . كانت قد قالت لشقيقها : «بودي لو اسيطر على العاصفة ، لو أهدىء الامواج ، لو أقتل قروش البحر ، لو أطرد العدو لانقذ شعبنا . لن اقبل بقسمة النساء اللواتي يطأطئن الراس ويصرن محظيات» (١) . وتتزعم مع شقيقها حركة تمرد على السادة الاقطاعيين الصينيين . وحين اخفقت الحركة ، آثرت الانتحار على ذل العبودية . وتعطي الاغاني الشعبية احيانا فكرة اخرى عن دور المرأة ، او تتغنى بحق الصبايا في زواج الحب بدلا من زواج الاكراه . وحين غزا الفرنسيون فيتنام في القرن التاسع عشر ، شارك العديد من النساء في الكفاح ضد الغازي .

مع مجيء الاستعمار وطد الفقر والجوع اطنابهما . هجر الفلاحون قراهم واستقروا في المدن ، او عملوا في المناجم ومصانع النسيج . وكما في كل مكان آخر ، ما كانت النساء يعانين من الاستغلال الاقتصادي فحسب ، بل كن يكابدن فوق ذلك من اضطهاد موقوف عليهن . كن ، اذا حملن ، شددن احزمتهن شدا ، فيختنق الاولاد في كثير من الاحيان في أحشائهن. وكانت البنات الامهات وأولادهن موضع ازدراء الجميع . وما كانوا يتمتعون بأي حماية شرعية . وفي المدن ، كانت المواخير في ازدهار . وشهدت البلاد استقرار اخلاق مزدوجة : فلا رحمة ولا شفقة للنساء «الساقطات» ، لكن الاستعماريين احتفظوا لانفسهم بالحق في تحويل كل امراة يقع عليها اختيارهم الى مومس . وكان الفيتناميون من الطبقات العليا شركاء في تلك التصرفات ؛ فكانوا على استعداد دائم لبيع زوجاتهم للفرنسيين ليضمنوا لانفسهم فرص الارتقاء الاجتماعي . وكان الاغتصاب امرا مقبولا بقدر او بآخر ما دامت الضحية فيتنامية . وما كان العنف الجنسي ليبدو من المكروهات ازاء العنف الذي يقاسي منه شعب بأسره .

في اطار هذا الوضع ، ما كان يمكن فصل «المشكلة النسائية» عن القضية العامة المتمثلة في الكفاح ضد الغازي . كانت جماعات صغيرة من النساء في المدن تطالب بـ «المساواة في الحقوق» على اساس معتدل واصلاحي ، ولكن التناقضات التي اصطدمت بها كانت اكثر واعقد من ان تسمح لها بالتطور والازدهار . وقد اتاح الحزب الشيوعي الفيتنامي المؤسس في عام ١٩٣٠ (وقد بدل اسمه في ١٩٥١ الى «حزب الشغيلة الفيتناميين») المجال لدمج حركة انعتاق المراة في معترك النضال من اجل تحرر الطبقة العاملة والتحرر القومي . ومنذ البداية لعبت «المشكلة النسائية» دورا حيويا . فقد لاحظت الدورة العامة للحزب منذ عام ١٩٣١ ان «المراة الفيتنامية هي العنصر الاكثر اضطهادا في المجتمع» . وكان

---

١ ـ نقلا عن «دراسات فيتنامية» ، العدد ١٠ ، مانوي ١٩٦٦ .

مسلما به ان مساواة الجنسين هي احد الاهداف الرئيسية للثورة . وقد زحفت النساء ، اللواتي ما كان عندهن الا القليل ليخسرنه مقابل الكثير الذي قد يربحنه ، على منظمات الحزب وقاتلن الفرنسيين اولا ، ثم الاميركيين . في البـــدء ، كان نشاطهن سريا . فقد كن يتسللن الى المصانع والاســـواق والاحياء العمالية ، ويتحدثن مع الناس عن الفرنسيين وينظمن عمليات تخريب . وقد قتل العديد منهن . وقد تركت امراة تعرضت للتعذيب قصيدة كتبتها بدمها على جـــدار زنزانتها :

«انا امراة وردية الوجنتين
اقاتل جنبا الى جنب مع الرجال !
كاهلي يرزح تحت ثقل حقدنا المشترك .
السجن مدرستي ، والسجناء رفاقي .
السيف طفلي ، والبندقية زوجي !» .

ان الوضع الاستثنائي الناجم عن حرب لا نهاية لها يخلق روابط بين الناس . وتستند المقاومة الفيتنامية الى تقاليد عريقة . فتاريخ فيتنام هو تاريخ استعمار بلا نهاية ، واكبته ثورات وآلام وشهادات . وتحضر دوما في ذاكرة السكان الآلام الماضية والآلام القادمة . انه الالم الذي يورثه الآباء ابناءهم . التقت مرة دورية فرنسية في دلتا الميكونغ بامراة عجوز تحاول اخفاء قدر كبيرة من الارز . فسألوها اين يختبىء الانصار وضربوها بأعقاب بنادقهم . فرفعت العجوز راسها وهتفت بإباء : «انا عجوز ، ولم اعد قادرة على حمل بندقية . لكن اولادي ، وعددهـــم بالمئات في شتى أرجاء البلاد ، سيقتلونكم ، انتم يا قراصنة . انـــي لا أخشى الموت !» . وقتلها الفرنسيون وهم الذين كانوا يعرفون كيف تحمل البندقية ، ولكنها كانت على حق ؛ فقد طرد الفيتناميون القراصنة الفرنسيين ليجدوا انفسهم في مواجهة عصابة ادهى خطرا : الاميركيين .

غني عن البيان ان الحرب مست النساء بقدر ما مست الرجال. ورويدا رويدا وجدت النساء انفسهن في وضع يتميز بالمساواة في الالم ، ووجد اولادهن انفسهم في الوضع نفسه . ولم يكن هذا التطور واحدا ومتماثلا في كل مكان ؛ فقد كان الى حد بعيد رهنا بطبيعة عمليات القتال ؛ ومن هنا كانت الفـــوارق الكبيرة بين شمالي البلاد وجنوبيها . فأثناء حرب الفوار ضـــد الفرنسيين قاتلت الآلاف من النساء ، لكن عملهن كان اقرب الى النشاط الموقوف على النساء عادة . فقـــد كانت الامهات والزوجات ينصبن حواجز على الطرقات لايقاف الشاحنات التي كان الفرنسيون يهجّرون فيها ابناءهن وازواجهن . وكن ينقلن الى خط المعارك اغذيـــة وذخائر . وكن يرممن الطرقات ، ويداوين الجرحى ، وينقلن الرسائل ، ويعددن المخابىء . وكانت جميع هذه المهام اساسية ، وراود النساء لاول مرة الشعور بالمشاركة الفعالة في الدفاع عن حياض الوطن ؛ لكنهن ما كن يتولين كالرجـــال اعباء القتال في الجبهة وقيادة الاعمال العسكرية . اما في الجنوب حيث كـــان

التمييز بين الجبهة والمؤخرات اقل وضوحا ، فقد راحت النساء يتولين رويدا رويدا مناصب ذات اهمية حيوية .

ان مختلف اطوار انعتاق النساء في الجنوب تتجلى ببالغ الوضوح في حياة السيدة بنه (١) . فقد كانت في الثامنة عشرة من العمر حين انتهت الحرب العالمية الثانية وغادر اليابانيون البلاد . وكانت تختلج في صدرها مثل عليا وطنية مبهمة، وكانت تدرك ان الفرنسيين يحتقرون شعبها . وقد وضعت املها في الاستقلال . وحين عاد الفرنسيون في عام ١٩٤٥ ، امتشق والدها السلاح لمقاتلتهم . فلا مجال لاحناء الظهر مرة اخرى . وعملت السيدة بنه في البداية كطالبة جامعية في صفوف المقاومة ، ثم في منظمة نسائية وجماعة من المثقفين . في ذلك العهد ، ما كان احد يعرف كيف يوجه القتال ، وما كان هناك بد من تعلم كل شيء . وكان النشاط السياسي لتلك المنظمات غير عنيف وشرعيا .

«نظمنا مسيرات احتجاج على اعتقال الوطنيين ، ووزعنا نشرات ، وكنا نجتمع لنتناقش» . وفي اطار الاحتلال الاستعماري كانت مثل تلك النشاطات تستتبع قمعا وحشيا . وكان لها من العمر اربعة وعشرون ربيعا حين القي بها في غياهب السجن وعذبت على ايدي فيتناميين جنوبيين يعملون باسم الفرنسيين : «مرتزقة يعذبون ابناء وطنهم طمعا في المال» . وفي السجن لاحظت «وجود مئات من النساء مسجونات مثلها ولا يعرفن حتى لماذا اقتدن الى هناك ! كن يتساءلن عن طبيعة المآخذ عليهن . ما كن يعلمن ذلك عند وصولهن ، لكنهن صرن يعرفنه عند مغادرتهن السجن : فقد غادرنه كوطنيات !» (٢) . ان الامبريالية مربية كبيرة .

على اثر اطلاق سراحها في عام ١٩٥٤ في اطار الاتفاقية العامة ، انضمت الى الجمهور المحتشد للاحتفال بالتحرير ، فاذا بشرطة دييم تفتح النار وتصرع احدى صديقاتها . وفي الخمسينات نظمت مع غيرها من النساء تظاهرات احتجاج سلمي ما لبثت ان اصطدمت بمقاومة متزايدة الحدة . في ١٩٥٧ غادرت السيدة بنه سايغون وعاشت في الخفاء ، فكانت لا تخرج من مخبئها الا ليلا . وفي تلك الشروط وضعت طفلها الاول ، وهي تساعد القرويين على تنظيم القتال . وفي المدن كانت النساء يتابعن اثناء ذلك تظاهراتهن :

«في ١٧ كانون الاول ١٩٦٠ سارت تريونغ تهي باي ، وهي فتاة في ربيعها السادس عشر ، باتجاه ميتون حاملة العلم على راس مظاهرة . فقتلتها الشرطة . فحلت محلها على الفور نغوين تهي بي ، التي كان لها من العمر ثمانية عشر ربيعا ، واصيبت بدورها بجرح مميت . وتقدمت الموكب فتاة ثالثة وسقطت هي الاخرى صريعة رصاص الشرطة . لكن المتظاهرين مضوا قدما الى الامام ، فتوقف الجنود

---

١ ـ وزيرة الخارجية في الحكومة الثورية المؤقتة لفيتنام الجنوبية . «م»

٢ ـ ماوتا جلهودن : «الفيتكونغ صانعو السلام» ، «التايمز» ، ٢٧ كانون الثاني ١٩٦٩ .

عن اطلاق النار» (١) .

في العام التالي تأسس «اتحاد النساء لتحرير فيتنام الجنوبية» ، وضم طالبات مدارس وجامعيات وشغيلات ومثقفات . ولم تكتف أولئك النسوة بالكفاح الى جانب الرجال ، بل تولين بأيديهن تحرير القرى وانشاء الادارات في المناطق الحدودية . هكذا اصبحت نغوين تهي دنه اول مفوضة مكلفة بقيادة الجيش ، وهي وظيفة قامت بعبئها الى جانب قيامها بدور رئيسة **الاتحاد النسائي** . اذن ، لا تمثل السيدة بنه حالة على حدة .

ان المجهود العام الذي تقتضيه متابعة الحرب لا يسمح بالتمييز بين تحرر النساء والتحرر القومي . فجيش النساء يعاني معاناة شديدة من الوجود الاميركي. فمن اصل خمسة ملايين امراة في الجنوب ، يبلغ عدد المومسات اربعمئة الف ؛ وتقع فتيات صغيرات تتراوح اعمارهن بين الثانية عشرة والرابعة عشرة فريسة الاغتصاب يوميا . والحق ان النساء الفيتناميات الجنوبيات لفي وضع يؤهلهن للحكم على القيمة التي تعلقها الراسمالية الغربية على الحياة الانسانية . فالى جانب القنابل التي تقتل اولادهن في المدارس ولا تراعي احدا ، هناك ايضا الغازات السامة التي تقضي على كل نبات والتي سببت منذ عام ١٩٦١ عددا خارق الارتفاع من حوادث الاسقاط او إنجاب الاطفال الموتى او المشوهين من ذوي الرؤوس الضخمة والادمغة الضامرة . ان امراة تحمل في احشائها ولدها لمدة تسعة اشهر بينما يحوم الموت من حولها ، وترى بأم عينها كيف تتسرب التكنولوجيا الامبريالية الى احشائها بالذات ، انما تحمل الحرب في اعمق اعماق كيانها .

في لقاء مع عضوات حركة تحرر النساء في كانون الاول ١٩٧٠ ، عرضت ما تهي شو ، وهي من قادة الجبهة الوطنية لتحرير جنوبي فيتنام ، اشكال مساهمة النساء في الكفاح من اجل التحرر . فالنساء يشاركن في قتال الانصار، وينظمن عمليات تخريب وكمائن ، ويقمن بدور عملاء الاتصال . وتذهب عضوات الاتحاد النسائي الى المناطق المغزوة من قبل العدو لينظمن فيها وحدات قتال نسائية . والمتقدمات في السن من النساء هن اللواتي يرتدين في كثير من الاحيان بزة القتال . تسمعهن يقلن : «لماذا نعرّض بناتنا للاغتصاب من قبل الجنود الاميركيين ؟ احرى بنا أن نذهب نحن العجائز !» . ولا يقل عن ذلك اهمية المظهر السياسي لحركة التحرر . فالعديد من النساء غير المسيسات التحقن بالحركة ازاء استفحال شر ويلات الحرب .

في ١٩٧٠ دفعت حادثة اغتصاب في غابة الفظاعة بمجموعة من النساء ، ممن كن لا ينتمين الى حركة التحرر القومي ، الى تأسيس «لجنة النساء المناضلات في سبيل الحق في الحياة ومن اجل كرامة النساء الفيتناميات» في سايغون . وقد

---

١ ـ «دراسات فيتنامية» ، عدد خاص عن «النساء الفيتناميات» ، هانوي ١٩٦٦ .

ثار سخط أولئك النسوة ازاء توكيد سلطات سايغون بأن المراتين (أم وكنتهـــا هاجمهما جنود اميركيون بينما كانتا تعملان في الحقل) قضتا نحبهما من الإنهاك . فنظمن اجتماعا وطلبن سحب القوات الاميركية . ولقد كان ذلك رد فعـــل فوري وعفوي من قبلهن ، لكن الفلاحات لهن تجربة طويلة وخبرة طويلة فيما يتعلـــق بالتنظيم السري .

روت لنا ما تهي شو كيف تذهب النساء الى المدينة ليتظاهرن . فهن يتقدمن على الطريق بجماعات صغيرة ، وكأنهن ذاهبات الى السوق ، وقد غطين رؤوسهن بالمناديل ، والمتقدمات في السن منهن يظلعن مستندات الى عكاكيز . ثم يتجهن جميعهن على حين غرة نحو موضع متفق عليه . فتتحول مناديلهن الى لافتات كتب عليها : «ايها الامبرياليون الاميركيون ، اتركوا فيتنام الجنوبية !» . وترتفـــع اللافتات الى العالي بواسطة عكاكيز العجائز . وسرعان ما تشكل المتظاهـــرات مجموعات : بعضها يذهب الى مقر حاكم الاقليم ، وبعضها الآخر الى مكتب ممثل الحكومة ، وبعضها الثالث الى السلطات الدينية . واذا افلحت المجموعة فـــي تسليم عريضتها ، عادت ادراجها لتنضم الى المجموعات الاخرى . احيانا ، يعتقل عدد كبير من النساء ، فتنذر عندئذ سرا ساكنات المدينة او تستقدم امدادات من الريف . واذا لم يطلق سراح المعتقلات احتشدت جموع غفيرة من النساء في المدينة طوال ايام . ويصطحبن معهن اطفالا رضعا واولادا ويعسكرن امام المباني العامة . وترتفع ضجة مصمة للآذان حيث يختلط هدير الشعارات ببكاء الاطفال . وكثيرا ما يسقط الامر في ايدي الموظفين الفيتناميين الجنوبيين ، فيقبلون العرائـــض ويطلقون سراح المحتجزات ، لانهم لا يعرفون كيف يتخلصون من أولئـــك النسوة والاطفال الغاضبين .

يضم الاتحاد النسائي نساء من شتى الاتجاهات السياسية والدينية ؛ وينسق الاعمال السياسية التي من ذلك القبيل ، وان تركت المبادهة على الدوام للتجمعات المحلية . وينكب كذلك على «مشكلات تمس بوجه خاص النساء ، فتراه يبث الثقة بالنفس وروح المبادرة في أولئك اللواتي لم يتعلمن الا الانزواء والانصياع» . ويهب ايضا لمساعدة النساء اللواتي لا موارد لهن ولا صلات . وتدرك عضوات **الاتحاد** تمام الادراك ان التحرر الذي تتمخض عنه الحرب بالغ الاهمية ، لكنهن يدركن ايضا ان انعتاق المرأة بعد رحيل الاميركان مشكلة شديدة التعقيد وبالغة الصعوبة . تلاحظ ما تهي شو بهذا الصدد :

«في مؤتمرنا الاخير الحت عضوات الاتحاد النسائي على ضرورة استفـــادة النساء كامل الاستفادة من النصر النهائي ؛ فقر قرارهن على فعل كل شيء لتحاشي تكرار التجربة التعيسة للنساء الجزائريات اللواتي شاركن في كفاح التحرير ضد الفرنسيين ، لكن اللواتي عجزن عن تحقيق تحررهن الذاتي» (١) .

---

١ ـ آنا دافن : «النساء في فيتنام» ، شرد ، كانون الاول ١٩٧٠ .

في باريس ، اعربت عضوة في وفد السيدة بنه عن راي مماثل اثناء مناقشة لها مع بعض عضوات الحركة الاميركية لتحرر النساء :

«قالت انها آسفة لان الوقت غير متوفر لها للكلام عن «نضال النساء» في الولايات المتحدة . وشرحت قائلة ان النساء يعززن مراكزهن في الجنوب ، وانهن متنبهات تماما للمعركة التي تنتظرهن بعد الحرب ، وانهن مستعدات لها . وعبرت عن تضامنها مع النساء اللواتي يناضلن في الولايات المتحدة» (١) .

كانت النساء الاميركيات يراودهن شعور بأن الفيتناميات الشماليات لا يعين ان النضال من اجل تحرر النساء يجب ان يستمر بعد الفوز بالنصر . ويكمن تفسير هذا الموقف في طبيعة الحرب في أرجح الظن : فقد اخذت النساء على عاتقهن ادارة القرى ، لكنهن لا يقاتلن في الجبهة ؛ ومن جهة اخرى اتاح لهن تنظيم الحزب المتمتع بقدر اكبر من التلاحم الفرصة للعمل عن طريقه وبواسطته ؛ ولما كان الحزب الشيوعي قد حسّن كثيرا وضع النساء فقد خالج هؤلاء الاخيرات انطباع بأنهن جزء لا يتجزأ منه ، بالرغم من ان المناصب القيادية ليست في متناولهن .

لقد لعب الاصلاح الزراعي ، هنا كما في الصين ، دورا بالغ الاهمية . فمنذ عام ١٩٥٠ صار بوسع النساء ان يكن مالكات للارض ، مثلهن مثل الرجال ، وهن يتقاضين اجورا واحدة ما عادت ترجع اصلا الى جيب رب الاسرة . ويضمن لهن الدستور المساواة في الحقوق والاجور ، وإجازة امومة كذلك . كما يكفل تشريع الضمان الاجتماعي والتشريعات النقابية الاخرى حماية فعالة للشغيلات . لكن صبوات النساء الى المساواة تصطدم في الممارسة بصعاب كبيرة للغاية . فبالرغم من مؤازرة السلطات ، تجد النساء انفسهن في وضع مجحف بالنظر الى النقص في تأهيلهن المهني والى شعورهن بأنهن ادنى من الآخرين وغير متكيفات . وخلافا لتوجيهات الحزب لا تزال النساء يلعبن دورا ثانويا وتابعا في مضمار العمل والسياسة . صحيح أن بعض النساء يشغلن مناصب تدريسية ، لكن المدارس لا تدار من قبلهن . في مستهل الخمسينات كان لا يزال يسود الاعتقاد بأن التعليم لا يمكن الا ان يلحق الاذى والضرر بالبنات . أفلم يكن يقال ان الفتاة التي تعرف الكتابة تضيع وقتها في انشاء رسائل غرامية ؟ لكن النساء تعلمن جميعا ، بعد ذلك التاريخ ، القراءة والكتابة ، وتعاظم الالحاح منذ ١٩٦٠ على ضرورة تأهيل ثانوي للبنات . وفي حالات كثيرة ، ما امكن لنساء الجيل القديم ، المكرهات على تنشئة ما يصل الى تسعة اولاد ، ان يستفدن من التسهيلات المتاحة لهن في ذلك المضمار، لكن الفتيات لم يتخلفن عن شق طريقهن الى المهن الهندسية والتقنية او دراسة الفنون الجميلة . وتمتلك بعض المصانع فرقا خاصة بها لغناء الجوقة والرقص

---

١ ــ شارلوت بونش ــ ويكس : «النساء الاسيويات في الثورة» في «النساء : مجلة للتحرر»، صيف ١٩٧٠ ، ص ٩ .

الجماعي . وقد قدمت عاملة غزل شابة ، تران بيش داو ، كانت قد حضرت دورة تاهيل في مدرسة الفن الدرامي في هانوي في عام ١٩٦٣ ، قدمت لعمال مصنعها تمثيلية عن اول اضراب لعمال صناعة النسيج عام ١٩٣٠ . وهي مهتمة بستانسلافسكي وبريخت وشكسبير . وفي الماضي كانت الممثلات يعاملن بازدراء ويوصم نشاطهن باللااخلاقية . وقد تبدل الوضع الان . فالفتيات من أمثال تران بيش داو يعتبرن اليوم شغيلات ذوات اختصاص خاص .

لم تشكل النساء جزءا من اليد العاملة المهنية الا منذ امد قريب . ففي ١٩٥٤ لم يكن يعمل في الصناعة كلها سوى بضع مئات من النساء ، وجميعهن غير مختصات . وما كن يفزن قط بمنصب رئيس مشغل او مدير مصنع . وكان بين نساء الجيل القديم من عملت في المصانع منذ الثانية عشرة من العمر ؛ وكان من الصعب تعليمهن اي شيء لان عيونهن مهترئة وقوتهن خائرة ؛ وكثيرا ما عانين بالاضافة الى ذلك من صدمات نفسية . وفي الساعة الحاضرة يتألف نصف اليد العاملة من النساء ، لكن تأهيلهن المهني لا يزال دون تأهيل الرجال . ولما كانت الفتيات اللواتي ينتقلن اليوم للعمل في الصناعة قد استفدن من تأهيل أفضل ، فان اللامساواة في التخصص تميل الى الامحاء رويدا رويدا .

المشكلة عينها تنطرح على مستوى الحزب . فكثيرا ما كانت النساء اللائي عهد اليهن بمسؤوليات رفيعة يستقلن من مناصبهن ، لانه كان يتعذر عليهن الاهتمام بتدبير شؤون المنزل والاطفال معا . وفي احيان اخرى كان الرجال الذين يعينون الملاكات لا يبذلون اي جهد لتشجيع النساء . بل الامر على النقيض من ذلك : فقد كانوا يعتبرون تعيين امراة ما تهديدا وخطرا ، ويشككون في قدراتها . لكن طول امد الحرب اجبر اشدهم عنادا على الاقرار بوجوب حلول النساء محل الرجال الذين يستدعون لخدمة العلم . وفي حوالي عام ١٩٦٠ تزايد الاقتناع بأن «خطة التساويات الخمسة» (التساوي في القتال ، التساوي في العمل ، التساوي في قيادة الحزب والادارة ، التساوي في تصريف الشؤون الاجتماعية، والتساوي في الاسرة) يجب ان تحظى بتطبيق اكثر عيانية . وقد نادى مؤتمر الحزب في ايلول ١٩٦٠ بتحرر المراة وبضرورة «النضال ضد اضطهاد النساء واحتقارهن كبقايا متبقية من الايديولوجيا القديمة» .

ان «البقايا المتبقية» عنيدة وراسخة : فقد اصطدم تأهيل النساء الجماعي بمعارضة حادة ، اذ كان الرجال لا يحبون ان تجتمع النساء لاي ذريعة من الذرائع. لقد فتح تحقيق في مقاطعة ثانتثوي حول نشاط النساء في عدد من الكومونات . واتضح منه ان النساء يعملن اكثر من الرجال ، وانهن يعرفن خيرا منهم الوضع في الحقول ، وانهن يتلقين مساعدة اقل ، وتتاح لهن فرص اقل ايضا للتعلم والتثقف . لكن السبب الحقيقي لمعارضة الذكور انكشف واستبان : «اذا تسلمت النساء الدفة ، فالسلام على كل شيء !» ، هكذا هتف احد اعضاء الحزب . وقد امكن قهر المقاومة عن طريق اعلان تمرد عام على صعيد الديموقراطية المحلية ضمن

نطاق الحزب . وعلى هذا النحو امكن لـ ٥٤٠ امراة ان يعرضن اثناء اجتماع عقدنه الصعاب التي يواجهنها . وقد هاجمت بعض النساء قادة الحزب المحليين الذين كانوا قد افصحوا عن آراء سلبية بصدد دور النساء . وكانت النتيجة ان عدة نساء كلفن بتسيير أمور التعاونيات والكومونات ، ونظمت اجتماعات عامة مخصصة للنقد الذاتي امكن فيها للنساء أن يعرضن مظالمهن وشكاويهن .

من الواضح للعيان ان تضافر الوضع العسكري والتزامات الحزب الشيوعي قد ضمن تقدما اكيدا لقضية تحرر المراة ، ولكن من الجلي ايضا انه لا يزال من الواجب فعل الشيء الكثير في هذا المضمار . شرحت عضوات في الاتحاد النسائي في فيتنام الشمالية لشارلوت بونش ويكس انه ثمة ثلاثة ميادين لم تكتمل فيها بعد ثورة النساء : تعريف الذات (فما تزال النساء يشعرن انهن ادنى من الرجال)، والمشاركة السياسية (فالمناصب الهامة في الحكومة والادارة يشغلها في معظم الحالات رجال) ، والاسرة (حيث لم تتحقق المساواة بعد) . ان «الاسرة النووية» الخاصة بالراسمالية الغربية لم توجد قط في فيتنام ، لكن تعدد الزوجات لم يتم الغاؤه الا مع تشريع الزواج لعام ١٩٦٠ . فحتى ذلك التاريخ كان تعدد الزوجات وزيجات الاولاد امرا مقبولا في الريف . ولم يكن من حق النساء طلب الطلاق . ولا غرو الا تكون العادات القديمة قد ازيلت بعد تماما .

ان واضع قانون الزواج ، هو شي منه ، يشرح اهدافه بأسلوب حذر وبسيط:

«يقدر بعض الاشخاص ان معلوماتي في هذا الموضوع ناقصة بحكم كوني عازبا . وبالرغم من صحة قول القائل بأنه ليس لي أسرة خاصة بي ، الا ان لي اسرة كبيرة للغاية ــ الطبقة العاملة في العالم قاطبة والشعب الفيتنامي . وانطلاقا من هذه الاسرة الواسعة ، يسعني تخيل الاسرة الصغيرة والحكم بصددها» (١) .

يورد هو شي منه عدة اسباب لتبرير القانون الجديد : ضرورة دمج المراة بالانتاج ، ضرورة خلق روابط متناغمة بين الزوج والزوجة ، ضرورة تحرير «نصف المجتمع» لبناء الاشتراكية . وفي الوقت الذي حرص فيه على الا يكسب عداء الرجال ، أوصى النساء بأن يعملن من اجل تحررهن الذاتي . «تحرر المراة يجب ان يسير جنبا الى جنب مع تخلي الرجل عن الفكر الاقطاعي والبورجوازي . أما النساء فيخطئن لو انتظرن توجيهات الحكومة والحزب كي تحمل اليهن الحرية ؛ والاولى بهن الا يعتمدن على غير انفسهن وان يناضلن !» .

لقد أوجدت الحرب ، من بعض الزوايا ، الاسس لتحرر النساء ، لكنها نصبت عقبات ، من زوايا اخرى ، على طريق بلوغ ذلك التحرر اهدافه . وحسبنا حتى نقتنع بذلك ان نجيل الطرف في المؤسسات الاجتماعية التي تعني النساء في المقام

---

١ ــ جاك ووديس : «هو شي منه ، مقالات وخطب مختارة ١٩٢٠ ــ ١٩٦٧» ، لندن ١٩٦٩ ، ص ١٢٩ ــ ١٣٠ .

الاول . فالاولوية المعلقة على المجهود العسكري اعاقت انشاء المطاعم الجماعيـــة ومستوصفات النساء والاطفال ، وتطوير المساعدة المنزلية والمزاود . لكن بالرغم من عمليات القصف الجوي ينعم خمسون بالمئة من اطفال فيتنام الشمالية بدور حضانة : فثمة فرق من المتطوعات تسهر على الاطفال ، وتعد الارز ، وتتسوق بالنيابة عن النساء الاخريات . وفي المدن تساعد فرق المساعدات الاجتماعيـــات الشغيلات على الطبخ والخياطة . ومن الصعب بالمقابل تحويل دور الحضانة ورياض الاطفال تلك الى مراكز تربوية حقيقية ، لانه لا بد من اخلائها عند اطلاق صفارات الانذار ، ومن تغيير اماكنها عند اصابتها بالقنابل . ويستحيل من جهة اخرى على الشبان المشاركة في تلك المهام النسائية لان ثمة حاجة اليهم في الجبهة .

وتؤثر القلة على الخدمات الطبية والتخطيط العائلي . فوسائل منع الحمل الآلية قليلة ، والاقراص غير متاحة . وبالرغم من الجهد الاعلامي الذي يقوم بـه الاتحاد النسائي ، فان طريقة الاستنكاف الدوري هي اكثر الطرائق شيوعا . وكثيرا ما يحل الاقناع الاخلاقي محل استعمال وسائل منع الحمـــل . وتوصي عضوات الاتحاد النسائي الفتيات بعدم إنجاب اكثر من خمسة اولاد ، وذلك بالرغم من ان الافكار التقليدية عن قيمة الاسرة الكثيرة التعداد والاهتمام بالتعويض عن خسائر الحرب بمعدل ولادات عال تضع عراقيل كأداء في وجه تلك الدعاية . وفـــي الشمال لا تكاد النساء يبدين اهتماما بوضع حد للتمييز بين دور الرجـــل ودور المراة . ويساورهن الاعتقاد بأن الاشغال السهلة ستكون من جديد ، بعد انتهاء الحرب ، وقفا على النساء ؛ ويرين انه من الطبيعي في رياض الاطفال أن تغنـــي البنات ويرقصن ، وان يتقاتل الذكور . وكثيرا ما تصور النساء في الاعلانات وفي الافلام وهن يقمن بأدوار مساعدة كأن يطرزن الثياب لازواجهن في الجبهة . ولا يبدو ان الفيتناميات متنبهات لقلة المنطق تلك .

تتسم الثقافة الفيتنامية بميل شديد الى نكران الذات شدت من ازره بكل تأكيد سنوات الحرب . وكسائر سكان **الشمال** ، يزعم الفيتناميون الشماليون ان الفيتناميين الجنوبيين اضعف ميلا الى العمل واكثر تساهلا فيما يتعلق بالاخلاق الجنسية . لكن كلتا الثقافتين مهتمة في الواقع باللياقة ، بتمالـــك الذات ، بالشكلية ، بالنظافة . ويقترن الاحترام البوذي لتسامي الأنا بإلحاح الكونفوشية على التقيد بقواعد الكياسة وحسن التصرف ، وبأخلاقية الحزب الشيوعي المفرمة بالكفاحية والتضحية والالتزام الاجتماعي . ويعجب الفيتناميون بالتقشف الجنسي، لكنهـــم لا يسقطون في تصنع الحياء وتكلف الاحتشام . لاحظ ثوريـــون زاروا فيتنام الشمالية انهم حين كانوا يغازلون شابات فيتناميات كانت هـــؤلاء يستقبلنهم بضحكات وبلفت انظارهم الى ان انشغالهن ببنـــاء الاشتراكية يحـول بينهن وبين ممارسة الحب : «عودوا لرؤيتنا بعد التحرير !» . تروي ســـوزان سونتاغ في «رحلة الى هانوي» ان الرجال والنساء يعملون ويأكلون ويناضلـــون وينامون معا من دون ان تراودهم اي فكرة جنسية . وقد اعطيت هي ورفاقها في

السفر من الذكور غرفا منفصلة ، لكن حين سقط احد الاميركيين طريح الفراش اقامت الممرضة الشابة والجميلة في نفس الحجرة التي كان ينام فيهـــا الادلاء والسواقون .

لقد تعلم الفيتناميون على حسابهم ان لشعوب اخرى اعرافا مغايرة . روى الترجمان الفيتنامي الشمالي لسوزان سونتاغ كم كان غيظه واستنكاره عظيما حين لاحظ اثناء سفرة له الى روسيا مدى ولع الروس بالمزاح الفاحش . كما لاحظ ايضا ان «الوفاء الزوجي» ليس بالقاعدة السائدة في البلدان الغربية . وكثيرا ما تشبه ملاحظات الفيتناميين بصدد الاعراف الجنسية لدى الآخرين ملاحظـــات «الامير الصغير» (١) حين حط به الرحال على كوكب آخر . لكن هنـــا ايضا لا يستطيع احد ان يعرف هل ستستمر اخلاق التقشف والوفاء بعد الحرب . ولما كانت هذه الاخلاق جزءا في الحقيقة من الخلق العسكري ، فانها لا بد ان تكون على طرفي نقيض من الانحطاط الاخلاقي للقوات الاميركية في مواخير الجنوب . وبالنظر الى هذا الوضع ، فان الافكار بصدد التحرر الجنسي ستبدو بالاحـــرى وكأنها في غير محلها .

من التهور ان نستنتج مما تقدم ان الفيتناميين هم من جبلة غير جبلة سائر بني البشر ، وانهم يتكيفون بصورة طبيعية وبلا الم مع القمع الجنسي والانفصال عن الاشخاص المحبوبين . قالت السيدة بنه لمارتا جلهورن :

«أستطيع ان أعد الايام ــ لا الاسابيع او الشهور ــ التي رايت فيها زوجي إبان تلك السنوات كلها . ويعد اولادي الايام التي راوني او راوا والدهم فيها . يقول الناس اننا معتادون على هذا النوع من الحياة . وفي الواقع ، لا نختلف عن الآخرين رغائب وحاجات . ان حياة كتلك لهي حياة شاقة» .

اثناء اجتماع لـ «اتحاد النساء الديموقراطي العالمي» في تشرين الاول ١٩٧٠ في بودابست دخلت الاميركيات في محادثة شخصيـــة مع المندوبـــات الفيتناميات :

«أبرزت كل امراة صور اولادها واحفادها ، زوجها واصدقائهـــا ، وروت قصتهم . وتأست غالبيتهن من اختفاء ولد واحد لها على الاقل . وطفقت كامبودية لـــم تأتها أخبار عن اطفالها الخمسة منذ اكثر من ثلاثة اعوام تبكي . كانت جميع اولئك امهات لاولاد يقاتلون مع الانصار» (٢) .

تعرف الفيتناميات كيف يميزن بين الامبريالية الاميركية وبين «اصدقائهن» . وكانت تمتلك آليس ولفسون على الدوام رغبة في البكاء حين تكون معهن . ولم

---

١ ــ قصة سانت اكزبوري المشهورة . «م»

٢ ــ اليس ولفسون «يوميات بودابست» في «اوف آور باكس» ، ١٤ كانون الاول ١٩٧٠ .

تكن تجد شيئا اخر تقوله سوى : «آسفة ، آسفة ، اسفة» . وعندما فاتحت بما في نفسها فيتنامية جنوبية ، احتضنتها هذه الاخيرة بين ذراعيها وقالت : «ليس هذا وقت البكاء ، بل هو وقت الاغتباط لاننا التقينا كأخوات» .

تتمتع الفيتناميات بالحساسية والرقة اللتين تسعى النساء الى اكتشافهما في تحرر المراة . وبالتفاتاتهن الصغيرة التي لا تقع تحت حصر ـ اذ يقدمن اثوابهن المطرزة لشابات اميركيات لا يحملن معهن اثوابا لحضور احتفال ما ، وإذ يشاطرنهن بكل بساطة وطيبة قلب سريرهن، وإذ يحتضنهن بين اذرعهن بكل ود ويعانقنهن بعاطفة صادقة ـ كن يجعلهن يلمسن لمس اليد مشاعرهن الاخوية ... «لقد حافظن بنوع ما على حيوية تلك الملكة الرائعة ، ملكة إظهار دفء العواطف التي خنقتها حضارتنا فينا ، وهن يعدن الينا حرية التجاوب معها ... انهن لم يفقدن قط الاتصال بإنسانيتهن » (١) .

انهن ما زلن يؤمن بقدرة الرجال والنساء على الاستجابة للعقل والحب ، حتى وان كذبت تجاربهن الشخصية مثل ذلك الايمان . قالت شابة بوذية من «فنه» لبعض الشابات الاميركيات من «حركة تحرير المراة» انها على يقين راسخ بأن النساء الاميركيات لن يتوانين عن وضع حد للحرب لو ادركن ما يجري حقا ، وانهن سيجدن الوسيلة لانهاء الجنون الذي تقترفه بلادهن بحق العالم (٢) ... لكن واأسفاه ، فنساء الغرب الراسمالي لم يقمن بعد بفحص الضمير ذاك .

لقد انتبهت الشابات الاميركيات في بودابست الى انهن يدللن ، على الرغم من انفتاح عقلهن ، على حذر وتشكك حين يواجهن أشكالا تنظيمية مغايرة لاشكال تنظيمهن . وقد أوضحت آليس ولفسون ، انطلاقا من مبدأ الفردية الاميركية ومن قناعتها بأن الجماعية تمثل مرحلة هامة وضرورية ، ان «حركة تحرر النساء» تفتقر الى زعيمات . «ففكرت السيدة كاو هنيهة وقالت : «أجل ، ان جماعية تدمر طاقات الفرد هي جماعية رديئة . يجب ايجاد حل وسط» (٣) . فلكأننا نقف في كلا الجانبين الاثنين لمرآة واحدة .

تطلق المندوبات الفيتناميات الى لندن على تحرر المراة بتهذيب اسم «بداية تفكير» . فنحن في انظارهن لم نتقدم الى الامام بما فيه الكفاية ، في حين ان تعريفهن للحرية يبدو لنا ضيقا اكثر مما ينبغي ، فهو يستبعد عددا كبيرا من المجالات التي تؤلف في وجداننا مظهرا اساسيا من استعبادنا وخضوعنا . ولا يسعنا ان نؤمن بأنهن يشعرن بغير ما نشعر به . وآليس ولفسون مرتبكة وتصارحنا بصدق بما يدور في خلدها :

---

١ ـ المصدر نفسه .
٢ ـ شارلوت بونش ويكس ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٩ .
٣ ـ ولفسون ، المصدر الآنف الذكر .

«الكلام يوحي اليّ بخوف اقل . فالفيتناميات خدومات جدا ، وهن يقدرن ان ذلك الصراع .. مفيد .. على جميع المستويات . وقد جعلننا نحس بأنهن يعتبرننا عديلات لهن . وبالمقارنة ، اقف منذهلة ازاء صلف حركتنا ونزعتها الامبريالية . فما اسرعنا الى ادانة النلس الذين يختلف وجدانهم عن وجداننا . نحن نتخيل ان الواقع الاميركي موجود ، في شكل من الاشكال ، في كل مكان من العالم ... والحال ان ذلك غير صحيح !ينبغي عليّ ان افكر مليا بالامر كله» .

بوهذا ما يتوجب علينا ان نفعله جميعا .

كوبا

«لو سئلنا عن الشيء الاكثر ثورية الذي فعلته **الثورة** ، لاجبنا بانه الثورة التي اشعلت فتيلها بين نساء وطننا ... ولو سألني احدهم عما اذا كنت اعتبر نفسي في الماضي محابيا للنساء ، لاجبت بالنفي ... بل كنت أعتقد ان العكس هو الاصح ... وهانحنذا في سبيلنا الى ان نكتشف ان ... تلك القوة الكامنة اعظم مما حلم به اكثر المتفائلين تفاؤلا بيننا ؛ فلنقل انه كان يمكن ان يكونفي اعماقنا ، في لاشعورنا. رأي مسبق او تقدير خاطىء» .

فيدل كاسترو

خطاب سانتا كلارا ، ٩ كانون الاول ١٩٦٦ .

«نعلم انه لا يكفي أن نحول بنى الانتاج ، ونعلم ان ايديولوجيتنا وعاداتنا على مستوى البنية الفوقية يمكن ان تبقى مشبعة بأفكار بورجوازية ورجعية ... وفي حالتنا نحن متخلفة» .

ادموندو دسنويس

تم انتاج الفيلم الكوبي «لوسيا» في الستينات . ويروي قصة ثلاث «لوسيات» ناضلن في سبيل التحرر في ظروف تاريخية شديدة التباين . فإبان حرب الاستقلال في ١٨٦٨ ، وفيما كان اخوها يحارب الاستعمار الاسباني ، كانت لوسيا تتلقى مغازلة نبيل اسباني . وبالرغم من انه خدعها ـ فقد كان متزوجا اصلا في اسبانيا ـ تتمرد على الحياة المحبوكة خيوطها من حفلات الشاي والاحتفالات الدينية وعلى الوقار الزائف الذي تحيط به بنات الطبقة الحاكمة الكوبية انفسهن ، وتذهب للاجتماع به. لكن حين تقود عشيقها الى مخبأ اخيها ، يخونهما الاسباني كليهما ، ويقتل الاخ في العراك الذي تأدى عن ذلك . وحين تساق الى مكان آخر تعزيها امرأة عجوز فقيرة . وتسيل الدموع على وجهيهما . قصة لوسيا الاولى

ماساة فردية . فلوسيا دمية منزوعة السلاح ، والقتال امر رجال .

في حوالي عام ١٩٣٠ تشارك لوسيا الثانية ، على العكس ، في الحركة ضد دكتاتورية ماخادو . وحين يستولي باتستا على مقاليد السلطة ، يستقر المقام المريح بغالبية رفاقها في السلاح في المكاتب ـ لكن عشيقها يواصل الكفاح ويخر صريعا في آخر الامر على أيدي الشرطة . كانت حاملا منه ، فتهيم وحيدة في الشوارع بلا أمل ، بيدها حقيبة ، لا تدري اين تلتجىء . وبالرغم من انه كان يسعها المشاركة في القتال ، فانه لم يكن هناك اي تحوط لسد حاجاتها النوعية ، ويتبخر كل أمل في التحرر مع تربع باتستا على سدة السلطة .

ليس من قبيل المصادفة اذا كانت لوسيا الثالثة سوداء تعيش في الريف ، متزوجة من عامل زراعي ابيض ، سائق شاحنة . فمركز ثقل النزاع قد تبدل مكانه . ولوسيا الاخيرة هذه لا تناضل في سبيل حقها في الحب ، لكنها تواجه التناقضات بين جنسيتها الخاصة وبين مواقف الرجل الذي تحب . فحبهما مرح، مشبوب العاطفة ، لا يخيم عليه في البداية اي ظل معتم ، لكنه يسقط رويدا رويدا تحت وطأة غيرة الرجل التي تكاد ان تكون مرضية . هذه الغيرة هي من عناصر خيلاء الذكر اللاتيني الذي يرنو بعين الريبة الى ابسط تظاهرات الاستقلال لدى المراة . ولهذا يحبس امراته في البيت ويمنعها من تعلم القراءة والكتابة مع غلام في الرابعة عشرة من العمر . وفي خاتمة المطاف تذهب واحدة من المسؤولات في القرية وتشرح لها باكية انها تحب زوجها لكنها لا تستطيع الاستمرار في العيش على ذلك النحو . وبعد ذلك تهجره تاركة له بطاقة كتبت عليها بتلك الحروف التي تعلمت حديثا كيف ترسمها : «لست جارية» . ويتقلب الاثنان على فراش من الشقاء ، ويتأرجحان رغبة في الاجتماع من جديد . وتعود اليه وتقول له انها لا تزال تحبه ، لكنها تحب ايضا حريتها . وبالرغم من انه اسعده أن يراها ثانية ، الا انه سرعان ما يحاول السيطرة عليها ، فتذود عن نفسها بمرارة . وكان ثمة فتاة صغيرة ترقب المشهد من بعيد من دون ان تفهم شيئا في بادىء الأمر ، ثم لا تلبث ان تنفجر مقهقهة . ان لوسيا الثالثة لم تكسب بعد معركتها ، لكنها تناضل بالضبط حيث لم يخطر لغيرها ولو مجرد خاطر ان يذدن عن انفسهن . وعلى سبيل الختام، يلمح الفيلم الى ان لوسيا الرابعة لن تعود الى الاصطدام بأشباه تلك المشكلات .

لا يثير الفيلم فحسب مسالة طبيعة تحرر النساء في كوبا كما تنطرح اليوم ، وانما يظهر ايضا هامش المناورة الضيق الذي كان متاحا للنساء الكوبيات قبل الثورة . وفي الواقع ، كانت لا تنفتح أمامهن سوى سبل ثلاثة : ان تكون واحدتهن جارية لرجل في البيت ، او ان تكون اماً ، او ان تكون موضوع متعة . وحين كان اب من الآباء من الطبقة الوسطى يسلم ابنته لزوجها ، كانت بكارة هذه الاخيرة تؤلف جزءا من العقد : فالشيء «المستعمل» لا يعود ينطوي على اي قيمة تجارية. وكان الوجه الآخر للصورة المراة الفقيرة التي تصطاد الزبائن في المدينة القديمة من هافانا او في منتزه سانتياغو . اما في الريف فكانت النساء يشقين في الحقول

وفي البيت ، وينجبن طوابير من الاولاد . فكن ، اذا بلغن الخامسة والعشرين ، وكأنهن في الخمسين .

كان المجتمع الكوبي منقسما عميق الانقسام : كان ثمة سد منيع ينتصب بين الاغنياء والفقراء ، بين سكان هافانا وسكان الاقاليم ، بين البيض والسود ، بين الرجال والنساء . كان ثمة مجموعة من المستعمرات داخل المستعمرة ، شرائح اجتماعية يعيش بعضها على حساب بعضها الآخر وتتألق على رأسها اقلية سائدة من كبار الموظفين والضباط وملاك المصانع والمزارع وكبار التجار الذين كان يجمع بينهم تقليد عائلي واحد وذهنية شبه اقطاعية . في هافانا كان الفقراء يعيشون في اكواخ متهدمة ، بلا ماء جار وبلا تمديدات صحية ؛ وكانت هذه المساكن المكتظة بالسكان تؤجر بأسعار فاحشة . وكان النقص في الاستخدام او العمالة ذا طابع مزمن ، وكانت النساء يكافحن لسد رمقهن ؛ وكانت الاسر التي يصل عدد أفرادها الى ثمانية عشر شخصا تقطن في جحور تفصل بينها حواجز رقيقة ؛ وكانت قلة المكان ترغم النساء في بعض الحالات على الطهي في الفناء . وكانت المرأة من الطبقة العاملة موضع احتقار حتى من قبل زوجها : «كانت طبقتها بالذات تعاملها بتعالٍ وتنظر اليها بعين الازدراء . ولم تكن العاملة محتقرة ومستغلة ومستهانا بها من قبل طبقة المستغِلين فحسب ، بل كانت طبقتها عينها تتحامل عليها» (١) .

كان الفلاحون وحدهم أشد غبنا واسوأ حظا : فقد كانوا يعيشون حياة خاملة في اكواخ من سعف النخيل ، من دون ان يكون بينهم وبين الارض فاصل. وكانت الامراض وسوء التغذية تتسبب في نسبة وفيات عالية . وكان ابأسهم ، «الديزالاجوس» او الذين لا مأوى لهم ، يهيمون على وجوههم في الدروب في حالة يرثى لها . وكان كثير منهم من السود او الخلاسيين . وحتى بين هؤلاء البؤساء كان ثمة تراتب هرمي يقوم على اساس اللون، وكان الهايتيون والجامايكيون في الدرك الاسفل من السلم . أما النساء فكن ضحايا تمييز مثلث : طبقي وجنسي وعرقي . كان في وسع الفتاة السوداء أن تختار بين احتراف البغاء او الرقص في الحانات ، ولكن فيما عدا ذلك ما كانت تساوي شروى نقير .

ومع ذلك شاركت النساء في جميع الثورات على العبودية والاستعمار الاسباني . ومن اللواتي عرفن بنشاطهن الواسع والدة ماشيو وامراته . وقد اجتازت «كاندوشا» ، ابنة واضع النشيد القومي الكوبي ، شوارع بايامو في عام ١٨٦٨ بخيلاء على صهوة جواد ، شاهرة راية الوطنيين . وقد انضمت امة تدعى روزا كاستيلانوس مع زوجها الى عصيان ١٨٦٨ . وترنو المرأة الكوبية الى تراث مديد من البطولة والالم . فقد كانت الكاثوليكية والماخية الاسبانيتان ،

---

١ ـ فيدل كاسترو : «تحرر النساء : الثورة في داخل الثورة» ، مقتطف من «خطاب سانتا كلارا» ١٩٦٦ ، نيويورك ١٩٧٠ .

يساعدهما في ذلك نظام الرق، قد أوجدتا نوعا من نظام أمومي تمارس فيه النساء، عند بلوغهن سنا معينة ، سلطاتهن على الاسرة . ولم تفلح الحضارة الافريقية ـ الاسبانية قط في إضفاء صفة الذاتية على الاثم الجنسي ؛ بل امكن ان يقوم ضرب من السيطرة النسائية نتيجة لاستمرار وجود الذكر الضعيف الخرع المفتقر للأصالة ولعبادة نبل الأم والجدة المأساوي . لكن معارضة النسوية تلبست ، بفعل ذلك ، اشكالا تتميز جوهريا عن نزعة معاداة النسوية كما تطورت في اقطار اوروبا واميركا البروتستانتية . ومن جهة اخرى ، تعقد تطور الافكار بصدد تحـــرر المرأة تحت تأثير الرق والمفعول المتضافر للسيطرة الجنسية والعرقية .

لقد طرح مطلب التساوي في الحقوق بين الرجل والمرأة لاول مرة اثناء حرب الاستقلال ضد اسبانيا ، بعد ١٨٦٠ ، من قبل امرأة تدعى آنا بيتانكور في اجتماع لقادة حركة الاستقلال . وبرزت الى حيز الوجود في مطلع القرن العشرين حركة نسوية تستلهم نشاط «المستنخبات» . وفي ١٩٣٤ حصلت الكوبيات على حـــق الانتخاب ؛ وتبعت ذلك حقوق شكلية اخرى . وكانت بمثابة شاهد صارخ على الهوة بين المساواة القانونية والتمييز الاقتصادي والثقافي . وقد وضعت الثورة على باتستا عددا من النساء النشيطات في مواقف أبانت لهن دونية الشرط النسائي كما حددته الماخية . وكانت هايدة سانتاماريا عضوة في الوحدة التي هاجمت في ١٩٥٣ ثكنة مونكادا . وبعد ان وقعت في الاسر حمل اليها رجال الشرطة عينـي اخيها وخصيتي خطيبها في علبة لانتزاع معلومات منها . فردت : «اذا كنتم قد عاملتموهما على هذا النحو ولم يتكلما ، فكيف يمكنني ان اتكلم ؟» . وبعد اطلاق سراحها قاتلت مع القوى الثائرة في سييرا مايسترا (١) .

بالرغم من انه جرى تشكيل كتيبة من النساء ضمن اطار **الجيش الاحمر** ، كتيبة اطلق عليها اسم والدة المقاتل الشهير في سبيل الاستقلال ، ماشيو ، التي عاشت في القرن التاسع عشر ، لم يكن المقاومون ينظرون بعين التحبيذ الى ارتقاء النساء . وكانت النساء القليلات اللواتي انضممن الى الانصار يقمن بالمهام النسائية التقليدية : فكن يطبخن ويعتنين بالجرحى . وكان السؤال المطروح هو معرفة الى اي حد يمكن اعتبارهن مقاتلات بملء معنى الكلمة . يروي تشي غيفارا في سيرته الذاتيـــة ان فتاة باسم اونيريا سألت بصوت مضطرب هـــل يسعها الاشتراك في التصويت في حال محاكمة رجل لقتله رجـــلا آخر عرضا . فقـــد كانت الديموقراطية الفظة والمتسرعة السائدة في صفوف وحدة من وحـــدات الانصار خاضعة ، بحكم ظروف كوبا ، لاشراف الرجال وحدهم دون غيرهم تقريبا . وفي ذلك المضمار المحدد ، كانت اكراهات الماضي لا تزال على قيد الحياة . صحيح انه

---

١ ـ نقلا عن كريس كامارانو : «المرأة الكوبية» ، في «ليفياثان» ، المجلد ٢ ، العـــدد ١ ، ايار ١٩٧٠ ، ص ٤٢ .

وجدت بعض الاستثناءات الفردية : يذكر غيفارا على الاخص اسم عميلتي اتصال، ليديا وكلودميرا . وكانتا تعيان وضعهما الاستثنائي . وكانت شجاعة ليديا وجسارتها تجدان ترجمتهما في لهجة الكبرياء والتفوق التي غالبا ما تلاحظ في افواه اعضاء جماعة مضطهَدة ممن افلحوا كأفراد في تخطي شرطهم . وكانت تحس بحاجة دائمة الى توكيد شخصيتها ، مثلها مثل غيرها من النساء ممن عشن في عالم يسيطر عليه بكامله الرجال . يصف غيفارا ردود فعل الرجال المعقدة :

«لم يكن الكوبيون معتادين على تلقي أوامر من امراة ... وكانت شجاعتها اللامتناهية تجعل ضباط الاتصال الذكور يتحاشونها . اني لأذكر راي واحد منهم ـ مزيج من الاعجاب والكره ـ حين قال لي : «هذه المراة أجرأ من ماشيو ، لكنها ستودي بنا الى التهلكة جميعا ذات يوم . ان ما تفعله لجنون مطبق . والحال ، ليس هذا أوان اللعب !» (١) .

قضت ليديا وكلودميرا نحبهما والسلاح في أيديهما . وبالنظر الى الوضع الذي كانتا فيه ، فقد كانت وسيلتهن الوحيدة للتحرر أن تظهرا انهما اكثر «رجولة» من الرجال . اما في المدن حيث كانت شروط الحياة غير خارقة للمألوف الى ذلك الحد ، فما كان الرجال يدللون على مثل ذلك القدر من الريبة ، كما ان النساء كن يجدن مجالا أوسع للمشاركة . ونظرا الى تضاؤل الاشتباه بهن، فقد كن يستخدمن كعميلات ارتباط او في عمليات التخريب .

ما دامت أولئك النسوة قد خلعن عنهن ، على الصعيد الفردي ، مفهوم الانوثة التقليدي الذي كان لا يزال شائعا بين رجال الحركة ، فقد كان يسهل تمييزهن عن سائر النساء المشدودات الوثاق الى طراز الحياة القديم . ولا يلقى الرجال اصلا من مشقة وعنت في أن يحترموا وحتى ان يعجبوا ـ ولو على كره منهم ـ ببعض النساء المفردات اللائي ارتقين في ظروف استثنائية الى مرتبة «ما دون الذكر» . وتختلف عن ذلك كل الاختلاف مسالة اعادة الرجال النظر في افكارهم عن المراة بوجه عام ووضع علامة استفهام حول عالم لا يرى الا من عيون الذكور .

كانت المبادرة الاولى لـ «اتحاد النساء الكوبيات» بعد الثورة في عام ١٩٦٠ الكفاح ضد الأمية : فقد كان الهدف من جهة أولى اتاحة الفرصة امام النساء للاندماج في الانتاج ، ومن الجهة الثانية اشراكهن اشراكا كاملا في الحياة السياسية والاجتماعية . ولما كان ذلك **«الاتحاد»** لم يولد من حركة نسوية قوية ، فقد كان من الواجب بذل جهود دائبة للتاكد من ان الافكار بصدد التدابير الواجب اتخاذها تأتي من القاعدة مثلما تأتي من القيادة على حد سواء . وقد قامت ايرينا ترابوت وآنا ما نافارو ، وهما عضوتان شابتان في **الاتحاد** ، بعرض كيفية تنظيمه في لندن في تشرين الاول ١٩٧٠ ، امام جمهور من عضوات «حركة تحرر

---

١ ـ تشي غيفارا : «ذكريات الحرب الثورية الكوبية» ، لندن ١٩٦٨ ، ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .

المـرأة » (١) .

يضم «اتحاد النساء الكوبيات» زهاء مليون من العضوات ؛ وتتزعمه فيلما إسبن التي لعبت دورا فعالا في الكفاح ضد باتستا . ويقوم **الاتحاد** على نظـــام اللجان ، ويشتمل على لجنة قومية قيادية ، وست لجان اقليمية ، ولجان مناطق واقضية ونواحٍ وقرى . وينتخب كل مستوى مندوبات الى المجلس العام الذي يقرر خطة العمل للسنة التالية . وتنتخب كل «قائدة» محلية من قبل زهـــاء خمسين امراة ؛ وتساعدها لجنة من خمس نساء تضع خططا للعمل في الميادين المحددة مثل التربية او المساعفة الاجتماعية . وبالرغم من هذه البنيـــة يواجه **الاتحاد** المشكلة عينها التي تواجهها جميع البنى السياسية في كوبا ، مشكلـــة المشاركة الفعلية من قبل القاعدة ، اذ ان الحركات الشعبية العريضة لم تر النور الا بعد الثورة . ويحاول **الاتحاد** ان يثير اهتمام النساء عن طريق المنجزات العملية قبل كل شيء مثل مراكز رعاية النسل وما الى ذلك من الخدمات الاجتماعية ، لان النساء لا يبدين بوجه عام حرصا شديدا على حضور الاجتماعـــات السياسية . ويعمل **الاتحاد** بعد ذلك رويدا رويدا على تزويدهن بوعي سياسي ثوري . وتتواكب تلك الجهود بتدابير محددة كالتأهيل العسكري للصبيان والبنات . وفي المدرسة تتولى البنات كالصبيان اعمال الحراسة والمراقبة ، ويضم الجيش ضباطا مـــن النساء . وهدف هذه المحاولات كافة هو انتزاع المراة من ضيق افق البيت ودمجها في حياة المجتمع .

بالنظر الى حاجة الاقتصاد الكوبي الماسة الى اليد العاملة ، فان تأهيل العمل النسائي في الصناعة يجد تفسيره في قلة الأذرع بقدر ما يلقاه في الحرص علـى تحرير المراة . وتواجهنا من جديد هنا مشكلة التمييز بين عمل الرجال وعمـــل النساء . فبالرغم من انتشار النساء في جميع فروع الصناعة ، الا ان غالبيتهن تستخدم في الصناعة الصغيرة والتربية ودور الحضانة والصناعات الغذائية التي تعتبر بوجه عام موائمة اكثر من غيرها للنساء . وثمة ميادين موقوفة على النساء وحدهن دون غيرهن : تربية الاطفال الصغار والتعليم الابتدائي . وحين سئلت الشابات الكوبيات عن هذا الموضوع في لندن لم يظهر عليهن قلـــق من الوضع . فالابقاء على الاعمال التي تعتبر استطالة لنشاط المراة التقليدي في البيت غـــير مرتبط ارتباطا مباشرا بمسالة معرفة الى اي حد يتطابـــق التحرر مع استخدام النساء في الاعمال التي تتطلب قوة . ويخيل اليّ ان المسالة هنا ليست على الدوام مسالة عمل مهني ، وانه ضرب من العبث أن تفرض على كائنات دون غيرها فـي القوة الجسمانية اشغال مضنية هي بطبيعتها انسب للاشخاص الاقوياء . ان المعيار

---

١ ـ نقلا عن شريط مسجل . ومن الممكن الرجوع الى تقرير مقتضب عن ذلك الاجتماع في ماري كندي : «النساء الكوبيات» ، «شرو» ، كانون الاول ١٩٧٠ ، ص ٨ ـ ١٠ .

يجب ان يكون التكوين الجسماني لا الجنس . بيد ان العمل المهني لا يجوز ان يبقى وقفا على الرجال حتى ولو كان شاقا ؛ فالنساء اذا استحال عليهن اختيار مهنهن بحرية ، فلن يكون لذلك من نتيجة سوى تعزيز التفوق المذكر .

لقد ثار سخط بعض الاميركيات ، من اعضاء فيلق فانسيريموس ، لانه لم يعهد اليهن بقطع قصب السكر . وقد واجهت الشابات الكوبيات بالابتسام هذا الضرب من النسوية ، لانهن يعلمن ان قطع قصب السكر عمل في منتهى المشقة . وقد كان من دواعي غبطتهن ان تتاح لهن امكانية جمع قصب السكر بدلا من قطعه . لكنهن اضطررن الى التسليم بأنه اذا كانت معظم النساء انهرن وخارت قواهن ، فان بعضا منهن قد صمدن الى النهاية . ان قطع قصب السكز يعتبر ــ شأنه شأن اشغال معينة اخرى ــ عملا يتطلب ويبرز للعيان صفات مذكـــــرة في الاساس والجوهر . وقد كان يمكن لمجتمع اغنى من المجتمع الكوبي ، الذي لا هم له سوى زيادة الانتاج ، ان يأخذ بعين الاعتبار ذلك الوجه من أوجه المشكلة فيعهد بذلك النوع من الاشغال الى رجال والى نساء بالتناوب ، ولو على حساب بعض التباطؤ في الاستثمار . ولكن لما كانت مثل هذه السياسة مستحيلة على المدى القريب في كوبا، فقد جرت العادة على اعتبار الاشغال الصعبةمن اختصاص الرجال بالاحرى. والحق أن التخلف يحد امكانيات التجريب الاجتماعي بالطرائق العمليـــة التي لا تتطلب موارد كبيرة .

أما في سائر ميادين العمل المهني فان مشاركة النساء لا تثير رسميا مـــن مشكلات ، والكوبيون يعتزون اشد الاعتزاز بمنجزاتهم في ذلك القطاع . وقد شن **الاتحاد** بالفعل سلسلة من الحملات للاطاحة بالافكار المتوارثة عما يوائم او لا يوائم النساء . هكذا يصادف المرء في كوبا نساء تقنيات ، وميكانيكيات في السيارات، ومهندسات في اجهزة التبريد والتجليد ، وسائقات جرارات ، واختصاصيات في هندسة المدن ، وطبيبات اسنان ، وطبيبات صحة ، ومخبرات صحفيات ، ومحررات . لكن الشغيلة والموظفين يقابلون على الدوام بقدر من المقاومة استخدام النساء في الصناعة وتعيينهن في مناصب حساسة وفي وظائف قيادية . واحيانا يأبون اعطاء النساء اعمالا معينة ، او يعهدون اليهن بمهام لا يرغب فيها احد . ويحاول بعض المدراء اذا ما اجبروا على استخدام اليد العاملة النسائية ان يذلوا العاملات بفرضهم عليهن شغلا في منتهى الصعوبة يعجزن عن تنفيذه على الوجه الصحيح ، بحجة «اتاحة الفرصة امامهن لتعلم ما معنى الكد في العمل» .

في حالات اخرى ، صدرت المقاومة عن اسر او ازواج حاولوا منع المراة الشابة من تعلم مهنة من المهن . وانه لمن الاهمية بمكان ان يكون بوسع النساء في مثل تلك المنازعات الاعتماد على هيبة الثورة وسلطتها . تقدم لنا اليزابيت سوذرلاند في كتابها المعنون باسم «الثورة الفتية» رساما كوبيا شابا باسم توماس . وقد سارر هذا الاخير المؤلفة بقوله : «لقد صدمت التغيرات الرجال الكوبيين نفسيا . فهم يشق عليهم الا يكون بوسعهم معارضة التغيرات .. وحين تذهب امراة للعمـــل او

تتولى الحراسة فانها تفعل ذلك لصالح الثورة . فاذا ما عارض الرجال ذلك لبسوا لبوس مناهضي الثورة» (١) .

ينجم عن ذلك ان الطريق مفتوحة ضمن حدود التخلف الاقتصادي والتراث الماركسي عن انعتاق المرأة امام تحررها . ويرى كاسترو انه في الوقت الذي يتعذر فيه القضاء على الاضطهاد الجنسي والعرقي في اطار الراسمالية ، فان تشريك وسائل الانتاج لا يضع حدا له بصورة آلية . فعلى الفئات المضطهَدة ان تواصل النضال ، وأن تحدث ثورة في الثورة :

«بين الوظائف التي تعزى ــ بصورة شبه حصرية ــ الى المرأة وظيفة إنجاب الاولاد . وبالفعل ، ان الإنسال الطبيعي واحدة من أهم وظائف المرأة في المجتمع . والحال أن هذه الوظيفة التي تفرضها الطبيعة على النساء هي ، على وجه التحديد، التي جعلت منها عبدة لمجموعة من السخرات البيئية» (٢) .

على هذا النحو ، يبذل الكوبيون قصارى جهدهم ، مثلهم مثل الروس في العشرينات ومثل الصينيين في ايامنا هذه ، لتشريك الاشغال البيتية ولتحرير النساء ــ كأفراد ــ من المسؤولية التي تثقل كاهلهن وحدهن دون غيرهن ، مسؤولية تربية اولادهن . لكن تبرز هنا على الفور مشكلة اقتصادية : فالعمل النسائي لا غنى عنه في الانتاج ، ومن المطلوب على الصعيد السياسي أن تنعتق المرأة من هموم البيت . فمن سيقوم بالعمل في البيت ؟ من سيهتم بالاولاد ؟ من اين المال لانشاء خدمات مجتمعية ؟ في هذا المجال ، تحتل المقتضيات المادية مكانها في خط الافكار التقليدية الرجعية عن وضع المرأة في البيت . وقد اشارت فيلما إسبن الى ذلك الاحراج :

«حتى تتاح امام المرأة امكانية المشاركة في حياة العمل ، فلا بد من تذليل العديد من العقبات ذات الطابع المادي ... وبالفعل ، ان دور حضانة نهارية ومقاصف عمالية ومطاعم جامعية ومدارس نصف داخلية ومغاسل عامة وما الى ذلك من الخدمات الاجتماعية لقمينة بتسهيل عمل النساء» (٣) .

ان غياب هذه الخدمات ستكون نتيجته أن النساء اللاتي اتقن اختصاصا من الاختصاصات لن يسعهن ان يمارسنه . وثمة حل مؤقت ، هو الان قيد الدراسة لدى **اتحاد النساء** ، يتمثل في العمل بغير كامل الوقت . لكن هذا الحل لا يعدو ان يكون اهون الشرين بانتظار اكتمال الاستعدادات واتخاذ التدابير النهائية . ان لكل امراة الحق في اجازة مدفوعة لمدة ستة اسابيع قبل الوضع وستة اسابيع

---

١ ــ اليزابيث سوذرلاند : «الثورة الفتية» ، لندن ١٩٧٠ ، ص ١٧٥ .

٢ ــ كاسترو : «الثورة داخل الثورة» ، المصدر الآنف الذكر .

٣ ــ نقلا عن بيسي لي : «مكانة المرأة في كوبا» ، في «كومنت» ، ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٩ ، ص ٧٥٠ .

بعده . واذا رغبت ، اثناء العام الاول من حياة طفلها ، في العمل ، حق لها تخفيض مدة العمل . وتتوفر في غالبية المدن مزاود ودور حضانة للاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين الستة اسابيع والسن المدرسية . وكل كومونة اهلية جديدة تجهز بخدمات اجتماعية كافية ، ولكل مصنع ولكل حقل من حقول العمل رياض اطفال . وينعم الاطفال في هذه الرياض بالالعاب والعناية التربوية ، وتقدم لهم ثلاث وجبات يوميا ، وتؤمن لهم رعاية طبية وسنية . وتبذل المحاولات ايضا لتنشئة الاولاد خارج البيت الابوي لتخفيف الاعباء عن كاهل الأم . والى جانب المدارس الداخلية التي تاوي الاحداث على اساس اسبوعي ، ثمة مدارس خارجية يستطيع فيها التلامذة تناول طعامهم ظهرا . وفي «**منظمة** الشبيبة» يتابع احداث تتراوح اعمارهم بين الثانية عشرة والسابعة عشرة دروسهم ، ويعملون وفق مخطط تشاركي يؤمن لهم الاستقلال عن حياة الاسرة .

على هذا النحو يسقط عبء عدد من المهام عن كاهل الام التي كانت تولج بها تقليديا لتتولاها عنها منظمات واجهزة شتى . على ان الثورة غيرت ايضا ، من زوايا اخرى عديدة ، موقف الافراد من الاسرة . فالطلاق دخل في الاعراف . وكثيرا ما يفترق الازواج والاحباء لفترات طويلة من الزمن لدواعي الدراسة او العمل او زيارة المعسكرات . ولكن النساء ما زلن متمسكات ، بمعنى من المعاني ، بفكرة كونهن مسؤولات عن شؤون التدبير المنزلي . ومن جهة اخرى ، لا يفكر الكوبيون تفكيرا جديا في ايجاد بنى اجتماعية اخرى قمينة بالحلول محل مفهوم الاسرة . وقد اوضحت الفتيات اللواتي تحدثن مع عضوات **حركة تحرر المراة** ان المشاعات الجماعية في «جزيرة الصنوبر» لا تعتبر تجارب في الحياة الاجتماعية ، وانما مؤسسات مدعوة الى زيادة الانتاج . وحين سئلن عن رايهن في الحياة ضمن نطاق «مشاعات» طفقن يضحكن في البداية ، ثم اوضحن ان ليس ذلك اول همومهن. واكدن بجد اثناء المناقشةانهن لا يعتقدن ان اشكال الحياة المشاعيةعاجزة عن الدفع بفكرة الثورة الى الامام . لكنهن اعربن عن قناعتهن بأن المشاعات الصغيرة ذات النمط العائلي ليست ضرورية . فقد تحولت المدن والقرى ، منذ الثورة ، الى مشاعات حقيقية ، وبالتالي ليس ثمة ما يدعو الى انشاء وحدات مشاعية اصطناعية في داخل تلك المشاعات . فالمشاعة تقوم في نظرهن على وحدة الاهداف والاعمال اكثر مما تقوم على اجتماع عدد لا يقع تحت حصر من الوحدات الاجتماعية الصغيرة . وكان تقديرهن ان حاجات المجتمع الثوري الفعلية ستخلق في خاتمة المطاف اساليب حياة شخصية جديدة ، وليس العكس .

ان هاجس المشاعات الصغيرة يبدو وكأنه وقف على سكان المدن المنعزلين في ظل نظام الراسمالية المتقدمة ، لكن الشابات الكوبيات لم يبد عليهن انهن مهتمات بمسالة معرفة كيف يمكن عتق المراة من مهامها المنزلية . وقد شددت الشابات الكوبيات على واقع ان الكوبيين اقلعوا عن التفكير بدالة اسرهم وحدها ؛ فالروابط الاسرية ما عادت تمنعهم من العمل في سبيل اشخاص يقعون خارج دائرتهم

الخاصة . ولا ريب في ان هذه المحاولة لفتح آفاق تتجاوز المنظور الشخصي تنطوي على اهمية بالغة ، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو معرفة ما اذا كانت كافية بدون تبديل الروابط التي تشد الرجال والنساء والاولاد الى الاسرة . ان المراة التقليدية تفعل فعلها كخميرة اجتماعية تنزع الى الابقاء على القيم ما قبل الثورية : ان لم يكن من خلال ما تقوله صراحة وجهارا ، فعلى الاقل من خلال ما يوضع منها ضمنيا موضع ممارسة . وعليه، لا جدوى البتة من تعليم الفتاة الصغيرة في المدرسة ان المراة ينبغي ان تشارك ، على قدم المساواة مع الرجل ، في الحياة الاجتماعية والسياسية ، اذا كانت تعود الى البيت لتجد امها منهمكة في اعداد الطعام بينما الاب يعمل في الخارج . ومهما احبت هذه المراة او تلك الاستماع الى خطاب كاسترو عن نضال النساء وكفاحهن في مضمار الإنسال ، فانها تعي في طويتها انها تحلو في نظر زوجها اذا استطاع ان يمارس عليها مراقبته .

ان واحدة من ابرز سمات الثورة الكوبية هي الطريقة التي يتم بها النظر الى متطلبات الحياة الجنسية النشيطة لدى المراة ، الطريقة التي تستثار بها افكار تصعيدية تتخطى نطاق النظرية الماركسية . روى الرسام توماس ، ويبدو انه رجل ضليع بتلك المسائل ، لاليزابيت سوذرلاند ان «اكثر المسائل اثارة للاهتمام في كوبا ـ في رايه ـ هي اليوم مسالة العلاقات بين الرجال والنساء» . فالإجهاض مباح لكل امراة تاتي الى المستشفى في الشهر الاول من حملها ، لكن إعلام الاسرة بالامر يردع العديد من الفتيات عن القدوم الى المستشفى . ومضادات الحمل موضوعة في متناول الجميع . وقد درجت بين النساء عادة استعمال السدادات وموانع الحمل الميكانيكية المسماة بـ «آنيلو» . لكن الحبوب المانعة للحمل لا تزال تعتبر خطرة . ولا تزال غالبية النساء يمتنعن عن اللجوء الى مضادات الحمل لريبتهن فيها . وموقف الحزب في هذا الموضوع يفتقر الى الوضوح : فقد حشدت صحيفة «غراما» معلومات كثيرة عن طرائق تنظيم النسل ، لكن هذه المعلومات لم تأخذ طريقها الى الانتشار على الوجه المرام ، اما لان السلطات لا تريد الاصطدام جبهيا بالآراء المسبقة العتيقة ، وإما لان تحديد النسل يعتبر وسيلة معتمدة من قبل الاقطار المفرطة التطور للسيطرة على الآخرين وللحؤول بالتالي دون اي اعادة توزيع اجتماعي . لكن معارضة مضادات الحمل تنبع ، في التحليل الاخير ، من رفض المراة ان تكون سيدة جسدها وعقلها . فالنساء يأبين تحمل مسؤولية مثل تلك المداخلات على مستوى اشخاصهن .

كثيرا ما تجد المفاهيم القديمة عن الرجولة ترجمتها في فكرة ان كل سيطرة نسائية تشكل تهديدا للرجل ، لأن الرجل ما توقف عن التفكير بانه يخسر كل ما يمكن للمراة ان تكسبه . وفي كوبا لا يزال الاطفال الرضع يعتبرون دليلا على «الرجولة» . فحين تلجا المراة الى استخدام السدادة ، يؤكد الرجل ان هذه الآلة تزعجه (Me Molesta) ، بالرغم من انه لا يستطيع ان يحس بوجودها، ويلحف على زوجته كي تتخلص منها . ومثل هذه الامور لا تخضع لتوجيهات

الحزب . قال كاسترو للي لوكوود في ١٩٦٥ بهذا الصدد :

«يحدث أن تدخل التقاليد والعادات في صراع مع الوقائع الاجتماعية الجديدة، ومشكلة العلاقات الجنسية لدى الشبيبة بحاجة الى ان يتعمقها العلم ، لكن مناقشة هذه المشكلة لم تحظ بالعناية والاهتمام الواجبين . وليس من السهل تغيير العادات والتقاليد ، ولا يمكن اخذها على مأخذ الخفة . انني أعتقد ان الوقائع الاجتماعية الجديدة ، الاقتصادية والثقافية ، ستعين شروطا جديدة وتصورات جديدة في موضوع العلاقات الانسانية» (١) .

هذا كله صحيح على المدى الطويل ؛ ولكن بانتظار ذلك نجازف جميعا بأن نحبل . وردود الفعل المناسبة ذرائعية ومتنوعة . واتحاد النساء الكوبيات ، كما هو متوقع ، يعمل بفطنة وحذر . وهذا ما حمل بعض الاشخاص على القول لاليزابيت سوذرلاند : «ليس **الاتحاد** على نفس طول موجة الشبيبة» . وقد انشغل بال الشابات الكوبيات اللائي زرن لندن في خريف ١٩٧٠ بمسألة التربية الجنسية في المدرسة . وقد طلبن منا «كتبا او منشورات رصينة» حول الموضوع . والحق أن هناك مستويات متعددة فيما يتعلق بالاخلاق الجنسية ، بدءاً من الفلاحة العجوز التي تنظر شزرا الى طلعات بناتها ، ومرورا بالشابات من عاملات هافانا المهتمات بقبض مرتباتهن ومن مناضلات «جزيرة الصنوبر» اللائي ينبذن اللقاءات العارضة ويدعون الى علاقات جادة ، ووصولا الى المثقفات السوداوات من صاحبات المشارب والاذواق المعقدة اللواتي يعين تداخل الجنسية والعرقية .

لكن خلف تلك المستويات جميعا تختبىء الماخية التي تنصب في كل مكان حواجز في وجه تحرر المرأة الجنسي . هكذا ثار على سبيل المثال في ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ لغط صاخب حول المدارس الداخلية الشيوعية حيث كانت تجري «تضحية بكارة البنات في حفلات الحب الحر الداعرة» . وكان ذلك ذريعة لتبرير التفرقة الجنسية في المدارس ، تلك التفرقة التي اثارت غضب آلن جنسبرغ في عام ١٩٦٦ . فقد هتف بعد ان أعياه الفهم : «ماذا تقترحون على هؤلاء الصبية ؟ ـ الاستمناء ؟» . لكن واقع الماخية تقليد يتوارثه الذكر المنفلت الجامح الذي يستغل المرأة ويسيء استغلالها جنسيا ، والكوبيون يتخوفون من ان يتحول «الحب الحر» الى ذريعة للرجال لكي يعودوا الى عاداتهم القديمة . وقد ترك كاسترو الباب مفتوحا . ونكاته عن الزواج معروفة وآراؤه الشخصية لها وزنها الكبير . ومع ذلك، ثمة مجال تتفق فيه الماخية تمام الاتفاق مع الموقف الرسمي : فالجنسية المثلية جنحة يعاقب عليها القانون في كوبا . انها تترك في نفس الذكر الكوبي اشمئزازا يند عن الوصف . ويبذل كاسترو جهودا جادة ليدلل على تسامحه وعطفه . انه يسلم بأنه لا يعرف المشكلة حق المعرفة ، وانه من الظلم تضييق الخناق على انسان

---

١ ـ لي لوكوود : «كوبا كاسترو ، كوبا فيدل» ، نيويورك ١٩٦٥ ، ص ١٠٦ .

من الناس بسبب ما يثوي فيه من ميول ونوازع لا قبل له بالسيطرة عليها ، وأن بعض الجنسيين المثليين يمكن ان يهتدوا الى الافكار الثورية ؛ لكنه يأخذ بالراي المسبق الشائع . فقد قال للي لوكوود :

«مهما يكن من امر فلن نقبل ابدا بفكرة اهلية الجنسي المثلي لتجسيد الصفات والمقتضيات السلوكية التي تبيح لنا ان نعده ثوريا اصيلا ، مناضلا شيوعيا حقيقيا . ان انحرافا من هذا النوع يتناقض مع الفكرة التي نأخذ بها عن المناضل الشيوعي ... في وضعنا الحالي ، وبالنظر الى المعضلات التي تواجهها بلادنا ، يتوجب علينا أن نلقن شبيبتنا روح الانضباط والكفاح والاجتهاد في العمل ... وسواء أكان هذا الموقوف مبررا أم لا ، فانه يستجيب لقناعاتنا الصميمية» (١) .

يشتمل هذا المقطع على عنصر امل : صدقه ونزاهته . فهو يشير بوضوح الى ان ذلك الموقف تمليه وجهات نظر كاسترو الشخصية والمتطلبات الفورية للاقتصاد الكوبي التي لا تدع مكانا للايروسية . لكن الاخطار التي ينطوي عليها هذا الموقف ظاهرة للعيان . فالكوبيون يميلون ، بحكم المشكلات العملية التي يواجهونها ، وبالنظر الى انعدام وجود اي تقاليد نظرية ثورية ، وبسبب الاصرار على رفض النظر الى اللذة الجنسية الا من خلال صلتها بالتناسل ، اقول : يميل الكوبيون الى السقوط في نزعة أخلاقية متغطرسة تعبر عن نفسها في التصريحات الرسمية ، حتى وان لم تظهر في الاحاديث والحياة الخاصة .

والحال ان الجنسية المثلية الثورية والجنسية الغيرية النشيطة لدى المراة تستلزمان اعادة تعريف لـ «الذكورة» ـ بما فيها الذكورة «الثورية» . في هذا المضمار يتشبث الرفيق الاكثر ثورية بقناعات ذات نزعة أبوية . قالت بعض النساء لاليزابيت سوذرلاند : «ان فكرة ان الجنسية وجدت للذة المراة مثلما للذة الرجل لهي حرام الحرام ... وفي هذا المضمار كانت التغيرات أوهى شأنا مما في كل مضمار آخر !» . وقد شرع بعض الرجال ينتبهون للنتائج السياسية التي تترتب على ذلك الموقف بالنسبة الى الرجال والنساء . لنصغ على سبيل المثال الى توماس : «ينبغي على الرجال الكوبيين ان يكتشفوا كيفيات اخرى لكينونتهم كرجال » .

اننا جميعا نجهل كيف يمكن ان يتم ذلك . والكوبيون مأخوذون في سيرورة تطور بالغة السرعة وشديدة التفاوت يتعذر معها عليهم ان يعرفوا ما ينبغي قبوله او نبذه . ومثال الميني جوب يقف دليلا ساطعا على تعقيد المشكلة . فقد شنت المعركة على جميع المستويات في آن معا : فالفتاة اللامسيسة والمتشبثة بالتقاليد حكمت على الميني جوب باللااخلاقية وأبت أن تلبسها الى ان حثتها **الثورة** على

---

١ ـ لي لوكوود : «كوبا كاسترو ، كوبا فيدل» ، ص ١٠٧ . بصدد الموقف من الجنسية المثلية المذكرة وعلاقاتها بالمأخية ، راجع توني هاريسون في «لندن ماغازين» ، نيسان ١٩٧٠ ، ص ٥ـ٢٧ .

ذلك ؛ وكان بعض عناصر الحزب يرفضون من حيث المبدأ كل عطاء غربي وكل عودة الى مفهوم التواضع القديم . كانا موقفين متناقضين . ولا نعثر في مجالات أخرى ، في الموضة وصناعة منتجات التجميل ، على اثر لهذا الارتباك وهذه الحيرة : اذ توجد «معاهد تجميل» في انأى الاماكن الجبلية ، وان كان عددها اقل مما في البلدان الغربية . والموقف الرسمي هو : «نريد أن تكون نساؤنا جميلات! قبل الثورة كان الاغنياء وحدهم يحوزون المال لارتياد معاهد التجميل . وقد اتاحت الثورة لكل امراة ان تعتني بنفسها» (١) .

في الواقع ، غالبا ما يرمز الماكياج في نظر الشابة الكوبية الى الرفض المتفطرس لوصاية الاهل والاسرة ، بينما يشير في البلدان الراسمالية في غالب الاحيان الى الخضوع السلبي للتقاليد . لكن الزينة النسائية لا تزال ، في احد مظاهرها الاخرى ، يحوطها الالتباس ، اذ كان مصير النساء على امتداد قرون وقرون رهنا بإشارة الرجل الذي يختارهن . والحال ان التظرف والشعر الطويل واللباس الانيق لدى الذكور تعتبر من علامات الانحطاط .

والحق ان الوضع ينطوي بمجمله على قدر لا بأس به من الالتباس والبلبلة. وتلخصه اليزابيت سوذرلاند على النحو التالي :

«بعد كل حساب ، يتبدى لنا وضع المراة والعلاقات الجنسية في كوبا مزيجا غريبا ولكن لا يبعث البتة على الدهشة والاستغراب من أمور ماضية وحاضرة ومستقبلة ؛ مزيجا من الثورة والنزعة المحافظة ، من السمات المميزة للبلدان الرفيعة التصنيع والسمات المميزة للبلدان المتخلفة . وقد تم وسيتم تحقيق تقدم هائل على طريق تحرر المراة . لكن اذا عنينا بذلك التحرر الانعتاق من الادوار والتعاريف القديمة واتاحة امكانيات جديدة ، فسنكون اقرب الى الواقعية لو اعتبرنا ما طرأ من تغيرات حتى يومنا هذا معبرا الى الثورة القادمة الشاملة وليس هو هذه الثورة عينها ...

«حتى لو اراد ذلك الرجال الذين يمسكون بزمام مصائر البلاد ... لحالت الضرورات الاقتصادية والسياسية في كوبا دون امتداد الثورة الى بعض المجالات، وعلى الاخص خارج نطاق العمل ، على اعتبار ان الاولوية المطلقة انما هي للكفاح ضد التخلف المادي ؛ ومن وجهة النظر السياسية ، تكثر بين الناس اسباب الاستياء والتذمر ــ مثل موضوع التقنين على سبيل المثال ــ بحيث لا يجد العهد من مصلحة في الاقدام على اتخاذ تدابير لاشعبية في ميادين قابلة للانفجار كميدان الانوثة والذكورة » (٢) .

---

١ ــ جوان برمان : «النساء في كوبا» في «النساء : مجلة للتحرر» ، المجلد ١ ، العدد ٤ ، ص ١٢ .

٢ ــ سوذرلاند : «الثورة الفتية» ، ص ١٨٣ ، ١٨٧ .

بيد اننا نجانب الصواب لو حسبنا ان النساء الكوبيات لم يوجهن اي نقد ولم يحاولن إحداث اصلاحات ايجابية في كوبا . وليس للدهشة أن تأخذنا حين نجد ان المبادرة جاءت على الاخص من صاحبات الامتيازات من النساء ، من امثال الطالبات الجامعيات اللواتي التقتهن اليزابيت سوذرلاند في هافانا : فهن اللواتي يقاسين اكثر من سواهن من تصادم التناقضات ، من وجود «الحب الحر» وجهل شبه بدائي ، من غياب اي نظرية رسمية في ميدان يعنيهن الى اقصى حد . في ١٩٦٧ تدوولت في جامعة هافانا وثيقة تضمنت خلاصة المناقشات الثورية في الاتحاد السوفياتي في العشرينات ، كما تضمنت عرضا لمطالب النسويات في بلدان الغرب الرأسمالية :

«الاستقلال الاقتصادي لا يكفي . وليس الهدف تمكين المرأة من سد حاجاتها ... وانما الهدف تمكينها من تغيير موقفها تجاه الحياة ... ولن تحل هذه المشكلة بمجرد دمج المرأة في عالم العمل . ان تحريرها من دورها كربة بيت لا يؤدي آليا الى تغيير رؤيتها للحياة . والمرأة التي تشتغل في سبيل الجماعة يمكن أن تستمر في النظر الى وجودها من منظور الخنوع والسلبية . وليس تحويل المهام النسائية سوى الاساس لتحويل النساء ... والشيء الذي ينبغي ان يتغير هو موقفهن بتمامه . المسألة اذن مسألة سيرورة تحقيق شخصي لا تتمثل في الانكباب على مهمة خلاقة فحسب ، بل تستوجب ايضا من المرأة نقل مركز اهتمامها خارج حدود الحياة الانفعالية الشخصية والاسرة «النووية» الى مجال ارحب ... يقع فيما وراء المصلحة الفردية وفي قلب النشاط الاجتماعي . ان المرأة تحقق ذاتها كشخص حين يتجاوز افقها مصالحها الانانية .

«ان الكفاح النسوي الحقيقي يكمن في نبذ جميع التعاليم الملقنة في الطفولة، وجميع الضغوط العائلية إبان المراهقة ، بل حتى الفكر الاجتماعي السائد الذي يؤثر على حياة المرأة الراشدة ... والذي يرمي الى تثبيت فكرة «الانوثة» في رأسها من حيث ان الانوثة تلزمها بتكريس حياتها لاكتشاف رفيق تتأثر به عاطفيا وتسير في فلكه في غالب الاحيان» (١) .

ان النساء ، مثلهن مثل السود ، يؤلفن في كوبا جزءاً من جماعة مستعمَرة في داخل مستعمرة . واشكال الاضطهاد تتبدل ، لكن طبيعته العميقة ثابتة لا تحول . وان تقوم المرأة بالثورة يعني ان ترى الاشياء بأم عينها ، ان تتعلم كيف تجس العالم الخارجي بيديها ، أن تتمثل التجربة في عقلها بالذات ، أن تصوغ كلمات ، أن تسك تعابير ، أن تتخلص من القناع الذي لا يلتصق على وجهها فحسب بل الذي دخل ايضا الى جلدها عقب قرون وقرون من السيطرة الاجنبية .

وللوصول الى ذلك ، لا بد من المبادرة الى فعل جاد على صعيد الابداع الثقافي الثوري ــ فعل لا يمكن ان ينجم الا عن تفتح انساني يتوج تحركا عمليا واعيا .

---

١ ــ المصدر نفسه ، ص ١٨٧ ــ ١٨٨ .

«ويسالونك عن المحيض قل هو اذى ، فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ... نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم انى شئتم ... وللرجال عليهن درجة ... واذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن فامسكوهن بمعروف او سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا» .

« القرآن »

«المراة التي ترى من غير ان تثرى تحبط المستعمر . فكلام الرجل لا يعود هو القانون . والنساء لا يعدن صامتات» .

فرانز فانون

«تولى مسؤولية الطابور واحد من الشبان الذين يرتدون المعاطف الواقية من المطر ؛ كان المعطف ملطخا بالدم ، وكان الشاب قد حمل المندوب القائد . وراح يصدر اوامره الى شابين آخرين يرتديان المشمع الازرق المدني الذي ينوب مناب الزي الرسمي في تسلسل جبهة التحرير الوطني ...

«قودا النساء والاطفال الى مترو سفير ـ بابيلون . سوف نتراجع الى بولفار سان جرمان ونجرهم وراءنا !» . كان يتكلم بالفرنسية . ثم اعطاهم بركته بالعربية : «بركة» .

افترقت المجموعات ، لكن نفيسة بقيت مع الرجال .

قال حنا : «يجب ان تنضمي الى النساء . سأقودك اليهن!» .

«لا اريد ان اذهب مع النساء . فهن مجرد نساء ، اما انا فمناضلة !» .

استدار القائد الشاب واستفهم عن سبب النقاش . كان وجهه فتيا ، متآكلا بالجدري ، حزينا .

قال حنا مفسرا : «هذه الفتاة تابى الذهاب مع النساء» .

سألت نفيسة : «كيف تجرؤ على الكلام عني على هذا النحو؟ انت لست حتى منا ! انني مناضلة في جبهة التحرير الوطني ، ومكاني في الطابور !» .

قال القائد لنفيسة : «اذهبي مع النساء !» .

«كلا ، انني مناضلة . مكاني في الطابور !» .

رد القائد : «ما عليك الا الطاعة !» .

قالت نفيسة : «انت لست من خليتي ، ولن اتلقى اوامر من

غريب !» .

قال القائد : «لا استطيع اجبارك على تركنا» . واضاف وهو يتوجه بالخطاب مباشرة الى حنا : «خذها تحت حراستك ! بركة ! » .

قال حنا واعدا : «سافعل ما بوسعي» .

هتفت نفيسة : «سآخذ نفسي تحت رعاية نفسي . انني مناضلة في خليتي ...» . لكن القائد كان قد ابتعد ...

قال الضابط : «انه تفتيش روتيني يجري امام شهود . يجب ان يكون تاما ...» .

حين رفع تنورة نفيسة حتى منبت الجوربين ، اعتورت حنا اختلاجة وشعر بيد تضرب كتفه . كان يقف وراءه شرطيان . كانا يضحكان ، لكنهما كانا قد شهرا مسدسيهما .

قال احدهما ، وكان عريفا : «تذكر انك شبه مواطن فرنسي. بوسعك ان تنظر ، هذا ان لم تكن قد رايت اصلا كل شيء ! لكن اياك ان تتحرك !» .

قال حنا : «شيء مقزز ، مقزز ودنيء !» .

قال العريف : «لا تتحرك !» .

صدرت عن نفيسة صرخة ؛ شدت فخذيها حين احست بيد الضابط تتسلل تحت إليتيها . تراجع الضابط خطوة الى الوراء وضرب براحة يديه مرتين على التوالي نقرة ركبتيها . وحين تراخت الساقان ، دس يده اليمنى بين فخذي نفيسة . كانت تتلوى وتئن .

هتف الضابط : «ثمة شيء صلب . وما هو هذه المرة بقضيب . انني اعرفكن يا عذارى الاسلام : فلديكن هنا مخبأ لاي شيء كان ـ اليس ما اقوله صحيحا ، يا آنسة ؟» .

تمتمت نفيسة بكلمة ما، وندت عنها صرخة، ثم قالت شيئا ما.

قال الضابط : «لا اريد قصصا يا آنسة . لقد عرفت حقائق الحياة قبل ان تولدي !» .

رفع الضابط يده وشد فجأة على سليب نفيسة ، فسقط عند كعبيها : كان السليب ابيض ، وكانه رمز استسلام .

قال الضابط : «لنعاود تفتيشنا» .

تقدمت نفيسة خطوة الى الامام لتحرر قدميها من ربقة النايلون والمطاط الذي يحبسهما . ثم انقضت كحصان ، وضربت بكعب حذائها الجلدي عظم ساق الضابط . فصرخ المفتش : «خراء !» .وامسك بها من معصمها ، بينما عاود التنقيب بيده

الحرة . وسحب ، وهو يزمجر ، شيئا ما من بين ساقي نفيسة.
ثم فتح يده لتسقط منها على الرصيف سدادة قطن مدمية .
اعلن الضابط : «انتهى التفتيش !» . وسحب منديله من
كمه الايمن ، ومسح به يديه . ثم ارجعه الى مخبئه .
«بوسعكم الانصراف ، ايها الشبان ! ها قد رايتم انه لا
داعي لخوفكم من العدالة الفرنسية اذا كنتم ابرياء !» .

فرنسيس فيتون

«تظاهرة»

في «استانذ» ، المجلد ٦ ، العدد ٣ .

جرى ذلك اللقاء بين نفيسة وقوات الامن بمناسبة تظاهرة هامة وصفها لنا فرنسيس فيتون في قصة قصيرة بعنوان «تظاهرة» . وقد جرت في ١٧ تشرين الاول ١٩٦١ ، ورافقتها نشاطات اخرى كانت بمثابة علامة في فرنسا على دوران رحى الحرب . واللقاء صورة رمزية عن الاحتكاكات التي قامت بين نساء جبهة التحرير الوطني و«مستعمريهن» . فنفيسة تميز نفسها عن «النساء» : ترفض انوثتها لانها تستتبع في نظرها السلبية . لا تعي قيمة ذاتها الا من خلال كونها مناضلة ، وتكتشف هويتها في حركة التحرير لا في صفتها امراة . الا انها تبقى في نظر الرجال امراة . ولقاؤها برجال الشرطة يضعها من جديد وجها لوجه امام دونيتها . وتحت ستار الاجراءات الروتينية والشرعية يذلونها بسبب انتمائها العرقي كجزائرية ، وبسبب جنسها كامراة . وتقف عاجزة عن النجاة بجلدها : فحركة احتجاجها الوحيدة ضربة الكعب التي هي ضربة نسائية الى حد كبير . وحنا يقف هو الآخر عاجزا الى حد العنة . فهو لا يستطيع حمايتها بصفته رجلا على نحو ما يحدد نفسه . بل هو مكره ، بعد ان اشعره الرجال البيض بانه رجل مخصي ، على التواطؤ معهم وعلى التفرج على مذلتها . وكرجل بين رجال ، يكتفي بان يلاحظ . ويتلقى التهنئة على رغبته في ان يكون فرنسيا ـ انه «يتعاون» . والوسيلة الوحيدة المتاحة لاستعادة كرامته وعزله واحترامه لذاته هي الانخراط في صفوف جبهة التحرير الوطني . لكن نفيسة معاقة بجنسها . وحتى لو كان حنا من خليتها ، لما كان عرف الطمث . جنسها ، فخذاها ، يد الشرطي وهي تجس اعضاءها الداخلية ، سدادة القطن ، انينها : «يسالونك عن المحيض ، قل هو اذى» . انه اذاها ، الاذى بين الساقين ، الدم الذي يسيل في الشارع بينما ينظف الشرطي يديه .

كان الاستعمار الفرنسي للجزائر محفوفا بالالتباس . فقد كان للمستعمرين اوجه كثيرة : الوجه الرسمي منها هو التقدم ، التعليم ، الحضارة الغربية . وكان الاستعمار الرسمي يستنكر ويشجب شرط المراة الجزائرية : محجبة ، محجور

عليها ، لا كلمة لها في اختيار الزوج ، مباحة بتمامها للرجل . وقد سن الفرنسيون قوانين ضد تعدد الزوجات وزواج الاطفال ، وشنوا حملة على الحجاب ، ودعوا الى تدريس البنات . وبفضل هذه المفاهيم التحررية المقتبسة من الليبيرالية الغربية نجحوا في تقويض بعض ركائز الثقافة الجزائرية التقليدية التي كانت تقضي على المرأة بالعبودية . لكن ذلك «التحرر» كان مفروضا بتمامه من الخارج، وكان جزءا من عملية فرض الوصاية وتحديث «العقل الاجتماعي» .

يروي فانون كيف كان ارباب العمل الاوروبيون يضغطون على عامل الصناعة. ما كانوا يكتفون باحتكارهم له في المصنع ، بل كانوا يمدون اصابعهم الاخطبوطية حتى الى بيته . كانوا يسألونه هل تتحجب امراته ، وهل يخرجها للنزهة . وفي الختام ، كانوا يقترحون عليه أن يجيء بها الى المكتب او ان يأخذها الى اجتماعات ودية في المصنع :

«نظرا الى ان الشركة اسرة كبيرة واحدة ، فمن غير المناسب ان تأتوا بدون زوجاتكم ، أتفهمون ؟ وإزاء هذا الانذار يجد الجزائري نفسه امام اختيار صعب. فان قدم مع زوجته ، سلم بهزيمته ، «عهّر» ، عرض زوجته ، تخلى عن شكل من اشكال المقاومة . أما اذا ترك زوجته، بالمقابل ، في البيت ، فانه يجازف بإثارة غضب رب عمله ويعرض نفسه لخطر البطالة» (١) .

كان لسلبية المرأة الجزائرية ولقدريتها في نظر المستعمِر جانب أخاذ وجانب آخر يبعث على الغيظ في آن معا : فقد كانوا يدركون ان النساء اللواتي بلغن سنا معينة يتقلدن نوعا من السلطة يتيح لهم الابقاء على النظام القائم ، وان قبول النساء الشابات قبولا غير مشروط بسيطرة ازواجهن يمنع هؤلاء من طاطاة الراس امام المستعمِر . كان الجزائري يستمد من ذكورته قوة ، اذ كان يسيطر سيطرة تامة على امراته . وقد وصف فانون رمزية الحجاب في روح المستعمر . فهو يجسد الواقع المستتر للاستغلال والاسترقاق . ويرمز بإلحاح وثبات الى الاغتصاب . «كان التحرر في نظر الاوروبي يعني الاستحواذ على المرأة الجزائرية بفضل الحضارة الغربية» . كان يريدها ان ترى نفسها بعينيه ، وأن تتبرج طبقا لصورة مثله الاعلى . كان يريدها ان تأخذ بحركة النساء الاوروبيات ولغتهن وشكليتهن . ثم كان يشتهي ان يستحوذ عليها . فعلى صعيد الجنس ، وهو صعيد خاص ، تعود كما كانت جزائرية مستعبَدة . وقد ساهمت الاوروبيات لاإراديا في ذلك التطور ، اذ كن يجدن البرهان على تفوقهن في مسعى الجزائريات الى تقليدهن . وفي الواقع ، كان تأورب الشابة الجزائرية يعني في الغالب فوزها بضرب من حرية نسبية . كانت تدخل الى ميدان متعدد الحواجز : وفي حال امعان النظر في ما تفعله عن قرب أقرب ، كان جليا انها انما تقايض اضطهادا بآخر ، لكن الاستعمار

---

١ ـ فرانز فانون : «استعمار محتضر» ، بنغوان بوكس ، هارموند سورث ، ١٩٧٠ ، ص٢٥ .

كان يسجل نصرا ضئيلا الا انه على ضآلته ذو دلالة واهمية .

«كانت كل جزائرية بلا حجاب تبشر المحتل بمجتمع جزائري آخذ نظامه الدفاعي بالتخلع والانفتاح والتصدع . كان كل حجاب يسقط ، كل جسم ينعتق من إسار الحيك (١) التقليدي ، كل وجه يعرض نفسه سافرا لنظرة المحتل المتجرئة والمتلهفة ، تعبيرا سلبيا عن واقع ان الجزائر في سبيلها الى انكار ذاتها والى القبول باغتصاب المستعمِر» (٢) .

كان يعي ذلك الرجال الجزائريون ، مهما اختلفت ميولهم السياسية . وكان العمال الجزائريون في فرنسا ، ممن انقطعت أواصرهم المعتادة بالاسرة التقليدية ، يجسدون نمط الاجتثاث الاستعماري بالذات . أما على ارض الوطن ، فقد كانت النساء يتكفلن باعادة بناء الوحدة . كان الرجل المستعمَر يتحول الى حد ما الى غريب . كان الجزائري في باريس يحيا في وسط مذكر في الجوهر وفي حضارة اجنبية . كان يقيم في الاحياء الفقيرة من المدينة او في مدن الصفيح في الضواحي . كان مضطرب النفس ، عدوانيا ، عرضة شبه دائمة للاهانة . وكان يبغض بذاته ذاته في مجتمع كان فيه التفوق وعزة النفس وقفا على المستعمِرين.

كان الجزائري ، العامر راسه بالخيال ، يتحول الى لص اذا ما جن الليل . كان يحاول ان يستعيد من المراة الاوروبية الرجولة التي سرقت منه ، لانه كان عاجزا عن مواجهة زوجها . كان الظمأ الى الانتقام يضنيه . كان يعذب نفسه بنفسه بسعيه ، حين يسدل الليل ستاره ، وراء لقاءات عابرة في الشوارع المقفرة، ملتذا بخوف«ها» حين تضيق المسافة بينه وبينها وحين يتسارع خطوه بينما تلتصق هي بالحائط . وكان يلتذ بعنف رفضها . فقد كان يشعر بأنه هو الاقوى حين يحصرها ويضيق عليها الخناق ثم يبصق في وجهها قرفه وازدراءه . كان ينتظر بصبر اللحظة التي يمكنه فيها حيازة امراة بيضاء كما يحاز الشيء ، وإذلالها اكثر من اي امراة جزائرية اخرى ، ويداه تشدان على رقبتها وفمها لكتم صراخها او تباعدان ما بين ساقيها بينما شرطة«ها» عاجزة عن انقاذها . لكن هذا الانتقام الجنسي المسروق كان ينقلب على الرجل المستعمَر . فقد كان يدرك انه يزداد علوقا وتخبطا في بُنى مضطهِده ، وانه يأخذ وجه الطفيلي الثقافي . ومع اشتداد ساعد الحركة المعادية لفرنسا ، راح ولاؤه يتوضح ويتعمق . واخذ ظمؤه الى الانتقام منحى سياسيا . وكانت حركة التحرر مرتبطة وثيق الارتباط بالامل في عودة احترامه لذاته والصفات التي يرى في اجتماعها الرجولة . وكان دور المراة الجزائرية شديد الالتباس ، وكان الرجل الجزائري يشتهي استعادتها اكثر مما يشتهي تحريرها .

---

١ ـ الحيك : ثوب ابيض خارجي تقليدي في شمال افريقيا . «م».

٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٨ .

ان القرار ، الصادر في عام ١٩٥٥ ، باشراك النساء في النضال ، لم يتخذ بخفة . فقد أملته الضرورة وحاجات القضية . كانت النساء قد ساعدن الانصار في الجبال ، لكن ما عهد اليهن قط بمسؤوليات . وبعد صدور القرار ، تم التوجه في البداية الى زوجات المناضلين ، ثم الى الارامل والمطلقات . وتطوعت الشابات العوازب ، وارغمن جبهة التحرير الوطني على القبول بمساهمة النساء . وتولت النساء ، من دون ان ينزعن الحجاب ، تأمين الاتصال مع القصبة ، لكن حين كن يعملن في الشطر الاوروبي من المدينة كان الحجاب يثير حولهن الشبهات . فلم يكن من المعتاد أن تغادر شابة جزائرية محجبة عتبة القصبة . ولدواع سياسية ، تخلت عن الحجاب . كانت لها ملامح امراة اوروبية ، تغازل الجنود الفرنسيين ، وتواجه اهانات وبذاءات الرجال الجزائريين حين تتولى المراقبة امام مقر الاجتماع . وبدءاً من ١٩٥٦ صارت تنقل القنابل والمسدسات والقنابل اليدوية . كانت مزودة ببطاقة هوية مزورة ، وكانت مسؤولة عن حياة المقاتلين . وكان لنشاطاتها اهمية حيوية بالنسبة اليها هي نفسها . فقد خلعت عنها نير عزلتها .

يصف فانون التغيرات التي طرات على علاقاتها بجسمها بالذات ، فقد تبدلت مشيتها بعد أن تحررت من ضيق اللباس التقليدي . ولم يكن ذلك نتيجة اكراه ، بل نتيجة اختيار شخصي . وكان يتملكها الذعر من ذلك :

«يراودها شعور مكرب ، شعور بشيء ناقص يواكبه احساس مرعب بالتحلل. ان خلع الحجاب يشوه البنية الجسمية للمراة الجزائرية . فهي مضطرة الى ان تخترع بسرعة ابعادا جديدة لجسمها ، وسائل جديدة للتحكم بالعضلات . عليها ان تتدبر لنفسها وضعية امراة غير محجبة . عليها ان تتغلب على حيائها ، على تلبكها (اذ ينبغي أن يحسبها الناس اوروبية) ، متحاشية في الوقت نفسه كل مبالغة اذ لا يفترض فيها ان تلفت الانظار . ان المراة الجزائرية التي تتقدم عارية في مدينة اوروبية تعاود تعلم جسدها ، تعاود تركيبه على نحو ثوري» (١) .

حين شرعت السلطات تفتش عن السافرات من النساء ، تحجبت الجزائريات من جديد ، لكن الامر كان مجرد تدبير سياسي هذه المرة . فقد تغيرت رمزية الحجاب : تحول من علامة مميزة للنساء والمحظيات في المدن الى رمز لعزلة المراة الجزائرية ، وفي خاتمة المطاف الى اداة ثورية .

لقد غير النشاط السياسي ايضا علاقات المراة الجزائرية بأسرتها . كانت تضطر الى السفر والى تمضية الليالي خارج البيت . ولولا الضرورة الناجمة عن الموقف السياسي ، لكان الآباء والازواج الجزائريون تقلبوا على جمر مشاعر العار والارتباك . ولكنهم كانوا يعلمون ان الاصدقاء يمرون بالامتحان نفسه . وطفقت الفتيات يعجبن بالنساء اللائي ينفذ فيهن حكم الاعدام او يلقى بهن في السجون من

---

١ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٤ .

اجل حركة التحرر . ولم يكتفين برمي الحجاب وبالتبرج ، بل انضممن ايضا الى الرجال في المقاومة . كن يرجعن الى البيت مشحونات بالافكار وبالحجج . اما البكارة فما كان آباؤهن في وضع يؤهلهم لطرح اسئلة بخصوص هذا الموضوع اذ كانت حياتهن معرضة للخطر وكن يجازفن بأكثر مما يجازف به الرجال . هكذا تراخت شيئا فشيئا قبضة الرقابة الابوية . ولم يعد الاهل هم الذين يرتبون الزيجات . وطفق نمط جديد في الانعتاق يتطور بدءاً من جبهة التحرير الوطني : انعتاق لا يفرض من الخارج كما هو شأن انعتاق المستعمرين ، بل يتبع من رابطة الحياة الجديدة ومن العلاقات الجديدة التي قامت بين الرجل والمرأة على اساس من تبعية متبادلة .

لم يكن النضال في صفوف حركة التحرير يخلو من أوجاع جسدية ومعنوية. ويشير فانون الى أمراض عصبية نفاسية ، وعلى الاخص في مخيمات اللاجئين . وفي كتاب «الفنغرينا» ، الذي يسرد قصة الفظائع الفرنسية المقترفة في الجزائر، وصف للتعذيب الذي تعرضت له نساء المقاومة الجزائرية . وكانت تبرز ايضا مصاعب بين الرجال وزوجاتهم . يتحدث فانون عن حالة واحد من مرضاه اغتصب الفرنسيون زوجته . ما كان أحبها قط حبا حقا ، وكان يعلم ان اعمال الاغتصاب تلك شائعة . كان قد رأى فلاحين يمسحون دموع زوجاتهم اللائي اغتصبن على مرأى منهم . وكان يعلم ايضا انها حمته بصمتها ، هو ومنظمته . وفي الواقع ، كان التزامه السياسي هو الذي أودى بها الى ذلك الموقف .

«مع ذلك لم تقل لي : انظر ما اتحمله من أجلك . بل قالت على العكس : حاول ان تنساني ، أعد بناء حياتك ، فقد جللتك بالعار ! كانت تشعر فعلا بأنها مجللة بالعار ، لكن احساسها بالاثم كان مرجعه موقف الرجل . فزوجته وولده باتا فاسدين في نظره ، وما عاد في وسعه ان يعاشر غيرها من النساء من دون ان يفكر: لقد ذاقت من طعم الفرنسيين !» (١) .

ان الصراعات المكشوفة يمكن ان تجد حلا . لكن ذلك الصراع وذلك الالم الداخليين يؤثران تأثيرا مغايرا على من يعاني منهما . فلا شيء من هذا التأثير يظهر على السطح . والصراع يدور على مستوى الوجدان . ولا غرو ان يعامل الحزب بعد التحرير المناضلات معاملة متناقضة . فالرجال هم الذين كانوا يسيطرون على الحزب في خاتمة الحساب ؛ وما كان الرجال يكفون عن الاحساس كرجال وان نشطوا كمناضلين . كانت بنيتهم الداخلية تتميز بعداء عميق تجاه تحرر النساء ، رغما عن التصريحات الرسمية . وعبثا كان يؤكد بن بلا ان تحرر المرأة ليس هدفا ثانويا ، وان الغاء العبودية النسائية شرط لبناء الاشتراكية . فعلى الصعيد العملي كانت المرأة الجزائرية تواجه واقعا مغايرا تماما : كانت تتطور في عالم يسيطر عليه

---

١ ـ فرانز فانون : «معذبو الارض» .

ويحدده بتمامه الرجل . كانت موضوعا لنكات جنسية ورقابة أبوية ومجاملة لامبالية . وحين كانت امراة ما تحتج على تعدد الزوجات امام جمع من الرجال ، كانوا يهزؤون منها . هكذا كان الاغراء قويا امامها في الاحتماء خلف حجابها والتخلي عن النضال ضد السد الذي يحيط به الرجال ثورتهم . وبالرغم من ان الحزب عبر عن امنية ورعة في أن تشغل النساء مناصب معينة ، الا انه كان يجري استبعادهن في كل حالة عينية بحجة افتقارهن الى التاهيل والتجربة والتربية .

ما كانت هذه المشكلات مطروحة في الجزائر وحدها : لكن وضع الجزائر الخاص كان يجعل من المتعذر على النساء اختراق جدار مقاومة الذكور . وعلى الصعيد السياسي ، جاء تعزيز التفرقة الجنسية بعد التحرير بانشاء خلايا منفصلة للرجال والنساء ليحول بين النساء وبين مقايسة انفسهن بالرجال على المستوى المحلي . والادهى من ذلك ان الحكومة الثورية لم تتخذ اي اجراء قانوني لاصلاح الزواج والاسرة . فقد لبث مباحا للرجال وضع حد للزواج بتطليقهم زوجاتهم . وكان ما ينجم عن ذلك من خوف وشعور بعدم الامان يمنع النساء من معارضة ارادة ازواجهن . لقد قضي على المراة من جديد بالتزام جدران البيت ، واستمر الرجال في معارضة كل محاولة نسائية لتخطي حدوده . وحافظ المثل القائل : «لتصنع النساء الكسكسي ونحن السياسة» على كامل قيمته . والى هذا الموقف انضاف تصميم الرجال على الفوز من جديد بالسيادة التي كان الاستعمار قد حرمهم منها.

كان الدين يعزز اضطهاد النساء . فكما كان طهرانيو القرن السابع عشر يقتبسون حججهم من التوراة («ضلع آدم» ، الخ) ، كذلك كان جزائريو ١٩٦٠ يستشهدون بآيات القرآن . وبالرغم من ان تعاليم محمد كانت تقدمية الى حد ما في سياق القرن السابع ــ فقد كان يحث اتباعه على حسن معاملة النساء ــ الا انها ما كان يمكن ان تسد حاجة نساء حاربن لتوهن الفرنسيين . وفي حزيران ١٩٦٤ صرح الهاشمي التيجاني ، رئيس رابطة «القيم» ، انه لم توجد قط نبيات... الامر الذي يشهد على دونية المراة ، تلك الدونية التي تذرع في تأييدها ايضا بواقع ان دماغ المراة اصغر بيولوجيا من دماغ الرجل (١) .

امر آخر له اهميته : فقد كان الوضع السياسي العام للثورة الجزائرية يجعل من المتعذر النضال ضد تلك الميول . فمحاولة بن بلا ايجاد «طريق أوسط» بين المعسكر الراسمالي والمعسكر الاشتراكي سرعان ما أوقعته في تناقضات مالية وتجارية وفي مواقف ملتبسة حين تنطع للقيام باصلاحات داخلية . وبعد سقوطه، شهدت الجزائر انعطافا الى اليمين . وبدلا من ان يتوقف اضطهاد النساء ، عاد الى سيرته الاولى على نحو مكشوف وصفيق. بل حتى الاحتجاجات اللفظية الصرف زالت واختفت . وتعاظمت صعوبة انتقاد العهد . واستمر تعدد الزوجات يعيث فسادا في الريف ، ومال الى التوسع بالاحرى . وكان بوسع الفلاح الجزائري في

---

١ ــ فضيلة مرابط : «الجزائريات» ، باريس ١٩٦٩ ، ص ١٠١ .

١٩٦٧ ان يقتل زوجته وأن يبقى مستريح الضمير اذا ما اشتبه في خيانتها .

شنت حملة شعواء على «الالحاد البلشفي» و«المادية الاوروبية واليهودية» . ولم تعد كتب فانون مرضيا عنها . وجرى التذرع بـ «نزعة انسانية اسلامية ثورية» مزعومة لاقصاء الاجانب والمؤثرات الاجنبية ، وللعودة الى التدابير الرجعية فيما يتعلق بالجنس والاسرة . وارتأى بعضهم انه من اللباقة التمييز بين «السلفية التقليدية» و«السلفية الاستعمارية» . ولا مفر من الاعتراف ان الثانية كانت أنسب للنساء من الاولى من المنظور النسوي . وما كان في مستطاع النساء الرجوع الى ايديولوجيا **الثورة** للذود عن قضيتهن ، لان النزعة القومية الاسلامية ، بخلاف الماركسية ، نظرية قاصرة على ذاتها لا تقبل بأي توسيع . وقد أوضح الرئيس بومدين بلا التباس ، في خطاب القاه في ١٩٦٩ في الجزائر العاصمة ، بمناسبة توزيع الجوائز في احدى ثانويات المدينة ، انه يريد مستقبلا مختلفا لبنات البلد وصبيانه : فدور النساء إنجاب الاطفال وتنشئتهم ، والسهر على الحفاظ على الخلق العربي والاسلامي ؛ اما الرجال فسيتولون المسؤولية السياسية في الدولة. وادلت الصحيفة اليومية «المجاهد» بدلوها هي الاخرى في الموضوع : «المراة حارسة التقاليد والعمود الفقري للاسرة ، خلية المجتمع الاساسية . وكل حياة خلقية او منحلة في الاسرة او في المجتمع انما تتحدد في المقام الاول بسلوك المراة. دورها اذن حاسم» (١) .

في الريف ، تعيش النساء مثلما عشن على امتداد قرون وقرون . فالفتيات الصغيرات يحرسن قطعان الماشية ، ويقبلن بالزوج الذي يعينه لهن الاب . وفي المدن الصغيرة يعشن محجورا عليهن عمليا . وفي الجزائر العاصمة ، تنعم الطالبات الجامعيات والسكرتيرات والنساء الممارسات لمهنة من المهن بقدر من الاستقلال الشخصي ، لكنهن يؤلفن نخبة لا تحتك بسائر النساء . ومن صفوف هذه النخبة تختار النساء النائبات في الهيئات الحكومية . لكن حتى هذه الامتيازات تختفي وتزول حين تتزوج أولئك النسوة ويصرن أمهات . وفيما عدا هؤلاء النساء المتميزات المنتميات الى الطبقة المتوسطة المدينية ، لا تعرف الاستقلال الاقتصادي سوى عاملات الصناعة . بيد ان مشاركتهن زهيدة ومحدودة بصناعة النسيج وصناعة الملابس . وغالبية النساء يعملن في البيت او في الزراعة . ولقد وجد اتجاه في البداية الى ادخال النساء في عملية الانتاج ، ويقر بضرورة ذلك اليوم بعض قادة الحزب ؛ الا ان اجراء كهذا سيهدد بلا ريب سيطرة الرجل على المراة ، ولهذا يبدو ان التطور المعاكس هو المرجح . وبأسلوب يعيد الى الاذهان انكلترا الفيكتورية ، يؤكد منشىء رسالة نشرت في «المجاهد» في آذار ١٩٦٧ انه «يتوجب على الرجل ان يرى في المراة ... رفيقة رقيقة ، رفيقة تؤاسي جراحه بعد يوم

---

١ ـ هيلين فاندفيلد : «الشرط النسائي : الانعتاق معوق بالامتثالية الاجتماعية» ، في «لوموند» ، ٢٤ ـ ٢٥ كانون الثاني ١٩٧١ .

طويل من العمل وتخفف عنه تعبه» .

تجد الجزائرية الشابة نفسها تواجه تناقضات عديدة . فهناك ، من جهة اولى ، فرائض الحياة العملية : فهي مرغمة على ترك مقاعد المدرسة ، واخوها يراقبها حين تخرج مع اصدقاء . وعليها أن تحافظ على بكارتها سليمة لم تمس ، وإلا فقدت حظوتها وسقطت اجتماعيا . لكن وسائل الاعلام الجماهيرية تنقل اليها صدى عالم مختلف . فهي تدرك ان الرجال تفتنهم وتأسر ألبابهم صور الجنسية الغربية التي يدينونها ، وأن عدد البغايا والنساء المهجورات الطالبات للطلاق يتزايد . ونفسها موزعة بين الخنوع الفردي والتمرد . ومأزقها بلا مخرج ... فمهما فعلت تبق رهينة الرجال ، والرجال هم الذين يقررون مصيرها .

«ما هي اذن بحرة ، ومهما تفعل تبق تحدد موقعها وتتصرف وتحاكم الامور نسبة الى الرجل : فهي تخشاه او تتحداه ، تحترمه او تستفزه ، ابدا لا تتجاهله ... لا يكف عن النظر ، لا تكف عن رؤيته ، تقول عن نفسها انها حرة ، وتحس بأنها مذنبة» (١) .

ان ارتقاء النساء الثقافي مرتبط وثيق الارتباط بالتطور العام للمجتمع الجزائري . وتجد المراة نفسها في وضع يستحيل معه عليها ان تنعتق من استعمارها واضطهادها الخاصين والنوعيين ما دامت مكانة المستعمرين القدامى قد شغلها آخرون لا اكثر ولا أقل .

على انه في المستطاع استشفاف بعض عوامل ـ غير كافية بالتأكيد لقيام تحرر أصيل ـ تنذر بتشديد حدة التضاد بين محاولة شد المراة الى التراث الاسلامي والعربي وبين تطور الجزائر الاقتصادي . فمن المرجح ان التصنيع سيجتذب المزيد من النساء الى الصناعة ؛ وثمانون بالمئة من النساء يعرفن القراءة والكتابة . وسوف تشجع هاتان الواقعتان النساء على عدم الاكتفاء بتلك الحياة التي كانت حياة امهاتهن . ومن جهة اخرى ، لا تقبل النساء كافة قبولا سلبيا بمصيرهن وقسمتهن . هكذا ينادي «الاتحاد الوطني للنساء الجزائريات» بضرورة النضال «ضد بعض التقاليد السلبية التي لم يعد لها من مبرر للوجود» . ومن هذه التقاليد : شرعة الاسرة ، وضع المراة القانوني ، تعدد الزوجات ، طلاق التطليق، الحق في «الجبر» الذي يأذن للاب بتزويج اولاده على نحو ما يحلو له . وقد انتهى الامر ببعض الشابات الى وعي وضع الاشياء هذا بالرغم من العقبات العديدة ومن موقف دفاعي ناجم عن هيمنة التراث العربي ـ الاسلامي المرفوع الى مرتبة الايديولوجيا الرسمية . كتبت فتاة في مقتبل العمر الرسالة التالية الى احدى المجلات : «يجب ان تكون المراة حرة . ولا يجوز لها ان تقلد الرجال بغباء ؛ فهي عديلة الرجل ولا يجوز لها أن تعتمد على موقف زوجها . يجب ان تستقل بنفسها» .

---

١ ـ فضيلة مرابط : «المراة الجزائرية» ، باريس ١٩٦٨ ، ص ٦١ .

امامنا هنا نسوية اخلاقية تؤكد الحقوق الفردية للمراة ؛ الا ان هذا موقف جذري في السياق الجزائري . ويعجز وحده عن تغيير شرط المراة . ان النساء الجزائريات يعللن النفس بالتحرر . ووضعهن الفعلي هو بمثابة تحذير من كل تفاؤل مغالى فيه . وفشل الثورة الجزائرية في هذا الميدان يفتح آفاقا جديدة للثورات في بلدان نامية اخرى .

في فرنسا ١٩٧١ احتجت بنات المهاجرين الجزائريين ، لا على الاستعمار الاجنبي كما فعلت نفيسة ، وانما على الزامهن بمشاطرة فراش رجل لا يحببنه . وكان سلاحهن هو ذاك الذي لجات اليه النساء في كل زمان في ظروف مماثلة : الانتحار . ان في الامكان ان نتراجع حتى ونحن نتقدم . واذا ما انعزلنا امكننا ان ندمر بعضنا بعضا .

***

يمكن لنزعة الحماية المتسامحة والمتغطرسة في آن معا ان تتلبس اشكالا عدة . احيانا ، تتمثل هذه النزعة في القول بوجوب ان يريد المرء ما هو كائن عليه او ما يأمل بأن يكونه . واحيانا تتمثل في عكس ذلك : اذ يصور لنا الآخرون مختلفين عنا اشد الاختلاف حتى ليتعذر عليهم ان يشاطرونا ابدا صبواتنا . والمحرومون والسيئو الحظوظ حساسون بهذا النوع من المواقف . وبصفتي امراة ، اقر بأني حساسة بنزعة الحماية المتسامحة والمتغطرسة . وبصفتي امراة بيضاء تنتمي الى الطبقة الوسطى في دولة متروبولية ، اجد نفسي متورطة عميق التورط في صلف المالكين . وبصفتي ماركسية ونسوية ، اثمن عاليا عناصر النزعة الانسانية البورجوازية التي دمجها ماركس بفكره وحولها . ولست اريد للحركة الثورية ان تستبعد تلك العناصر . وفي الوقت نفسه ادرك مدى ما يواجهه الماركسيون الغربيون من صعوبة في التمييز بين ميراثهم الثقافي الخاص المقيّم بأنه متفوق وبين اللهجة الواجب تشديدها على كون الشيوعية هي ملكوت الحرية لا ملكوت الضرورة . ولما كانت جميع الحركات الثورية قد اضطرت حتى يومنا هذا الى الاكتفاء بأهداف اقل طموحا لمواجهتها مشكلات مادية اساسية، ولما كانت تجربة الاتحاد السوفياتي من جهة اخرى لا تقدم اي حل بديل ، فانه من الصعب في الكثير من الاحيان المحافظة على التوازن بين التضامن والصدق مع النفس . انني لا اؤمن بالزهد ، وتجربة تعدد الزوجات تثير حيرتي ، وتاثير الموضة واللباس والماكياج يبلبلني . ولست ادري كيف تكون الواحدة منا فيتنامية او كوبية او جزائرية . وثمة اشياء اجهلها ، واخرى تجعلني اتردد ، واعلم ان اعمال الفكر فيها لا يكفي لتبين الخيط الابيض من الاسود . ان افعالنا تعلمنا كثيرا من الامور . ويقظة الوعي النسائي الحديثة العهد في اوضاع استعمارية شتى ومتباينة كتلك التي تقوم في موزامبيق وفلسطين وارلندا الشمالية ستساعدنا على ان نحدد

تحديدا افضل طبيعة الاضطهاد وامكانيات التحرر .

عند استعراضنا طبيعة مختلف الثورات التي حدثت في القرن العشرين ، لم نتوقف الا فيما ندر عند وصف تجارب النساء . فالجيل الذي شارك في صنع سياسة اليسار في الستينات قد ورث نصيبه من الصمت والالتباس . وقد خنقت مخلفات دعاية الحرب الباردة في مضمار السياسة الاسرية ، وضغوط سوق متوسعة باستمرار في مجالي منتجات التجميل والسلع الاستهلاكية الدائمة ، خنقت في المهد اي طرح مجدد لمسألة دور المراة في ظل نظام الراسمالية المتقدمة. اضف الى ذلك ان الاتحاد السوفياتي ، الذي كان على امتداد اعوام طويلة مثلا يحتذى في اكتشاف حلول ثورية ، قد عزف عن تجارب العشرينات المبدعة والخلاقة . اما المحاولات المأساوية والمترددة الهادفة الى ربط صبوات النساء ومطامحهن بالثورة ، وما نجم عنها من تقلب وتوتر ، فقد حجبها عن الانظار فشلها وفشل الطبقة العاملة في ارساء اسس الاشتراكية في بلدان الغرب الراسمالية . وقد كان تمحيصنا النقدي لماضينا ، الذي تحقق بفضل **حركة تحرر المراة** ، سريعا ومباشرا في آن معا . كان سريعا لان الحركة التي تطورت مؤخرا هي من صنع نساء احسن وضعا واقوى موقعا من النساء اللائي هاجمن المخابز في القرن التاسع عشر او اللائي التحقن بحركات التحرير القومي في القرن العشرين . وكان مباشرا لان يقظة وعي الاشخاص في اشد ظروف المقاومة تنوعا تفسح في المجال امام لقاءات حميمة الى اقصى حد .

ان تحرر المراة لم يتحقق قط ملء التحقق ، ومشكلة الثورة في الثورة لما تجد حلا بعد . ولا يزال قدر من الارتباك والتلبك يحيط بالعلاقات بين النسوية ، كتعبير عن مطالب النساء بصفتهن جماعة ، وبين الاشتراكية الثورية . والتركيب بينهما لا يمكن ان يكون ذهنيا صرفا ، وانما سينبجس من الافكار التي ستضع موضع تطبيق وستحل وستحفظ وستفجر تصوراتنا الراهنة عن كل منهما .

في كتابنا هذا ، تتبادل كل من النسوية والماركسية التهم . انهما تتساكنان تحت سقف واحد ، ولكن لا يخلو تساكنهما من شعور بالضيق . واحدتهما تتحدى الاخرى ، وكل منهما تستخدم الفاظا غريبة واجنبية بالنسبة الى الاخرى . كل واحدة منهما تسهر بحرص وشك وغيرة على استقلالها الذاتي . هما متنافيتان ، لكن بحاجة كل منهما الى الاخرى . وبصفتي نسوية وماركسية ، احمل في نفسي تناقضاتهما ؛ ويراودني اكثر من اغراء في ان اختار احداهما بصورة نهائية في مسعى مني لتهدئة الانفعال الذي يثيره تناحرهما . لكنني لو فعلت ، اكون قد اسقطت من حسابي الواقع الاجتماعي الذي تولد عنه ذلك التناحر . اكون كمن اتكل على صيغ جاهزة تاتي على راس اللسان بسرعة ورشاقة وتذوب متبخرة فور تعرضها لضوء النهار .

لقد تمت صياغة الماركسية لاتاحة الامكانية لفهم طريقة اشتغال المجتمع الراسمالي ولتغييره . بيد انها لبثت محاطة ببعض الالتباس في مضمار تحرر

المراة . ولقد شاخت الراسمالية ، وتبنت انماطا اجرائية اكثر تقدما وتكلفا ، بينما اتسع وتنوع عبر العالم التنظيم السياسي للشعوب الاخرى التيحرمتها الراسمالية من امتيازاتها . وعلى الماركسية ان تفحص عن كثب وان تعمق تلك التطورات كافة حتى تتمكن من تفسير الراسمالية الحديثة تفسيرا مطابقا . وقد تكهن الماركسيون على وجه العموم بأن الاطاحة بالمجتمع الراسمالي ستستوجب تحويلا شاملا لتنظيم ورقابة الانتاج والعلاقات الاجتماعية الناشئة عن نمط الانتاج الراسمالي . ويقتضي تحرر المراة ــ اذا ما كان للنساء ان يشاركن في الحركة الثورية لا مشاركة المؤيدات او المتفرجات وانما مشاركة الاعضاء الكاملي الحقوق ــ ان يتوسع مفهوم الانتاج ليشمل انتاج النساء في الاطار الاسري وانتاج «الأنوات» عن طريق الجنس . وفي ذلك اعادة توكيد للنية التي اعرب عنها ماركس في دراسة الكيفية التي تعيد بها الكائنات الانسانية انتاج حياتها على نحو شامل . وذلك ايضا عنصر اساسي في كل استراتيجية ترسم في المستقبل للكفاح ضد الراسمالية المتقدمة .

ان عددا كبيرا من النساء اللائي يكافحن في سبيل تحرر المراة ما هن بثوريات. بيد ان مطالبهن المتطلعة الى تحسين وضعهن لا تمكن تلبيتها الا بعد تغيرات اجتماعية شاملة يستحيل تحقيقها بدون ثورة . وقد افهمت **حركة تحرر النساء** هــــؤلاء الاخيرات ان التنظيم الراهن للاسرة يؤدي الى استرقاقهن ، وان نظام العمل الذي يميز بين العمل المؤنث والعمل المذكر يجب ان يعاد فيه النظر اعادة شاملة . وكل تغيير في هذا المجال يثير مشكلة تغيير المحيط الثقافي للمراة ، وبالتالي الرجل ، ومشكلة تربية الاطفال ، وبنية الاماكن التي نقطنها ، وبنية مجتمعنا الذي يتوجب الا يكون هدفه بعد اليوم اغتناء بعض الافراد وانما رغد البشر اجمعين بوجه عام . وتلك فكرة تكسب المزيد فالمزيد من الانصار ، بالرغم من ان وسائل وضعها موضع تطبيق والاشكال التي ستتلبسها في الحياة لا تزال قيد النقاش . لكن الســمــة الاساسية في تلك النسوية الجديدة ، وهي فكرة محركة حقيقية ، هي القناعة بأن تلك التغيرات لن تعقب آليا الثورة الاشتراكية ، بل لا بد من تحقيقها بحركة متمايزة كشرط مسبق للثورة لا كنتيجة لها . ويمثل ذلك بكل تأكيد انتقالا في مركز الثقل بالنسبة الى التقاليد الماركسية الاورثوذكسية . ومربك فعلا هو الموقف الــذي يضعنا فيه واقع ان ما من ثورة اشتراكية قد حدثت في الاقطار ذات النظــام الراسمالي المتقدم . ومن جهة اخرى كانت المشكلات ذات الطابع العام التي انطرحت في المجتمعات التي قامت فيها ثورات ، متداخلة عميــق التداخل بالمشكــلات النوعية الخاصة بالنساء بحيث يصعب التفريق بين العلل والمعلولات .

ان العلاقة بين اضطهاد النساء وبين اكتشاف الماركسية الاساسي ، اعنــي استغلال الطبقة العاملة في ظل النظام الراسمالي ، لا تزال تبدو للانظار وكانها رؤيا من رؤى الفكر . انها تنبجس ، في شكل فكرة ، من راس نساء من امثالي . اما في العالم ، فلا تزال ضربا من فكرة مجردة . واعتقد ان الطريقة الوحيــدة لبث الحياة والوضوح فيها هي انشاء حركة لنساء الطبقة العاملة ، حركة تقاوم فيها

النساء البيض والسود والصفر والسمر العنصرية والامبريالية معا ويناضلن ضدهما . في الساعة الراهنة ، لا تزال المسافة بيننا وبين مثل تلك الحركة شاسعة . لكن يوم تتجلى لانظار الجميع الوشائج بين الاضطهاد الطبقي والاضطهاد الاستعماري والجنسي ، فسوف نرى في تلك الفكرة لا مفهوما مجردا ومفروضا من الخارج ، وانما ثمرة تجربة عدد من النساء .

فهرست

مدخـل	٥
المتهتكات	٨
مقترحات طوباوية	٣٠
تحريض جدلي	٥٢
احلام وخيارات	٧٠
الخبز والورود	٩١
اذا كنت تحب الزلاجة ..	١٢٥
حين تطير الديكة الى السماء	١٦١
مستعمرة في المستعمرة	١٩١

هذا الكتاب

هذا الكتاب لا يضع نظرية جديدة في النسوية ، ولكنه يشتمل على عرض ومناقشة لمروحة واسعة من نظريات تحرر المرأة . وهذا الكتاب ليس تأريخياً ، ولكنه يعيد الى الاذهان كل ما هو هام وحي في تاريخ نضال المرأة في سبيل التحرر .

منطلقه فكرة في غاية البساطة والعمق معاً : ان قضية المرأة جزء اساسي من قضية الثورة، ولكنه جزء متمايز ومستقل ذاتياً . ومن هنا فان الثورة الاجتماعية – التي هي من صنع الرجال – لا تنطوي على حل عفوي وتلقائي لمشكلة المرأة ، وانما قيام ثورة في الثورة هو بداية هذا الحل .

فاين تلتقي قضية الثورة وقضية المرأة وأين تتمايزان ؟ ذلك هو السؤال المركزي في هذا الكتاب الذي يستعرض، بالنظريات والوقائع معاً ، تاريخ الحركة النسوية منذ ان رأت النور مع تباشير المجتمع الرأسمالي ، ومروراً بالثورة الفرنسية ، والاشتراكية الطوباوية ، والاشتراكية العلمية ، ثم الثورتين الروسية والصينية ، ووصولاً الى ثورة العالم الثالث حيث تمثل المرأة مستعمرة داخل مستعمرة ، وذلك من خلال ثلاثة نماذج عينية : كوبا وفيتنام والجزائر .

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الثمن : ١٢،٥٠ ل. ل.
او ما يعادلها